وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

مشاهير من دمشق

احتفالاً بدمشق عاصمة للثقافة العربية

عادل أبو شنب

عادل أبو شنب

مشاهير من دمشق

احتفالاً بدمشق عاصمة للثقافة العربية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٨

مشاهير من دمشق / عادل أبو شنب .- دمشق : الهيئة العامـــة السورية للكتاب ، ٢٠٠٨ . - ٢٨٠ ص ؛ ٢٤ سم.

احتفالاً بدمشق عاصمة للثقافة العربية.

١- ٩٢٠ ع ش ن ب م ٢- العنوان ٣- أبو شنب

مكتبة الأسد

مشاهير من دمشق

احتفالاً بدمشق عاصمة للثقافة العربية

الإهـــداء

إلى دمشق العجوز

إلى دمشق الطفلة

إلى الدماشقة الأجداد

إلى الدماشقة الأحفاد

مقدمة

لماذا هذا الكتاب؟

-١-

في احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية، أجمع جميع من قابلت من مشاهير، سواء أكانوا مشاهير من دمشق، أو مشاهير من باقي المدن السورية، على أنهم يفخرون بالانتماء إلى أقدم مدينة مأهولة في العالم، ويحبون أن يحيوا مع شعب سورية هذه المناسبة الجميلة التي تدل على مكانة دمشق كعاصمة ثقافية عربية، متجذرة بالتاريخ الموغل في القدم.

وإذا كان لي أن أسهم في هذه الاحتفالية، فليس ثمة أجود من نشر لقاءاتي مع مشاهير من دمشق، التي جاءت، على ضوء اهتماماتي التي نذرت لها عمري، مترعة بالأدب والفن والتراث وشؤون الحياة، وهذا معناه، إن في دمشق مشاهير آخرين، أرجو أن أنصرف إليهم في المستقبل.

-٢-

إن قراءة أفكار هؤلاء المشاهير، ومتابعة نتاجاتهم تلقيان أضواء ساطعة على المدى الذي بلغه مثقفو دمشق من سوية عالية، منسجمة مع التطور

التاريخي لهذه المدينة العجوز التي ما زالت تجدد شبابها كل زمن، بتراثها وأهلها ومثقفيها ومشاهيرها.

-٣-

ولما كنا قرأنا منذ العهود الغابرة تراجم لأعلام وشخصيات عرب في الأدب أو الفن أو العلم، كانوا نشأوا في دمشق وأخذوا منها وأعطوها، فقد سرنا على هدي ما قام به الأجداد والآباء في تكريم دمشق، بتقديم لمحات عن أعلام ومشاهير، نشأوا في دمشق في هذا الزمان.

المؤلف

الأعلام والشخصيات الدمشقية

١- تيسير السعدي

٢- كوليت خوري

٣- ياسين رفاعية

٤- د. صباح قباني

٥- د. عفيف بهنسي

٦- ناظم الجعفري

٧- د. نذير العظمة

٨- أحمد أبو سعدة

٩- د. غسان رفاعي

١٠- رفيق السبيعي

١١- د. مازن المبارك

١٢- د. رفيق الصبان

١٣- بسام كرد علي

١٤- د. إحسان النص

١٥- بشير زهدي

١٦- نذير نبعة

١٧- كمال فوزي الشرابي

١٨- سهيل عرفة

١٩- د. قتيبة الشهابي

٢٠- حسام تحسين بك

٢١- منى واصف

٢٢- نادية الغزي

٢٣- د. برهان العابد

٢٤- الأب الياس زحلاوي

٢٥- فؤاد حبش

٢٦- محمد محسن

يخضع ترتيب الأسماء لإجراءات فنية، وليس له علاقة بقيمة الأديب أو الفنان، ولا بمركزه

اللقـــاءات

تيسير السعدي

دمشقي فنان الشعب

لعل جوابه الحاسم عندما سألته: "من أين جاءك الاعتراف بموهبتك؟" كان أقسى جواب يقوله فنان عجوز، عاش حوالي تعسين سنة، يراكم موهبته، لبنة لبنة، ليصنع فناناً سورياً خالصاً، إنه الفنان تيسير السعدي، الذي حفظ فن "خيال الظل" الدمشقي من النسيان، وأنشأ التمثيلية الإذاعية المسموعة، واهتم بالتراث الشعبي، ووثقه بالقول وبالفعل، وأسهم في انتشار الأدب الشفاهي الشعبي.

يسكن الفنان مع زوجه المريضة "صبا المحمودي" التي عرفها الناس في البلاد العربية باسم "صبرية" في قبو دمشقي[1]، تنزل حوالي عشر درجات لتجد نفسك في متحف حافل باللوحات والصور والأيقونات وبكل ما يمت للفن بصلة، ولتجد "صابر وصبرية" في انتظارك ببسمة وترحيب، صابر يكاد ألا يرى لضعف في نظره، وصبرية مريضة تلزم مكانها لا تبرحه، ينتابك إحساس بالاكتئاب للحظات، لكن إرادة الزوجين القوية، وأملهما، وثقة كل منهما بنفسه تبدد اكتئابك، فيرتد إليك إحساسك بالإنسان الذي يصنع المعجزات، حتى ولو كان في التسعين.

سوري من البلد..

أمسك القلم لأكتب، أعدل وألجأ إلى آلة تسجيل صغيرة، لأنني آنست في "صابر" تدفقاً في الكلام، لا يستطيع القلم مجاراته.

أسأل:

---

(١) توفيت عام ٢٠٠٧ م .

- متى ولدت، مدّ الله في عمرك؟

يبتسم، هو يجيب:

- عام ١٩١٧م، لكأنني حملت السلام إلى البلاد، بعد الحرب العالمية الأولى، وانتهاء حكم تركي دام أربعمائة سنة.

قلت معقباً في شبه ابتسامة:

- ثمة من يقول، بسبب من وسامتك، حتى في سن الثامنة والثمانين، أنك تركي الجذور؟

- يقال إن جداً من أجدادي جاء من استنبول، لكن أين ولدت أنا؟ في دمشق.. إذاً أنا سوري، ومن هذا البلد خدمت وسأخدم أبداً.

الكركوزاتية والحكواتية..

قلت:

- حدثني عن بداياتك الفنية؟

قال:

- أساس كل فن عندي الكركوزاتي والحكواتي. منذ نعومة أظفاري رأيت فن آل حبيب الذين كانت لهم خيمة كركوزاتية. كانوا أساتذة الحكي في دمشق، فتتلمذت على أيدي الأخوة الثلاث، أبي عادل وأبي خالد وأبي صياح. كنت أرقبهم وأنا في الرابعة من عمري، وألتقط من شفاههم الفن الذي حفظته عن ظهر قلب، ولولاي لضاع واندثر.

سألت:

- والحكواتية؟

أجاب:

- هؤلاء هم سحرة فن القول. أنا أتحدث عن الحكواتية المتميزين الذين لم يبق منهم أحد. كانوا يمارسون ما يسمى بـ "القراءة المسرحية "هل تعرف "لورنس

أوليفية" عندما كان يقرأ فصلاً من "هاملت" على جمهور دفع ليصغي إلى قراءته؟ الحكواتية كانوا مثله، كانوا يسحرون الناس بقراءاتهم الممسرحة، ويجذبونهم، فيبقون أسرى هذه القراءات، هؤلاء تتلمذت على أيديهم أيضاً.

معين شعبي

كان واضحاً أن الفنان الكبير تيسير السعدي عبّ من معين شعبي خالص، فهل كانت أدبياته من هذا المعين وحده؟

- كان قرب بيتنا الأول في "السروجية" تياترو اسمه "تياترو القوتلي" - وأستغرب أن أحداً من المؤرخين لم يأت على ذكره - وكانت أصوات المطربين تصل إلى أذني، وأنا في البيت، ولقد سمعت الشيخ سلامة حجازي يغني فيه، وكنت في الرابعة من عمري، وما أزال أذكر شطراً من بيت في قصيدة كان يغنيها بصوته الجهوري -، وبمطة طويلة:

"أجولييت.. ما هذا السكوت؟"

- **هل كانت تمثل في ذاك التياترو مسرحية "روميو وجولييت"؟**

- تصور. كانوا يؤدون، وقتئذ، هذه الأنواع من المسرحيات، لذا أحببت الفن صغيراً، ورحت أبحث عنه.

وسامة..

كان تيسير السعدي وما يزال وسيماً، فسألته السؤال الذي لا بد منه، على ضوء تلك الفترة الحرجة في العلاقات بين الذكور:

- **ألم يخف عليك والداك من الانخراط في هذه البيئة؟**

ابتسم، وقد فهم السؤال تماماً أو قال:

- كان أبي صاحب فرن، وكان يخصني بـ "بادي كارد" لحمايتي، لكنني كنت صغيراً، من ذا يحاسب الصغير على مشاعره تجاه أمر أحبه؟ أحببت الفن، لكنني لم أكن قد مارسته بعد، لصغر سني.

واستدرك الفنان الكبير وقال:

- أجل، كنت وسيماً، أبيض أشقر، وكانت الحوامل يعطينني سكرة، ما إن أمسكها بيدي، حتى يلحسنها، اعتقاداً منهن أن التي تتوحم، ستلد ولداً يشبهني، إن لحسّنَ سكرتي!

كانت هذه معلومات جديدة عن اعتقادات شعبية دمشقية، كان عرفها السعدي وعاشها في أعماله المسرحية والإذاعية.

واستفاد الفنان الكبير من فن السينما، وشاهد أفلام تلك الفترة، عندما بلغ سن المدرسة الابتدائية، بعد الكتاب. كانت مدرسته "الأمينية"، وكم من مرة هرب منها ودخل "سينما النصر" التي كانت في "سوق الخيل" ليرى أفلام شارلي شابلن الصامتة.

- كانت السينما مصدراً آخر من مصادر ثقافتي الفنية، دخلت سينما النصر القريبة من "البحصة" - سكننا الجديد - وكان عازف "كلارينيت" ينفخ قبل العرض، شاهدت أفلام شارلي شابلين الصامتة، تعلمت منه حبكة الكوميديا. كانت دور السينما القليلة تقدم للزبائن النراجيل أيضاً.

أول دور..

بعد أن انتهى تيسير السعدي من دراسته الابتدائية، ذهب إلى "اللاييك"، وهناك قدمت "الكوميدي فرانسيز" عام ١٩٢٩ أو ١٩٣٠ مسرحية "أوديب" لسوفوكل. كان بطل المسرحية "جان هيرفيه" الذي أدى بصوته الجهوري دوراً رائعاً، كما ذكر.

- لم أنس اسمه، خاصة وأنه انتقاني لأمثل دور طفل، فكان هذا أول عمل لي على المسرح، وباللغة الفرنسية، أخذت وقتئذ بالتحضير الممتاز للمسرحية، كانت عيناي مفتوحتين لأتعلم كل شيء عن المسرح والتمثيل، وأنا في سن المراهقة، ثم جاءت الفرصة لأنغمس في فن المسرح.

شبه احتراف..

كانت العادة أن يعمل التلاميذ في فرصة الصيف في أعمال تجارية، والسعدي عندما عمل في أحد أصياف مطلع الثلاثينات بائع أقمشة في "الحريقة" التقى بالفنان عبد السلام أبو الشامات الذي يعمل في الميدان نفسه، لكنه كان ينشغل في أوقات الفراغ يحفظ أدواراً يؤديها على المسرح، استفسر السعدي منه وانضم إليه، وكان الثنائي المؤلف منه ومن أنور المرابط، فاتحة لاشتغال السعدي والمرابط في محاورات ثنائية، كانا يؤديانها في حفلات الكتاب والتلبيسة:

- **كيف هذه؟**

- كنا نطلي وجوهنا بالشحار، ونمثل في هذه الحفلات، مجاناً أو لقاء قروش قليلة.

- **هل كانت الموضة صبغ الوجوه بالأسود؟**

- نعم كان الريحاني يصبغ وجهه، ويقدم شخصية "كشكش بيه" وعلي الكسار يفعل الشيء نفسه، وكان كل هواة المسرح يفعلون فعلهما، وانطلاقاً من هذا التمثيل البدائي، ذهبنا إلى النبطية، وقدمنا بعض الفصول فيها، وعندما عدنا كانت الفكرة قد كبرت في رؤوسنا.

- **أية فكرة؟**

- فكرة أن نؤلف فرقة مسرحية باسم "الفرقة السورية"..

- **هل ألفتموها؟**

- نعم. أنا وعبد السلام أبو الشامات وأنور البابا وزهير الشوا وياسين دركزللي وعبد الهادي الدركزللي الذي كان محامياً - وكان مستعداً ليكتب الفصول المسرحية - وآخرون. اتخذنا مقراً في "البحصة" ومثلنا عدداً من المسرحيات، بينها مسرحية "يد الله" ليوسف وهبي، على عدد من المسارح: مسرح العباسية، ومسرح "الهبرا" في باب توما، ومسرح "سينما أمبير".

وسألته:

- **ألم تكن وقتئذٍ فرق مسرحية أخرى تعمل؟**

أجاب:

- كان هناك نادي الفنون الجميلة. وكان فيه المسرحي الكبير عبد الوهاب أبو السعود. الذي كتبت أنت عنه كتاباً، والفنان وصفي المالح وتوفيق العطري، وقد ضمنا هذا النادي إليه.

مجنون ليلى

هنا سألته عن رفيق عمره "حكمت محسن" الذي عرفناه في شخصية "أبو رشدو" كاتباً وممثلاً بصوت متميز، يذكر بصوت نجيب الريحاني، فقال:

- كان حكمت يتردد علينا. كان هو الآخر يصبغ وجهه، ويؤدي مونولوجات على مسارح وتياترويات دمشق، لكن تعاوننا جاء بعد ذلك.
- **ما هو العمل الكبير الذي قدمتموه ولفت الأنظار إليكم في تلك الفترة؟**
- "مجنون ليل "
- **وأنت ماذا مثلت في هذه المسرحية؟**
- مثلت دور المجنون، وكنت شاهدت الدور يؤديه أحمد علام. وهو ممثل متميز من مصر، فأردت أن أساويه إن لم أتفوق عليه. رحت أحفظ الدور، وسكتّ أياماً. لم أعد أتكلم حتى أديت الدور على سطح النادي العربي الذي في بناية "الروكسي"، ظنني الأصحاب أنني جننت، والواقع أنني كنت مجنوناً بالمجنون، الدور الذي سأؤديه، وقد أديته بإتقان، فاق المتوقع، فجمع لي الأصدقاء ٢٥٠٠ل.س لإرسالي إلى مصر لأدرس التمثيل دراسة أكاديمية.

واستدرك قائلاً:

- نسيت أن أقول لك إن الشيخ تاج الدين الحسني الذي كان رئيساً للجمهورية حضر المسرحية، وصفق لي.

العودة بعد التحصيل

سافر تيسير السعدي إلى القاهرة، ومعه الثروة (١٥٠٠ل.س)، وتعرف هناك على الأوساط الشامية التي كانت تعمل في الفن.

- تبنتني السيدة آسيا داغر، المنتجة اللبنانية المعروفة، وأعطتني بعض الأدوار. كنت ذا لهجة شامية، لم أبدلها باللهجة المصرية، على عادة الوافدين إلى مصر، فصار المنتجون يعطونني أدواراً بهذه اللهجة، وأخيراً سنحت لي الفرصة لأقوم بدور هام في فيلم "بائعة الخبز" مع فاتن حمامة التي علمتها اللهجة الشامية..
- **ألم تكن تدرس في معهد التمثيل؟**
- نعم. فبالإضافة إلى الدراسة، كنت أعمل في السينما، وهنا.. تعرفت على محمد عبد القدوس، الفنان المصري الرائع، وابنه إحسان الصحافي.. وكانت هذه المعرفة مفيدة لي.
- **كيف كانت مفيدة؟**
- كنت متردداً بين البقاء في مصر للعمل وبين العودة إلى دمشق، فنصحني محمد عبد القدوس بالعودة. قال إن دمشق بحاجة لك ولأمثالك هناك، لتطوروا فنكم المحلي، فعملت بنصيحته وعدت.
- **متى كانت العودة إلى الوطن؟**
- عام ١٩٤٨م

الاحتراف..

بعودة الفنان الكبير تيسير السعدي إلى دمشق بدأت رحلة العمل الحقيقية في مسيرة حياته. كان هواة التمثيل في سورية يأتون إليه في نادي الفنون الجميلة ليعلمهم الفن، ويذكر أنه كان بينهم الفنان الكبير نهاد قلعي.

وقتئذ اعتمد السعدي اللهجة المحلية (الشامية) رداً على شيوع وانتشار اللهجة المصريّة في جميع أنواع الفن الكلامي.

- اسمع. كان هذا سبباً جوهرياً في انتشار اللهجة المحلية الآن جنباً إلى جنب مع اللهجة المصرية، ولو لم أتخذ هذا القرار منذ ذلك الوقت لما كان للفن السوري الرائج هذه الأيام، بالمسلسلات السورية المنطوقة بالشامية العامية، أي حضور، ولطغت لهجة عربية وحيدة على الفن العربي !!

- **ماذا فعلت لانتشار اللهجة المحلية؟**

- اتجهنا إلى تقديم تمثيلياتنا بهذه اللهجة، لأنها "اللغة" المحكية، واستخدمنا الإذاعة التي كانت الوسيلة العظمى للانتشار (لم يكن التلفزيون قد ظهر بعد) في نشر هذه اللهجة. كنا نقدم تمثيليات أبطالها أم كامل وأبو فهمي. وأحياناً أنا. مع إخراجي لها، وكان عبد الهادي الدركزللي يكتب عن مشاكل البلد. كانت كتاباته محدودة، مجرد حوارات بين أناس سهارى يتكلمون، حتى جاء حكمت محسن بمسرحية "طيرت لي عقلي" لجمالها، وللمفردات الشعبية المتخومة بها. وقتئذ اكتشفت شريكي في الفن. كان حكمت شعبياً بسيطاً، يشبه أمي، يكتب بريشةٍ عريضة مما يستعملها النجارون، لكنه كان نابغة في الغوص إلى أعماق الحياة الشعبية، والخروج بقصص غير مألوفة، لكنها من صميم الواقع.

- **مثل ماذا؟**

ويضحك الفنان تيسير السعدي، وهو يستعيد شيئاً من غير المتوقع الذي كان في كتابة حكمت محسن:

- عندما أنشئ معرض دمشق الدولي، عام ١٩٥٤، وكنت قد اقترنت بزوجي صبا، كلفنا بالإعلان عنه، فكتب حكمت محسن تمثيلية بدأها بكلام لصبرية: "شو هاد معرض دمشق الدولي؟" فيوضح لها صابر (تيسير السعدي) معنى كلمة معرض، فتسأله صبرية: "معرض دمشق الدولي.. بيقرب شي أبو الأسود الدولي؟" كان هذا هو أسلوب حكمت محسن، يشد الجمهور منذ البداية فيملكه.

قلت لتيسير:

- **أعطنا أمثلة أخرى على أسلوب حكمت محسن في شد الجمهور، قال:**

- الأمثلة كثيرة. كل تمثيلياتنا تعتمد هذا الأسلوب الناجح. مثلاً: صابر وصبرية يزوران المعرض. صبرية تدخل غرفة، ثم تخرج منها لتسأل صابراً: "هل رأيت المرايا المضحكة في الغرفة؟" يقول "كلا" ويدخل ليجدها مرايا عادية، وإن المضحك ليس المرايا ولكن وجه صبرية. إن المواقف المكتوبة ليست متوقعة دائماً.. وهذا هو أسلوب السهل الممتنع.

- **أعرف أنكم عملتم في إذاعة الشرق الأدنى، قبل أن تعملوا في الإذاعة السورية؟**

- نعم. كانت تلك الإذاعة تريد انتشار لهجة أخرى غير اللهجة المصرية، فاستدعت حكمت محسن إلى قبرص، ليقدم لها فناً بالمحكية الشامية، وعندما ذهبنا، سأله المسؤول في الإذاعة: "ماذا أحضرت معك؟" فقال له: "أحضرت هذا. وهذا" وأشار إلي، ثم أخرج من جيبه قلم النجارين الذي كان يكتب به.. أعدّ، وقتئذٍ، حلقات من برنامج تمثيلي باسم "صندوق العجايب" أذيع في شهر رمضان وشدّ المستمعين إليه حتى في مصر، وكانت تمثيلياته التي أخرجها أنا تحدث منع تجول، عندما تذاع.

كانت الإذاعة السورية تشهد ولادة مؤلف خارق ومخرج خارق لهذا اجتمع مديرها أحمد عسه، ود. صباح قباني، والصحافي سعيد الجزائري وقرروا إنشاء فرقة تمثيلية خاصة بالإذاعة، مؤلفة من الفنانين حكمت محسن وتيسير السعدي وعبد السلام أبو الشامات وممتاز الركابي، وأجازت الإذاعة تقديم التمثيلية باللهجة المحكية، فأعطت هذه الفرقة أكثر من (١٠٠٠) ألف تمثيلية بالعامية، استقطبت ملايين المستمعين، حتى صار هؤلاء نجوماً.

ويقول الفنان تيسير السعدي معلقاً:

- كانت اللهجة السورية قد انتشرت تماماً، وأؤكد لك أن الشخصيات التي قدمناها لم يطرأ جديد عليها منذ ذلك الوقت: القبضاي والمرأة العجوز، وابن الحارة، وغيرهم، وهي الشخصيات التي اخترعناها واقتبسناها من

واقع الحياة في مجتمعنا، أجل.. نحن مصورون صورنا الحياة بما أسميه "سينما الأذن" قدمنا شرائح متحركة، بقالب مشوق يشدّ ويمسك المستمع. وهيهات.. هيهات أن يجود الزمان بمجموعة كمجموعتنا، تقدس الفن، وتعرف كيف توظفه مضموناً وشكلاً.

زارع البسمة..

قلت للفنان تيسير السعدي:

- ألم تشتغل في التلفزيون؟

قال:

- مثلت حوالي ٣٠ مسلسلاً، وكتب عني ذات يوم أنني وجه جديد في عمر ستين سنة، لكن أعمالي، بعد التقاعد، كانت خدمة للوطن.. اشتريت أنا والدكتور صباح قباني من علي المصور وهو من أواخر الكركوزاتية "الصرة" وسجلت خمسة فصول من كراكوز بأدائي وصوتي، لتوثيق هذا الفن، وقدمت عشر تمثيليات من تأليف حكمت محسن وإخراجي مع خيالات الكراكوز إلى معهد العالم العربي في فرنسا. وسجلت بعض حكايات الحكواتية، للهدف نفسه، ولأسجل للأجيال القادمة أنماط الحكي في دمشق خاصة، وبلاد الشام بعامة في الفترة التي عشت فيها. لكن جميع رصيدي في إذاعة دمشق مسح أو نسق.. للأسف.

كان الفنان الكبير تيسير السعدي مشرق الوجه بسعادة لا توصف، ولأنه فضح وعرّى وزرع البسمة في عيون الناس وأفئدتهم، ليس وحده بل مع جماعة من الفنانين المؤمنين بالفن، زوجه والمؤلف الشعبي الساخر حكمت محسن، الذي كانت الإذاعة تقدمه بعبارة "القصاص الشعبي حكمت محسن" وفهد كعيكاتي الشهير بـ "أبو فهمي" وعبد السلام أبو الشامات، وغيرهم، وامتد خلال أكثر من ثلاثين سنة، فناناً متميزاً لا يمكن أن تنسى أفعاله.

لا يمكن نسيانكم..

كان لا بد من سؤاله في آخر هذا اللقاء.

- من أين جاءك الاعتراف بموهبتك؟

قال وهو يزفر زفرة كبيرة:

- الفرنسيون اعترفوا بموهبتي، وقلدوني أوسمة، ومنحوني ما لم يمنحه غيرهم، على أنني أقر وأعترف بأن الناس في بلدي أعطوني اعترافاً ثميناً بموهبتي، وبدوري الذي قمت به طوال تسعين سنة، هي عمري، وهذا هو إكليل الغار الذي يتوج رأسي، تراهم ينسونني؟

- مدّ الله في عمرك، حتى تعطي المزيد. أنت وأمثالك لا يمكن أن ينسوا، أنتم فنانو الشعب .

لقطات لتيسير السعدي من أقواله

- كنا نسمي آلة الكلارينيت التي يستهل بها العرض السينمائي باسم "كرنيطة" .
- شاهدت فيلم "الملاك الأزرق" عام ١٩٢٥ وشاهدته منذ أيام من أحد قنوات التلفزيون، وشدني في المرتين، وهكذا الفن الأصيل.
- كنت أتقاضى جنيهين عن كل ظهور لي في الأفلام المصرية ككومبارس، وكان الكومبارس يتقاضى جنيهاً واحداً، لأن لهجتي الشامية لا يتقنها غيري.
- رأيت فريد صبري عازفاً على الكمان ومحمد عبد الكريم عازفاً على البزق. ونصير شورى (الرسام) عازف أوكورديون في إذاعة الشرق الأدنى في يافا.
- عندما عرضوا "الشوكولا" على حكمت محسن في أول ركوب له في الطائرة الذاهبة إلى قبرص، اعتذر لأنه ظنها بالفلوس وليس معه.
- ساعدت الفرنسيين في ترجمة "الملك الضاهر" كسيرة بالعامية إلى اللغة الفرنسية لاهتمامهم بتراثنا.
- تعاونت مع وليد مارديني، وكنت أسهر الليل لأجعل ما كتب تمثيلية تسمع، لكنه كان موهوباً.

كوليت خوري

ديكتاتورية الذاكرة

لم أشأ أن أسألها عن عمرها، لأنه ما من امرأة في العالم تتجاوز سن الثلاثين، حتى لو صارت في التسعين، فما بالك والمرأة المقصودة هي الأديبة الكبيرة، ابنة دمشق، السيدة كوليت سهيل الخوري، التي أظن أنها توقفت عند العشرين "فان تان" - وهو عنوان كتابها الشعري الأول الذي صدر يوم كان عمرها عشرين سنة دمشقية على الأرجح، وباللغة الفرنسية التي تتقنها كالعربية-؟

شعر.. بالفرنسية

سألتها بعد التحيات والقبل:

- لماذا لم تستمري في الكتابة بالفرنسية بعد كتابك " عشرون عاماً "؟

قالت:

- لا أحب إلا أن أكتب لقرائي العرب.. أنا موجودة في مناخ عربي، ومتجذرة فيه، وعلى هذا لست بحاجة لأكتب بالفرنسية.. الآن. لا تنس أنني في دمشق.

قلت كمن يستفز ولكن بلطف:

- أعرف أن لك "رعشة" باللغة الفرنسية أيضاً؟

ردت بسرعة دون أن تخضع للاستفزاز اللطيف:

- مجموعة شعرية أخرى كنت نشرتها في فرنسا، ويؤسفني أنني لا أحتفظ بها.

كتاب عنها..

لكوليت أصدقاء تتمسك بهم، وإنْ غابوا طويلاً، أو غابت عنهم كثيراً. تمتد صحبتنا إلى عام ١٩٦٠ من القرن الماضي. وعندما هتفت إليها، قالت: "أين أنت؟ أين زوجتك البرجوازية مثلي؟" ضحكنا وتواعدنا على اللقاء في بيتها.

لم تكن الاثنتان برجوازيتين، وإنْ كان مظهرهما وسلوكهما يدل على ذلك.

بدت كوليت في بيتها، وبأناقتها ونظافتها، بدينة بعض الشيء، لكنها ما زالت على ملاحتها، وحلاوة لسانها، وإقبالها على الحياة.

ما إن جلسنا حتى جاء زوجها "انطون زلحف" لتحيتنا بابتسامة عذبة.

قالت، وهي ترحب بنا:

- عندما عرف أنكما قادمان قرر أن يبقى ليراكما ويرحب هو الآخر.

ولم تكمل. رنّ جرس الهاتف. قامت إليه وتحدثت وضحكت. فهمنا من الحديث الدائر أن معجبة هتفت إليها ليطول الحديث ويتشعب.

- **من هي هذه المعجبة؟**

- هذه صحفية اسمها "هناء الطيبي" كتبت عني كتاباً بعنوان "كوليت خوري أديبة وإنسانة" وما دام الكتاب عني.. فسيباع حتماً..!

وضحكت بل قهقهت، فسألتها:

- **لماذا؟ أهو ملزم ما دام عنك أن يباع؟**

قالت وهي تضحك، استمراراً لضحكتها الأولى:

- فضول الناس حول أديبة عربية سورية دمشقية، لها قصص مع كثيرين، يدفعهم إلى شراء الكتاب.. هذا الكتاب سيباع، وقد قرأته مخطوطة، لم أقل أنه سيباع عن عبث.

قلت لها:

- **لا أريد أن أكتب عن كتب تكتب عنك أريد أن أسمع منك عن كتب جديدة كتبتها- لهذا الجيل، جيل أواخر القرن العشرين، وأوائل القرن الحادي والعشرين؟**

قالت:

- عندي كتاب "في وداع القرن العشرين" إنه جديدي. ألم أهدك نسخة منه؟ ثمة كتاب في المطبعة الآن. إنه الكتاب الثالث من "أوراق فارس الخوري".

كان جدها فارس الخوري واحداً من زعماء سورية. شغل مناصب رئاسة الوزارة ورئاسة المجلس النيابي، وممثل سورية في مجلس الأمن، وقد أصدرت له كوليت أوراقه في أكثر من كتاب. وها هي تصدر غير الكتاب الثالث كتاباً بعنوان "فارس الخوري بقلم معاصريه" فقد عكفت على جمع ما كتبه معاصروه عنه، في جهد كبير لتصدره في كتاب هام، يوضح مكانة جدها بين العرب، وبين معاصريه.

عاشقة الموسيقى..

دار النقاش حول جملة "فارس الخوري بقلم معاصريه". هي أصرت على أن كلمة " بقلم " تفي بالغرض، وأنا تمسكت برأيي، فكلمة "بأقلام" هي المناسبة. لم يستطع أحدنا إقناع الآخر.

هذا دليل على عناد كوليت وتشبثها برأيها، اعتقاداً منها أنه الصواب، لكنه صورة عن حوار الأدباء الذي كان، والملغى منذ زمن.

تجاوزنا هذه النقطة في الحال، فنحن صديقان مزمنان.

قالت:

- اتصلت بالسيد وزير الثقافة الدكتور محمود السيد لهذا الغرض(١).

وكمن تذكرت، قالت:

- عندي كتاب جديد آخر عنوانه "في الزوايا أفكار وأخبار وحكايا".

علقت:

- **العنوان على القافية، لكأنه شعر.**

---

(١) وزير الثقافة السوري عندما جرى هذا الحوار .

قالت وهي تبتسم:

- لا تضحك. ما زلت أؤمن بالشعر الموزون والمقفى. أنا أحب الموسيقى في الشعر. لم أهضم الشعر المخالف أبداً. لأنني عاشقة للموسيقى، منذ نعومة أظفاري.

تلخيص.. مدينة

أعادت دار طلاس المعنية بنشر الكتب في سورية، والتي أصدرت حتى الآن مئات العناوين، نشر كتب كوليت لأنها مطبوعة وتباع، وفي جملة الكتب التي أعيد نشرها كتابها الأول بالعربية "أيام معه" الذي صدرت طبعته الأولى، قبل أقل من نصف قرن بقليل، وهو الكتاب الذي كرسها كأديبة وكروائية عربية، واحتفلت بها الساحة الأدبية العربية، في مصر بخاصة، على أساسه. فلقد كانت الوحدة بين قطري مصر وسورية قائمة. واهتم مثقفو الجمهورية المتحدة بكوليت كأديبة روائية تنتمي إلى هذه الجمهورية الوليدة.

مضت كوليت خوري - التي انتسبت بعض الوقت لأبيها باسم كوليت سهيل - في إصدار الكتب، فنشرت ما كتبته في مجلة "المستقبل" الأسبوعية التي كانت تصدر في فرنسا، حوالي ألف مقال، كانت نشرت جميعها فيها، انتقت منها سبعمائة ونشرتها في كتاب "ذكريات المستقبل" (ثلاثة كتب) غير أنها تحلم بنشر صفحات من ذكرياتها أيضاً. إنها ديكتاتورية الذاكرة عن كوليت.

- أحلم بنشر كتاب "صفحات من ذاكرتي".

- **ما مضمون هذا الكتاب الذي تتذكرين فيه أيضاً؟**

- ذكرياتي مع سعيد عقل، مع رشيد سليم الخوري، مع بدوي الجبل، مع نزار قباني، أتمنى أن أتذكر وأكتب عن هؤلاء المشاهير العظام وغيرهم..

- **بخاصة نزار؟!**

وحدقت إلي، ربما لأنني خصصت نزار قباني بالسؤال، وقالت:

- أجل بخاصة نزار قباني، الذي توفاه الله.. فكأنه سلب منا جميعاً.

وزفرت وقالت:

- هل تعلم يا عادل أن لدي ثلاثين رسالة من نزار قباني أنوي أن أنشرها وحدها في كتاب. يا لشد ما كان عاطفياً ورقيقاً في هذه الرسائل، وقد قرأها زوجي أنطون فنصحني بنشرها. إنه يبارك نشرها في كتاب مستقل وسيموله.

- **ماذا قال لك نزار في هذه الرسائل العاطفية؟**

- قال ما ملخصه: أعشقك يا كوليت، لأن مدينة دمشق مجسدة فيك. فكأنني إذ أعشقك أعشق دمشق كلها.

قلت معلقاً:

- معه حق. أنت تلخصين مدينة بكاملها.

وانتقلت إلى الزوج. انطون زلحف:

- **أحقاً تريد تمويل هذا الكتاب؟**

قال:

- لم لا؟ لقد قرأت الرسائل ووجدتها جميلة بعاطفتها وصدقها. إن نثر نزار لا يقل عن شعره، ولا بد أن القراء سيرحبون بهذه الرسائل التي تري جانباً من نزار العاطفي على حقيقته[1].

كان انطون زلحف الدمشقي ابن حارة كوليت، وأحبها منذ الصغر، لكنه صبر كثيراً حتى ظفر بكوليت، بعد زواجها من أمير اسباني نتج عنه مولودة سميت "مرسيدس"، لكن الأديبة سمتها "نارة". وكبرت نارة وأصبحت طبيبة، وتزوجت وأنجبت، وهكذا صار لكوليت حفيد وحفيدتان: مَساة وأسماء (اسم جدة كوليت) وأمير الذي يسير على خطى والدته، فهو طالب في كلية الطب الآن.

---

(١) لم تثمر المفاوضات التي جرت بين كوليت ودار للنشر، وبقيت الرسائل دون نشر .

لماذا تزوجته؟!

تقول كوليت وهي تبتسم:

- بعد أن تزوجنا - أنا وطوني - زارنا نزار، وكم كان فرحاً لأنني تزوجت رجلاً يشبهه، ببياضه وزرقة عينيه. وعندما قرأ زوجي رسائل نزار.. قرر نشرها، بتمويله، وقررت أن أكتب مقدمة لهذه الرسائل، أتساءل فيها: ترى هل تزوجت انطون لأنني كنت أحب نزار أم لأنه كان يشبهه؟

سألت:

- **هل وجدت نزاراً يحب؟**

أجابت:

- كان يحب. حتى المرحوم "محي الدين صبحي" (الذي كان أول من كتب عن نزار كتابه الأول: " نزار قباني شاعراً وإنساناً") غار عندما توثقت صلتي بنزار، وأبدى امتعاضه من هذه العلاقة، فحسم نزار الأمر بأن قال له: "يا محي الدين.. أنت لم تعاشر امرأة تلخص مدينة بكاملها" الرجال أحبوه أيضاً، وغاروا من النساء اللواتي أحببنه !

في عام ١٩٧٤ أسسنا جريدة "تشرين" بتوجيه من الرئيس المرحوم حافظ الأسد، وأذكر أن لقاءً جمعنا في مبنى الجريدة بالحلبوني، أنا ونزار وكوليت ومحي الدين، وكتبت عن هذا اللقاء، بل وصورته، وعندما توفي نزار نشرت الصورة، لكن كوليت نفت هذا اللقاء. لم تعترف بأنه جرى. هل ضعفت ذاكرتها، وهي التي تزمع على أن تصب هذه الذاكرة على الورق كتباً ومقالات؟

قلت لزوجتي أمام كوليت وانطون:

- ابحثي عن هذه الصورة لأريها لكوليت، كي أثبت لها أن ذاكرتها ضعفت.

وضحكنا جميعاً. من الذي يحتفظ بذاكرته صافية في هذه الأيام المملوءة بالمتاعب والمهموم.. فيما يخص الوطن؟

قلت:

- **اشتغلت بالسياسة، وصرت عضواً في مجلس الشعب؟ هل هذه من الهموم والمتاعب؟!**

قالت:

- أنا متحمسة للوطن، متحمسة جداً. أحمل الوطن في ذراتي. لا يهمني من كان الحاكم. سورية وطن، وطني. ولقد مررنا بمرحلة كانت سورية خلالها محاصرة مثلما هي محاصرة اليوم (أحداث لبنان والمطالبة بانسحاب الجيش السوري) فكان واجباً علي أن أقف مع الوطن ضد أعدائه. لهذا وجدت الطريق إلى مجلس الشعب. لم أكن مضطرة للانتماء إلى الحزب لأكون محبة للوطن. كتبت وقتئذٍ مقالاً عن الوحدة الوطنية، وضرورتها.

وأردفت:

- هذا عدا عن أنني كنت أحب، شخصياً، الرئيس المرحوم حافظ الأسد. كنت معجبة به، وبشخصيته النادرة التي قل نظيرها.

فلسفة في الحب

هنا خطر لي سؤال، كنت أعرف أن كوليت قد أحبت، الوطن والبلد وبعض الشخصيات، والأصدقاء، والرجال والنساء، فهل مر هذا الحب عبر حبها لنفسها؟ فسألت:

- **يخيل إلي أنك في النهاية تحبين نفسك؟**

قالت بحسم وحزم:

- لماذا أحب غيري ولا أحب نفسي؟ لا يمكن أن أحب شخصاً لا يحبني. وعلى هذا، فأنا أحب نفسي، لأن هذا الشخص أحبني. أنا لا أؤمن بالحب من طرف واحد، لكن هذا لا ينطبق على حبي لوطني ولأسرتي، حب الأولاد والأحفاد، حب هؤلاء ناجز ومطلق، سواءً أكانوا يحبونني أم لا.

كار كوليت..

كوليت وزوجها مضيافان. القهوة والكاتو وبعض حلوى الحليب والشوكولا. وبعد أن التهمنا ما قدماه لنا، وكانت تجيب على الهاتف وتعطي أوامر لمساعدتها بأن تأتي ببعض الكتب، وتزجر كلبها الذي كان يجري بين أقدامنا مشمشماً بمودة، عدت إلى المسألة الثقافية التي يهمني أن أعرف شؤونها عند كوليت.

وسألتها:

- **كثيرة هي الكتب التي أصدرت في رحلتك الثقافية التي تمتد نصف قرن، فأي الكتب قريب إلى قلبك؟**

أجابت:

- كلها كتبي، لكنني أحب هذه الأسطورة التي أعيدت طباعتها مجدداً: "كيان".

وقدمت لي نسخة من الأسطورة "كيان" في طبعتها الرابعة التي صدرت قبل حوالي سنة، وكانت طبعتها الأولى قد صدرت عام ١٩٦٨ وقدمتها إلى "صغيرتي الغالية نارة، وإلى جيلها، أطفالنا العرب في كل مكان، أهدي هذا الكتاب".

هذه القصة شبه الأسطورية.. كانت ستصير مغناة لفيروز، المطربة اللبنانية، فقد أعلن قبل سنوات عن قرب تقديم المغناة بصوت فيروز، وعرفت كوليت فأوقفت المحاولة، لماذا؟ مع أنها كانت سبيلها للانتشار والربح.

قدمت إلي كوليت مجموعة قصصية من تسع قصص قصيرة بعنوان "الكلمة الأنثى" نشرت عام ١٩٧٠ وأعيد نشرها بعد أكثر من ثلاثين سنة، وقدمتها "إلى الذي زرع في نفسي حب الكلمة، إلى الحبيب الذي رجل، جدي فارس الخوري" وقدمت صفحات من ذاكرتها بعنوان "طويلة قصصي القصيرة" وأهدتها "إلى رفيق العمر أنطون مع حبي" وهذا يدل على استمراريتها كأديبة، تنتج وتبدع. لقد صارت الكتابة عند كوليت كاراً، وهي حريصة عليه.

ملاحظة خطرت لي وأنا أتصفح الكتب العديدة التي قدمتها لي، ومنها مجموعتها القصصية "امرأة" التي طبعت للمرة الثانية عام "٢٠٠٥" (الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠)، وهي آخر ما طبعت. إن كتابتها الروائية انحسرت أو قلت، فسألتها عن ذلك.

قالت:

- ليس هذا مخططاً بالضرورة. كل فكرة تجد وعاءها عندي، رواية أو قصة أو خواطر أو ذكريات، ومع ذلك فإن إنتاج الروايات عندي يشكل تقريباً ربع نتاجي الأدبي.

إصدارات..

أصدرت كوليت من الروايات أربعاً: "أيام معه" عام ١٩٥٩ وأعادت طبعها ست مرات، كان آخرها عام ١٩٩٧، و "ليلة واحدة" عام ١٩٦٠، وأعادت طبعها ثلاثاً في عامي ١٩٧٠ و ١٩٩٣، ورواية "ومرّ صيف" عام ١٩٧٥ وأعيد طبعها مرة واحدة عام ١٩٨٥ ثم رواية "أيام مع الأيام" التي نشرت مسلسلة في إحدى المجلات عامي ١٩٧٨ - ١٩٧٩ ثم نشرت كرواية عام ١٩٨٠، وأعيد طبعها بعد ثلاث سنوات. هذا هو رصيدها من كتابة الروايات، لكنها كتبت القصة القصيرة بغزارة، بداية ب- "أنا والمدى" عام ١٩٦٢ وأعيد طبعها بعد سنتين، ومجموعة "الكلمة الأنثى" ثم مجموعة "الأيام المضيئة" عام ١٩٨٤ واللافت أنها نشرت قصصاً كثيرة في كتب مستقلة، مما يعلي نشوء نوع أدبي خاص بكوليت وهو القصة التي ليست قصيرة والتي ليست رواية، وفي هذا النوع لها "كيان" و"دمشق بيتي الكبير" و"المرحلة المرة" و"قصتان" و"دعوة إلى القنيطرة" وهي نفسها أشارت إلى قصصها متوسطة الطول في كتابها "طويلة قصصي القصيرة".

سألت:

- يلفت النظر في نتاجك مسرحية واحدة كتبتها باللغة المحكية، أي باللهجة العامية الدمشقية، فما سر هذا الخروج عن المألوف؟

قالت:

- تتحدث عن "أغلى جوهرة بالعالم" التي صدرت في صيف عام ١٩٧٥. نعم كتبتها بالعامية، لأنني وجدت لها وعاءً اللهجة العامية. ألم أقل لك إن كل نوع أدبي يجد وعاءه بنفسه؟

كتب أخرى..

كتبت كوليت كتباً أخرى، منها الغزلي بعنوان "معك على هامش رواياتي" ومنها ما سيصدر قريباً مثل "عبق المواعيد" وهو مقطوعات وجدانية، والأيام قادمة وحبالى، فإن كوليت ماضية في الكار الذي نذرت نفسها له. تشرع القلم وتعطي قراءها إبداعاتها في صمت وتؤدة. إنها مؤمنة بأن مسيرتها خلال نصف قرن قد جمعت لها قراء إنْ بالعربية، وإن بالفرنسية، وما بين عام ١٩٥٧ يوم ولد الشعر بالفرنسية "عشرون عاماً" مروراً بمجموعة "رعشة" الشعرية بالفرنسية أيضاً عام ١٩٦٠، ومن ١٩٥٩ يوم ولدت "أيام معه" وحتى "فارس الخوري بقلم معاصريه" الذي سيظهر عام ٢٠٠٥ تقف كوليت خوري بفخر أمام إنتاجها الغزير.

قصة حياة..

تعلمت كوليت في مدرسة "راهبات البزانسون" (اسمها اليوم "الرعاية الخاصة") وكانت قريبة من بيتها في باب توما، وحببت إليها اللغة العربية معلمتها السيدة "عفيفة زغيب" التي كانت رغم الانتداب الفرنسي على بلادنا لا تقبل بأي شكل من الأشكال أن تجهل فتاة صغيرة قواعد اللغة العربية، وكأن هذه اللغة شراب يجب أن نشربه وأن ننشأ عليه.

وتروي أنها كانت أول من دخل مقهى ذكورياً، هو مقهى "البرازيل" وهو مقهى متطاول ضيق دافئ، يشبه القطار وقد توقف عند نزلة فيكتوريا، فكانت لها الريادة في ذلك، منذ عام ١٩٦٠ كتبت "أيام معه" بعد أن عاشت قصة حب مع أمير اسباني أثمر بنتاً اسمها "نارة"، وهذه تزوجت وأنجبت، وما زالت تكتب وتهتم بالوطن، ومن أجله انتخبت عضواً في مجلس الشعب. أحبت وتألمت، وكان "انطون" يراقبها. وهو على حبه لها منذ كانا صغيرين في الحارة، أخيراً تزوجها، وعاشا بهناءة.

هذه هي منتخبات من قصة حياة كوليت سهيل. قصة أديبة سورية، دمشقية محبة، جريئة، مضيافة، تحب أصدقاءها ولا تتساهم وتكره من تكره، وتجاهره بالعداء، دونما خوف، وفوق ذلك تحب الوطن ورموزه.

مقطوعة رثاء

أخذت الكتب، ووعدتني بإرسال صورها للأستاذ علي القيم رئيس تحرير مجلة "المعرفة"، لأنها عضو في هيئة تحرير المجلة - بعد أن يفرغ المصور من توضيب الصور - ولم أصدق أنني وصلت إلى بيتي، لأطالعها، أو على الأقل أتفحصها. وفي كتابها "في وداع القرن العشرين" قرأت شعراً بالعربية، وهذا من قليلها فهي ناثرة بالعربية شاعرة بالفرنسية، لكن الموضوع هو الذي أملى عليها أن تصوغه مقطوعة، وطبعاً من الشعر الطلق الذي لا يهتم بقافية أو وزن.. فالحدث يتجاوز هذه الشكليات، كما قالت.

بعنوان: "يرحل العظيم ويبقى الأمين على النهج" قرأت:

[الصدمة كبيرة
الصدمة موجعة
عندما يرحل عظيم
مثل حافظ الأسد
ترحل معه مرحلة من عمرنا
من أيامنا
من سنوات شبابنا
عندما يرحل عظيم
مثل حافظ الأسد
يرحل معه
جزء من تاريخنا الشخصي
ومن كياننا.

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد
الصدر الأمان والمرجع الضمان
حافظ الأسد
الرجل الذي التف حوله الشعب
فكبر بشعبه
وكبرت به بلادنا

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد
الإنسان الكبير
الذي كان رمزاً للوطن
بل كان لنا الوطن

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد
الذي استطاع طوال ثلاثين سنة
ورغم محاصرة الدنيا لنا
أن يكون نداً للتحديات
وأن يتحدى الصعوبات
وأن يضع سورية في مكانها
الحقيقي اللائق .
وأن يعطيها دورها المرموق
إنْ على الصعيد الوطني
أو على الصعيد الإقليمي
أو على الصعيد العالمي

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد

الذي كان في كل الظروف

وفي جميع المواقف

الصوت الحكيم للشعب

حتى أن دول العالم كانت

عندما تخاطب حافظ الأسد

إنما هي تخاطب سورية

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد رحل؟

لكن حافظ الأسد

ليس رجل مرحلة

أو قائداً في مرحلة

إنه رجل التاريخ

ورجال التاريخ

لا يغيبهم الموت

فهم باقون في تاريخنا

منارة للأجيال.

❖ ❖ ❖

رحل العظيم حافظ الأسد

الحدث كبير، الحدث موجع أليم

والإحباط مرعب والفراغ مخيف

لولا وجود الدكتور بشار الأسد

الابن الشاب الطبيب الذي تشرّب أفكار أبيه]

مكانة مرموقة..

أخيراً. ليست قلة النسوة الأديبات في بلدنا هي التي جعلت كوليت سهيل الخوري. باذخة الجبهة، مقروءة، كما قال أحد أعدائها "أو حسادها"، بل إن كوليت تتمتع بحس أدبي عالٍ، هو الذي جعلها في هذه المكانة في سورية، بخاصة، وفي البلاد العربية بعامة. وهي، وإن كانت تعتبر مقالاتها أكثر قرباً منها، من رواياتها وقصصها "فقد عاشت معي يوماً يوماً وأسبوعاً أسبوعاً وشهراً شهراً. على مدى سنوات وسنوات، ووحدها كانت فيضان مشاعري تجاه ما يجري، وحدها بقيت مجال تنفسي في الأيام الصعبة الخانقة" إلا أنني بعين الناقد أجد قصصها ورواياتها أكثر تعبيراً عنها وعن حياتها الفنية المفعمة بالمشاعر.

قلت لها:

- إن رواياتك وقصصك المكتوبة هي الباقية، أبداً وعلى مرّ الأيام، لأنها نبض واقعي متخيل في آن معاً، وهكذا الأدب، تزاوج بين الواقعي والمتخيل.

ياسين رفاعية

من عامل في فرن إلى أديب كبير

ما من أديب صنع نفسه بيديه وبقلبه ووجدانه مثل ياسين رفاعية الدمشقي، الذي اغترب وما زال يعيش في الاغتراب، حتى اللحظة. ولعل صعوبة صنع أديب بيديه كونه صنع جزءاً كبيراً من شهرته، وهو بعيد عن أرض الوطن، حيث حواجز الغربة واللغة الأخرى، والبحث عن الرزق. مع ذلك كان كفاح ياسين في المغترب نابعاً من المهنة نفسها التي اختارها طريق حياة - اندمج بالكلمة واندمجت الكلمة به فاتحدا وكافحا معاً. لم تهرب الكلمة منه إذ غادر، بل إنه جعلها أسيرة موهبته واغترابه، وصار لها اسم ومريدون، وذاع اسمه كسفير للكلمة السورية في العالم، ولهذا استحق لقب الأديب عن جدارة.

هذا هو الأديب الكبير ياسين رفاعية الذي نستضيفه في حوار.

رياح التغيير

كان أول يوم في السنة الجديدة، وكنا نسير في كورنيش بيروت على غير هدى، نتحاور، قلت لياسين:

- **ها قد دخلت في أول سنة من عقدك الثامن، مدّ الله في عمرك، أتظل على اغترابك؟ ألن تعود عنه لتعانق أرض الوطن وتشم عطره، وتعيش مع مواطنيك؟**

توقف عن السير وقال لي:

- أتمنى من كل قلبي، خاصة وأنني ألمح رياح التغيير تهب على أكثر من صعيد في بلدي - أتمنى أن أعود مكرماً معززاً، دون أن أقع في أفخاخ المسيئين إلى البَلد. إن أموري المادية، وحتى المعنوية لا تسمح لي أن أخطو الآن مثل هذه الخطوة. لعل ذلك يحدث في القريب العاجل..

سبب الغربة..

وسألته، وأنا أعرف السر، لكنني أريده أن يستفيض:

- **قل لي، ما سر اغترابك؟ أعرف الأسباب ولا أعرف التفاصيل قلها بصراحة.**

قال:

- قصة طويلة مؤلمة. ما من أحد يغادر وطنه برضاه.

"زفر زفرة تطبخ طبخة " كما يقولون في الحكي الشامي، وأردف:

- نشأت في أسرة فقيرة، لا تتعاطى السياسة، ولم تتحزب ولم تنتم إلى زعيم سياسي، أو حتى إلى قبضاي حارة، لكن الظروف قادتني زمن الوحدة السورية - المصرية من عامل في فرن الكعك الخاص بأبي إلى المكتب الصحفي في القصر الجمهوري، بسبب مقال لي، صادق وعفوي، اعتبرت فيه الوحدة الخطوة الأولى نحو وحدة أكبر. تفتحت العيون عليّ، كان الغيارى والحساد يستغربون كيف انتقل الفران إلى المكتب الصحفي.

قلت له:

- **ليحسدوا ما حسدوا، حسبك أنك ارتقيت بجهدك وموهبتك.**

قال ياسين رفاعية مستمراً في التفاصيل المطلوبة:

- أول دسيسة وجهت إلي أنني عضو في الحزب السوري القومي. حقق معي الرائد شوقي الدقاق. لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الحزب، فهددت بالسجن، وأنقذني مدير مكتب المشير عامر المقدم حسني عبد المجيد، فكفوا عن ملاحقتي. وعندما وقعت جريمة الانفصال قادوني إلى معسكر لتسفيري إلى مصر. قلت إنني سوري الجنسية والولادة واللهجة، فأطلقوا سراحي، وأعدت إلى عملي. بعد شهر واحد أبلغوني أن أترك العمل فوراً "لأنك ناصري أو شيوعي" وبقيت مشرداً لأسابيع، إلا أن رئيس القسم السياسي في الأمن العام قال إنهم اختلقوا هذه التهمة، وسعى فعينت في وزارة الثقافة سكرتير تحرير مجلة "المعرفة" التي كان فؤاد الشايب يؤسسها، ومعه مدير التحرير الزميل نهاد الغادري، ولكم شعرت بالاعتزاز وقتئذٍ.

التسريح ومرض القلب

قلت مازحاً:

- **ستروي علي قصة حياتك التي أعرف، قلي لي: ما سر اغترابك؟**

قال:

- لا بد من هذه المقدمة عن حياتي لتعرف ما الذي اضطرني إلى الاغتراب.

قامت ثورة آذار فاستبشرت خيراً، لأنها حملت شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية، لكن المرحوم سليمان الخش الذي رفض المرحوم فؤاد الشايب نشر مقالات له، وقت كان معلماً، أصدر أول قار باعتباره وزيراً للثقافة بتسريحي. كان التسريح موجهاً للشايب الذي أبعد مديراً لمكتب الجامعة العربية في الأرجنتين (توفي هناك). عندئذ غادرت دمشق إلى بيروت، وكان هذا أول اغتراب لي، لكنني سرعان ما عدت إلى عاصمة بلدي عندما علمت أن زوجتي الراحلة الشاعرة أمل جراح مصابة بمرض القلب.

جريدة الثورة

كان اغتراباً قصيراً، والغريب أن ياسين رفاعية راح يعزي ذات يوم بصاحب "المضحك المبكي" المرحوم حبيب كحالة، فوجد سليمان الخش معزياً هناك، ربت على كتفه دونما تحية، وقال له:

- ألم تجع بعد؟

قال له ياسين بشموخ:

- أنا لا أجوع. سأعود إلى فرن أبي، لأصنع الكعك.

قص علي هذه القصة الغريبة، وقال:

- أرأيت أو سمعت مثل هذا الحقد والتشفي؟

صمت، فأكمل ياسين الحديث، ووشوشات البحر تختلط بصوته:

- بقيت سنة بلا عمل. وبمسعى شخص من القيادة القومية للحزب، لم أعد أذكر من كان، عينت في جريدة الثورة محرراً مساعداً. ورحت أعد برنامجاً شعرياً للإذاعة، ضمنته شعارات الحزب، ومادته صدرت فيما بعد في كتاب لي عنوانه "لغة الحب"، وبدا أن حياتي تسير نحو الاستقرار.

التسريح مرة ثانية

قامت حرب حزيران، فقمت بإعداد تحقيقات عن العائدين من الجولان وما واجهوه من مصاعب في حربهم. كتبوا عني أنني "أخون البلد" بما كتبت، فسرحت من العمل مجدداً، وأوقف برنامجي الإذاعي، كما أصبحت بلا عمل ثانية، وفي هذه اللحظة اتخذت قراري النهائي بالمغادرة.. لئلا يعينني وزير ويقصيني وزير. قلت: "أرض الله واسعة". إنه الاغتراب والانفتاح على المجهول.

عملت في الصحافة اللبنانية، ولاحقتني الدسائس، مع أنني لم أكتب في السياسة، بل كتبت عن الأدباء السوريين، ونتاجاتهم، عشت مأساة الحرب الأهلية، وحاولت العودة إلى دمشق، لكن الدسائس لاحقتني، فاعتقلت وأنا في بيت والدي، ودار التحقيق حول كوني شيوعياً مرة، وعميلاً للعراقيين الذين كانوا يمولون مجلة "الدستور" التي كانت تصدر في لندن، وكنت أعمل فيها كمسؤول ثقافي، مرة أخرى، تدخل الأستاذ علي سليمان، معاون وزير الثقافة فأفرج عني وسمح لي بالسفر لمرة واحدة، أي أنهم سيعتقلونني فيما لو عدت إلى حضن الوطن.

قلت له:

- **غادرت إلى لندن في اغترابك الأبعد، فهل نجوت من كيد ودسائس الغيارى منك ومن نجاحاتك وإبداعاتك؟**

قال:

- لم أنج، كان عملي في مجلة "الدستور" مصدر غضب علي، كنت متألماً لأنني كنت أعمل في هذه المجلة التي وصفها أحد دبلوماسيي السفارة السورية بأنها "معاريف العراقية" لكنها كانت مصدر رزقي الوحيد.

وأخيراً وبعد أن توقفت عن الصدور عملت في جريدة "الشرق الأوسط" فرحت أكتب عن وطني مقالات سياسية إيجابية. وأثناء الولاية الرابعة للرئيس الراحل حافظ الأسد كتبت مقالاً عن الموقف القومي لهذا الرجل الكبير وسياسته الخارجية الناجحة، ونشرته، فأذاعته الإذاعة السورية وبثه التلفزيون السوري، مع صوري، وكان ذلك سبباً في قرار الرئيس بعودتي إلى البلاد معززاً مكرماً.

لا يصح إلا الصحيح

قلت لياسين رفاعية، بعد هذا الشرح الطويل لأسباب اغترابه:

- لا يصح إلا الصحيح إذاً، فهل أفادك الاغتراب أم أنه حدّ من فعاليتك؟

قال وهو يبتسم:

- كانت للغربة إيجابية وأخرى سلبية.. الإيجابية: الاطلاع على حضارة الغرب عن كثب والتحسر على الوطن الذي لم يلحق بهذه الحضارة. هذه الغربة لم تحد من فعاليتي، فبعد توقف عن الكتابة بين عام ١٩٦٣- ١٩٧٤ تلك الفترة التي كان الوطن فيها يغلي كالمرجل، انطلقت مجدداً إلى الكتابة لأصدر بعد ذلك نحو عشرين كتاباً بين الرواية والقصة والمقالة والذكريات، بذلك الإحساس أن لا أحد يجلس فوق أصابعي. أكتب بحرية دون الخوف من أحد. فكتبت: "الممر" و "مصرع الماس" و "وردة الأفق" و"رأس بيروت" و"امرأة غامضة" و"أسرار النرجس" و"وميض البرق" وترجمت "الممر" و"مصرع الماس" للإنكليزية وهما الآن تدرسان في جامعة تكساس في أمريكا، وترجمت قصصي القصيرة إلى الإنكليزية والألمانية، ولآخر قصة ترجمت لي: "الرجل الرماديون" التي نشرت في موسوعة الأدبي العربي باللغة الألمانية، كما دخلت موسوعة الأب كاميل كأبرز كتاب الوطن العربي حيث رويت فيها سيرة حياتي على مدى تسع صفحات.

البدايات

ذكرني هذا الكم الكبير من النتاج ببداياته الخجلى، فقلت له:

- بداياتك؟ حدثني كيف بدأت، وأنت عامل في فرن؟

قال:

- أذكر أن أول قصة كتبتها كانت بعنوان "ماسح الأحذية" استوحيتها من صديق لي في فترة الشغل في الفرن - كان يعمل ماسح أحذية ويروي لي مأساته مع هذه المهنة التي بات يعرف الناس فيها من أحذيتهم: الفقير والغني، حتى أصبح شعاره: قلي لي "ما هو حذاؤك أقل لك من أنت". شغلتني حياة هذا الرجل فترة طويلة حتى أحسست بإلحاح فكرتها علي وكتبتها قصة وأرسلتها إلى مجلة في العراق، كان يرأس تحريرها الراحل "جبرا ابراهيم جبرا" فنشرها، وأرسل إلي برسالة يطلب فيها المزيد. وكان مكافأتها على ما أذكر (٣٠٠ ليرة)، تقاسمتها مع ماسح الأحذية نفسه، وفي العام ١٩٦٠ أصدرت أول مجموعة قصص لي بعنوان "الحزن في كل مكان" وهي قصص عن رفاقي العمال في الفرن وفي الحي، لست الآن راضياً عنها. لكنها كانت بداياتي، ومن خلالها تعرفت على الكتاب السوريين، وأول من نشر لي في الصحافة السورية الزميل الكبير عادل أبو شنب، عندما كان مديراً لتحرير جريدة "الشعب" ثم بدأت بنشر قصصي في جريدة "النقاد" الأسبوعية التي كان يديرها المرحوم سعيد الجزائري، وكان هذا الدينامو الثقافي يختار في كل عدد القصة الأبرز بين قصص الجريدة دون أن يضع لي قصة واحدة في هذا الباب، إلى أن كان ذات يوم وإذا بقصتي "الأصدقاء والثمن" توضع تحت عنوان "قصة النقاد" فاعتبرت نفسي أنني ختمت فن القصة. وبعد ذلك أرسلت قصصي إلى مجلة "الآداب" وعندما نشرت فيها قصة "الحزن في كل مكان" قرظها الكاتب الراحل صدقي اسماعيل في باب "قرأت قصص العدد الماضي" وكانت مقالته عنها ضعف عدد كلماتها. فاخترتها عنواناً لمجموعتي الأولى التي قدمها بدراسة الناقد رجاء النقاش الذي كان يعمل في جريدة "الجماهير" التي صدرت خلال فترة الوحدة في

دمشق، ثم صدرت لي في دمشق عام ١٩٦٣ مجموعتي "العالم يغرق" التي قدمها لي بدراسة العملاق فؤاد الشايب. ثم توقفت عن الكتابة ١١ عاماً، خلالها انتقلت إلى بيروت وأصدرت عام ١٩٧٤ أول مجموعة قصص لي هناك، واعتبرها النقاد فتحاً في كتابة القصة فصدرت منها أربع طبعات في مدة وجيزة، وتدرس الآن في جامعة القديس يوسف كأهم ما كتب في القصة القصيرة، وأنا شخصياً أعتبرها من أجمل ما كتبت، وصدرت لي بعد ذلك العديد من المجموعات القصصية من بينها قصص للأطفال.

في الأدب والصحافة..

- **ماذا فعلت في عالم الأدب إذاً؟**

- فعلت الكثير الكثير خصوصاً في مجال التعريف بالأدب السوري، وأجريت بالمراسلة مجموعة مقابلات كانت تنشر في "ملحق النهار الأدبي" في بيروت تحت عنوان "كل" أي كل فلان من الكتاب، كانت مقابلات مع "د. عبد السلام العجيلي" و"نزار قباني" و"جورج صيدح" وعدد آخر. وعندما استلمت القسم الثقافي في مجلة "الأسبوع العربي" أجريت مقابلات طويلة بدأتها بالسوريين "أدونيس" و"فؤاد رفقة" و "يوسف الخال" و"غادة السمان" و"علي سليمان" وغيرهم. كنت، كما كان يقول عني النقاد - رسول الثقافة السورية، وقال عني عادل أبو شنب: سفيرنا الثقافي في العالم.

- **وفي الصحافة ماذا فعلت؟**

- رأيت دائماً أن الصحافة هي المهنة الطبيعية للكاتب، إنها تعلمه الكتابة المستمرة، كل يوم، كل ليلة، كل نهار، ومنذ كنت عاملاً في الفرن سعيت للدخول في عالم الصحافة، بدأت صحافياً بالمجان في جريدة "دمشق المساء" ثم وأنا في القصر الجمهوري صرت أحرر صفحة أدبية أسبوعية في "الأخبار" الدمشقية. كما عملت زمناً طويلاً وهذه المرة بمرتب في جريدة "صوت الجبل"، كنت مصحح الجريدة وأحياناً أصف مع العمال أخبارها.

كانت تصدر مرتين في الأسبوع - ثم عملت في جريدة أخرى اسمها "الشورى" كنا ننقل إليها ما صففناه في "الجبل" يحررها الزميل القديم علي الوعلاني. كان يكتب الافتتاحية ويضعها باسم صاحب الجريدة الذي كان يسألني مع صدور كل عدد: هل قرأت افتتاحيتي؟.. ولم يكن يعرف أنني أعرف كاتبها. كنت أصححها من بابها إلى محرابها، وتصدر بأربع صفحات، كان ذلك أواخر الخمسينات وقبل أن تقوم الوحدة، كما عملت في جريدة "الوعي العربي" التي أصدرها المرحوم فتحي كركوتلي في الخمسينات، وكان في نفس الوقت ضابط مخابرات. كان المعاش ربما ٢٥ ليرة إلى جانب الغذاء والعشاء، وقد واريته التراب بنفسي في لندن عام ١٩٩٥ لأنه توفي هناك غريباً. وكان صديقي حتى آخر يوم من حياته. على أن العمل الجدي في الصحافة كان في لبنان، عندما استلمت القسم الثقافي في مجلة "الأحد" التي كان يصدرها الشهيد رياض طه. ولم أكن فقط محررها الثقافي بل أيضاً سكرتير تحريرها التنفيذي حيث كنت أقضي جلّ وقتي في المطبعة أعمل مع العمال على صف مادتها حرفاً حرفاً كما كانت تطبع صحف تلك الفترة من الستينات. ثم تطور عملي الصحفي لأقفز فجأة من "الأحد" إلى مدير مكتب "الرأي العام" الكويتية ومراسلها في بيروت، وأذكر أن الدكتور "يوسف شقرا" زارني في مكتب الرأي العام في بناية "الدورادو" وانتبه إلى أن تصميم مكتبي يشبه إلى حد ما تصميم مكتب الوزير في وزارة الثقافة..

قلت له ضاحكاً: هذا المكتب أجمل أم مكتب سليمان الخش؟ فأدرك الملاحظة. فقلت له: كان يريدني أ، أجوع.. أين هو الآن؟ أنت تعرف. إنه في السجن.. أما أنا فإنني الطير المغرد وها هو راتبي (٢٠٠٠ دولار) في الشهر - اللهم لا شماتة - وفي الحرب الأهلية أغلق "عبد العزيز المساعيد" صاحب "الرأي العام" مكتب ببيروت فعملت في مجلة "الأسبوع العربي" ثم في "الكفاح العربي" وأسست في فترة الثمانينات مجلة "سامر" للأطفال التي كان من كتابها الكاتبان الكبيران "عادل أبو شنب" و"زكريا تامر"، ثم عملت

مدة ثلاث سنوات مديراً للنشر في معهد الإنماء العربي ورئيساً لتحرير القسم الثقافي في وكالة "القدس برس" وكنت أتقاضى في وقت واحد أربعة مرتبات من المعهد ومن سامر ومن مجلة "الدستور" كمراسل لها، ومن الوكالة.. وكانت تلك الفترة - حيث كانت الحرب مندلعة في لبنان - من أنشط فترات حياتي. حيث بلغ دخلي في بعض الأحيان (٢٠٠٠٠ ليرة لبنانية) كنت أصرفها كلها مع نهاية كل شهر. وعندما اشتدت قسوة الحرب الأهلية عرضت علي مجلة "الدستور" في لندن الالتحاق بها، فنجوت بهذا العرض وأسرتي من الموت في نار الحرب. في لندن عملت في "الدستور" حتى عام ١٩٩١ يوم غزو الكويت وحرب الخليج، فتوقفت المجلة، انتقلت إلى جريدة "الشرق الأوسط" لأعمل أولاً في ملحقها الإخباري "الصباحية" ثم في جريدة "الشرق الأوسط" نفسها حتى عام ١٩٩٦، ثم عملت مراسلاً لها في بيروت حتى عام ١٩٩٨. بعد ذلك تفرغت للكتابة حسب مزاجي في الصحف اللبنانية، إلى أن انتقل الزميل نهاد الغادري بجريدته "المحرر العربي" إلى بيروت فاستلمت قسمها الثقافي حتى يومنا هذا. وبذلك كانت الصحافة مدرستي الأولى التي تمرنت فيها على الكتابة، صرت أكتب دون مسودات، فيما عدا الكتابة الروائية التي أبذل فيها جهداً كبيراً حتى أنجز العمل. إلى الصحافة أرد نجاحي في العمل في الكتابة بشكل خاص.

رأيك بالنقاد..

في الطريق رأيت أحد النقاد اللبنانيين - سلمنا ثم عاودنا المسير. ولست أدري لماذا خطر لي أن أسأل الكاتب الدمشقي عن هذا الناقد الذي رأيناه، لنغير مسيرة الحوار.

- ما رأيك في النقاد الذين تناولوك، وأنت السوري بينهم؟

- كثيرون هم النقاد الذين كتبوا عن تجربتي الأدبية وثمنوها أيما تثمين. معظم هذه الكتابات كان إيجابياً. وأذكر من هؤلاء "جبرا ابراهيم جبرا"

و"وضاح شرارة" و"محي الدين صبحي" و"عبد الله أبو هيف" و "سمر روحي فيصل" و"عصام محفوظ" و"صلاح فضل" و"أمين العيوطي" و"علي شلش" و"رجاء النقاش" و"فتحي سعيد" في مصر، و"عبد الرحمن الربيعي" في العراق و"رشاد أبو شاور" من غمان وكاتبنا الكبير "عادل أبو شنب" و"غادة السمان" في سورية و "نصر الدين البحرة".. وغيرهم مما يفوتني أسماءهم الآن. لكن في الحقيقة أكثر ما كان يهمني رأي القارئ العربي الذي لا تربطني به أي صلة غير صلة الفن والإبداع.

الانتماء السياسي..

- **هل لك انتماء سياسي؟ وما رأيك بالسياسة؟**

- في الحقيقة كان أبي رحمه الله ينصحني دائماً بعدم الاهتمام بالسياسة. كان يعتبرها: اللعب على الحبال. كان يقول: "اليوم وزير وغداً في السجن، ألفنا ذلك في بلادنا، والأحزاب مجرد تجمعات للفوز في الانتخابات، والسيطرة على الحكم".

ومع ذلك لم أسلم من السياسيين وأذنابهم وعملائهم وكم من مرة كنت سأسقط لكن الله كان دائماً بعوني. طبعاً لا يعني هذا أنني لم أكن أتابع ما يحصل في الوطن العربي حيث وصلت إلى نتيجة هامة: الديمقراطية وحدها منقذتنا من هذه الفوضى، حرية الرأي، حقوق الإنسان، وأن لا يقاد أي مواطن إلى السجن إلا بقرار قضائي لا بقرار من رجل مخابرات. بذلك تنمو الوحدة الوطنية التي تحفظ البلاد من السقوط في أيدي الديكتاتورية أو الاستعمار.

قلت له أسأله السؤال الذي يعيش على شفاه الناس أبداً:

- **هل يمكن للأديب أن يكون أديباً دونما انتماء سياسي؟**

أجاب ياسين رفاعية بإجابة غير متوقعة، أنا لم أكن أتوقعها على الأقل:

- نعم يستطيع، لأنه بذلك تحرر من الشعارات الجاهزة ومن الاستزلام للسلطة. ولكن يجب أن يكون حيادياً بالمعنى الإيجابي. أي أن يتجرأ وينتقد أخطاء السلطة وبالتالي يثمن نجاحاتها.

- **كيف عوملت في الخارج وكيف عوملت في وطنك؟**

- ذكرت لك الأسباب التي دفعتني للخروج من الوطن. معاملتي خارج الوطن كانت مذهلة، طوال أربعين عاماً في لبنان وبريطانيا لم يستدعني رجل مخابرات، لم يسألني أحد ماذا تفعل. لم يوقفني شرطي في ضبط سيارة، كنت حريصاً أشد الحرص أن أكون تحت سقف القانون. وهكذا حافظت على نفسي. قدرتني الأوساط الأدبية باستمرار. واستقبلني الحكام باستمرار خصوصاً في المؤتمرات الأدبية التي حضرتها إنّ في لبنان أو مصر أو العراق أو الأردن أو ليبيا، وكنت محط إعجابهم وتقديرهم دون تزلف أو مجاملة.. هذه الأمور بدأت تحدث معي عندما عدت إلى الوطن.. ووجدت أن أشياء كثيرة تغيرت، وأهمها الاهتمام بالكاتب في أكثر من مجال، وهذا ما يشجع على إيجاد وسيلة للاستقرار في المدينة التي ولدت فيها، دمشق الخالدة..

عملك الآن..

- **ما هو عملك الجديد في الأدب؟**

- أعتبر نفسي الآن شبه متفرغ، لدي زاوية أدبية في جريدة "المحرر" وبضعة مقالات في الصحف اللبنانية، وكتابة أسبوعية في مجلة "اليمامة" السعودية، وكتابة شهرية دون توقف في مجلة "الثقافية" في لندن، ومتابعة للأمسيات الشعرية والمحاضرات، إن كل ذلك هو حياتي دون النظر إلى الوراء.. فما تبقى من العمر قليل جداً.. ربما غداً أو بعد غد.. أشعر بنوع من الاستسلام للمصير الذي غاب عن ذاكرتي طويلاً، تزوجت وأنجبت ولدين[1]، وأحببت، وعرفت عدداً من النساء كن وقوداً لكتاباتي

(١) توفيت ابنته بعد مرض خبيث .

أو إلهاماً لمعظمها. عشت حياتي بالطول والعرض. وأنا الآن. بل كل لحظة، أضع نصب عيني تلك الحياة الزاخرة بكل شكل ولون والتي كانت بداياتها خيبات إثر خيبات، وأجد نفسي أنني تعلمت كثيراً من الحياة، وأتمنى لو أن الله يمنحني عمراً آخر لأنجز ما أفكر في إنجازه من قصص وروايات، فبجعبتي الكثير الكثير ولن تكفيني ٧٠ عاماً لإنجازها. ولكن نحن تحت رحمة الله والقدر وما باليد حيلة.

هنا حركت الجرح الذي لم ينسه ياسين قط. موت رفيقة حياته ومعاناتها:

- **إلى أي حد أثرت عليك وفاة رفيقة حياتك الشاعرة أمل جراح؟**

- كان فراقها صعباً جداً علي. كانت كل شيء في حياتي، ورغم أنها كانت تعيش مأساة قلبها.

كنت أظن أنها ستبقى معي زمناً أطول. وها هي قد غادرتني قبل أشهر، فوجدتني في حال من الفوضى لا حدود لها، لقد فقدت بفقدانها البوصلة والاتجاه.. لم أعد أعرف ماذا أفعل؟ كان فراقها قاسياً إلى حد بت أفكر بوسيلة ما للحاق بها لولا الإيمان بالله. كانت حبيبتي وصديقتي وحياتي كلها. كانت تهيئ لي أجواء الكتابة ولا تلزمني بشيء من مستلزمات الحياة اليومية. كانت ممنوعة من الحمل لكنها أصرت على الحمل وأنجبت لي بسام ولينا، ثم خضعت لمشورات الأطباء في عدم الإنجاب وكانت تصارحني كيف ستقضي حياتك دون أولاد يرافقونك بقية العمر؟

شعرت أنها ضحت بنفسها من أجل أن تنجب. وكان يمكن أن تعيش أكثر لو لم تنجب - والعلم عند الله - لكن المكتوب على لوح أقدارنا هو المكتوب ولا نستطيع أن نغير في ذلك شيئاً. قبل وفاتها بعام قال الأطباء أنها دخلت النفق المسدود - أجريت لها خمس عمليات في القلب - كتبت روايتي "وميض البرق " التي كتبت فيها عن موتها المتوقع، قرأتها قبل رحيلها بشهر واحد. وبكت. وقالت: كم أنا متألمة من أجلك. وها أنا أعاني ما سبق وكتبته عن حياتي بعدها.. وكأنها النبوءة والرؤيا.

قلت أغير الموضوع، وكان فندقي قد صار قريباً:

- هل تعتقد أن الأدب يرفد الصحافة أم أن الصحافة ترفد الأدب وما هي علاقتك بالاثنين أي إلى أي منهما تحب أن تنتمي؟

- لا شك أن الصحافة ترفد الأدب والعكس صحيح أيضاً. فالأدب يحسن الأداء اللغوي في الكتابة الصحفية، كما أن العمل في الصحافة يرفد الأدب بالحدث الحار الطازج، الذي هو أصول الكتابة. وأنا شخصياً أنتمي إلى الأدب، وأحب كتابة القصص والرواية. وأحياناً تجد هذه الروح في زاويتي الأسبوعية في "المحرر العربي" التي أوقعها تحت عنوان "الساعة الخامسة والعشرون" أي الساعة التي لا تأتي أبداً.

فقدان أمل..

- ما هو المنعطف الخطير في حياتك؟

- فقدان أمي وأبي وزوجتي تباعاً. وإن كان فقدان أمل جراح الأخطر بلا استثناء، أربعون عاماً جنباً إلى جنب. ثم فجأة لا شيء، بل المفاجأة الأخطر أن هذه المرأة التي أحببتها كل هذا العمر، والتي كنت تراها كل دقيقة وثانية، أصبحت فجأة في الغياب وأنك لن تراها بعد اليوم أبداً.. وهذا هو الخطر بعينه الذي أعيشه الآن.

قلت مرة أخرى أغير الموضوع:

- اشرح لنا بعض أعمالك التي تعتبرها ذروة من ذراك؟

- في الحقيقة أحببت كل ما كتبت، الذي كان دائماً وليد لحظة، لكن عندما تقدمت في العمر وجدت قصصي الأولى في "الحزن في كل مكان" و "العالم يغرق" ليست كما كنت أحب. ولو أتيح لي فرصة جديدة، لأعدت كتابتها من جديد، مع إصدار "العصافير" التي طبعت عدة طبعات. صارت الكتابة عندي مهنة، وأصبح علي أن أجود ما أكتب. وإن كان لي أن أختار لا أن أفضل فأختار في قصصي القصيرة "العصافير" وفي الرواية "مصرع الماس" و"أسرار النرجس" و"وميض البرق" ولا تنس أنني كتبت ستة كتب تحت عنوان "نصوص في العشق" محاولاً فيها إبراز لغة شعرية تخص هذه العاطفة النبيلة "الحب".

- **ما رأيك بأدب الرواية والقصة في سورية؟**

- أظن أن سورية هي أم وأب القصة القصيرة التي ترعرعت على أيدي فؤاد الشايب وعبد السلام العجيلي وعلي خلقي ومن ثم عادل أبو شنب وزكريا تامر وسعيد حورانية في الأجيال السابقة ثم غادة السمان وكوليت خوري في الأجيال اللاحقة. أما عن الرواية فهي فن وليد في سورية. والروايات الجيدة قليلة لكن تنبئ بأن يكون لها شأن كبير في المستقبل.

- **في البلاد العربية؟**

- ستظل مصر أم الرواية وأباها.. فالعملاق نجيب محفوظ هناك، وأنا شاب قرأت معظم الروايات المصرية للرواد بعد نجيب محفوظ إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وفي القصة القصيرة يوسف الشاروني الذي لا أجد له مثيلاً في كتابة القصة القصيرة.

الحب..

- **ما رأيك بالحب وهل كان الحب هدفاً لك لعمل أدبي؟**

- كان الحب وما زال صلب الكتابة عندي، وإنه الأصول الأولى في كل ما كتبت، لا يمكن أن تجد نصاً أدبياً ليس للحب فيه دور أساسي.. وبالنسبة لي كان الحب موجوداً في كل أعمالي.. ولكن في كثير من الأحيان الحب المستحيل.. الحب الذي يلد الألم والإحباط والخوف.. لأن الحب في بلادنا كثيراً ما يشبه الجريمة الجميلة.. وكم من ضحايا لهذا النوع من الحب. فإذا كانت "روميو وجولييت" أشهر قصة حب في العالم.. فإنها تقع يومياً في بلادنا.. وما جرائم الشرف إلا جزءاً منها.

وسألته عن مشاريعه المستقبلية في عقده الثامن:

- **ما هي مشاريعك في المستقبل؟**

- أنا أعمل الآن على رواية جديدة لم أختر اسماً لها. وأفكر أن يكون "عالم بلا رجاء" ربما.. ولكن مع نهايتها سأفكر بالعنوان النهائي.

- **ما رأيك بالصحافة السورية وهل تجدها مختلفة؟ أرجوك صارحني؟**

قال:

- لا تسألني عن الصحافة السورية، لأن رأيي فيها سلبي جداً. أنا في المطلق ضد الصحافة ذات التوجه الواحد. الصحافة الرسمية التي تطبل وتزمر للنظام، دون أن يخطر في بالها أن تضع يدها على أركان الفساد والتي هي تشمل البلد من أوله إلى آخره. عندما كنت أعمل في جريدة "الشرق الأوسط" جاءتنا رسالة من مواطن سعودي يصف فيها التعدي المشين والمخجل الذي تعرض له في مطار دمشق الدولي، إذ استولى رجال الجمارك على نصف الهدايا التي كان يحملها إلى أصدقائه. تألمت من الرسالة، أنا السوري، وكيف أن غريباً يتحدث هكذا عن بلدي. لم أنشر الرسالة وإنما أرسلتها إلى وزير السياحة للاطلاع عليها.. واهتم بها الرجل اهتماماً كبيراً، وأرسل لي جواباً ما زلت أحتفظ به خلاصته أنه حقق في الأمر.. وأن مثل هذا الأمر لن يحصل لا في المطار ولا في أي مكان آخر.. وما إن مضى شهر على تاريخ ذلك الجواب حتى تلقيت رسائل مشابهة تتكلم عن نفس الأمر.. فلو كانت الصحافة السورية على علم بمثل هذه الأمور ونشرتها ألا يخاف ذلك الموظف من الإتيان بمثل هذه الأعمال المخجلة.. لكن صحافتنا للأسف كالنعامة تدفن رأسها بالرمال حتى لا ترى شيئاً. صحافة المديح والتبخير لا يقرأها أحد. ومؤسسة تضم ٥٠٠ موظف يشكون الذباب ولا يفعلون شيئاً لا تعتبر صحافة. الصحافة بناء وطن.. وكي نبني وطننا علينا أن نهدم أولاً كل هذه المظاهر، وهذا واجب الصحافة في كل بلد. كيف تنجو صحافتنا من التوجه المباشر والتعبير عن رأي واحد دون الاهتمام برأي الآخر.. إنها الديمقراطية يا سيدي.

ابتسمت أخيراً، وسألته وأنا أزمع أن أقول له "تصبح على خير":

- **ألن تعود من اغترابك؟**

أجاب إجابته الأولى:

- أتمنى ذلك من كل قلبي.. خاصة وأنني ألمح رياح التغيير في بلدي على أكثر من صعيد.

❖ ❖ ❖

كانت بيروت في أمسية اليوم الأول من السنة الجديدة، تتلألأ بالأنوار، وكان الكورنيش يشهد حركة حثيثة للاستمتاع بيوم العطلة، صمتنا أنا وهو، كان في عيوننا أمل في أن نحقق ما نصبو إليه في السنة الجديدة، وكان ما نصبو إليه بسيطاً جداً، أن نكتب المزيد في البقية الباقية من العمر، لأن الكتابة قدرنا، وكارنا الذي اخترناه عن عمد وإصرار.

سيرة:

- ياسين رفاعية: من مواليد ١٩٣٤ - دمشق.
- دراسته: الثانوية.
- عضو مؤسس في اتحاد الكتاب العرب.

مؤلفاته:

القصص القصيرة:

١- الحزن في كل مكان ١٩٦٠ - طبعتان ١٩٨٠.
٢- العالم يغرق ١٩٦٣ - طبعتان.
٣- العصافير ١٩٧٤ - ٤ طبعات.
٤- العصافير تبحث عن وطن (قصص للأطفال) ١٩٧٩.
٥- الرجال الخطرون ١٩٨٨.
٦- نهر حنان ١٩٩٦.
٧- الحصاة (مختارات قصصية) ١٩٩٦ - تونس - ليبيا.
٨- الورود الصغيرة (قصص للأطفال ١٩٨٠).

الروايات:

١- الممر ١٩٧٨ - ١٩٨٣ طبعتان.
٢- مصرع الماس ١٩٨٠ - ثلاث طبعات - بيروت مصر.
٣- وردة الأفق ١٩٨٤ - أثينا.
٤- ماء بالألوان ١٩٨٦ - مصر.
٥- رأس بيروت ١٩٩٣ - باريس.

٦- امرأة غامضة ١٩٩٩ - القاهرة.

٧- أسرار النرجس ١٩٩٩ - بيروت.

٨- وميض البرق ٢٠٠٣ - بيروت.

نصوص شعرية:

١- جراح - رسائل حب وبوح ١٩٦١ - دمشق.

٢- لغة الحب طبعتان ١٩٧٨ - ١٩٨٣.

٣- أنت الحبيبة وأنا العاشق (طبعتان) ١٩٧٨ - ١٩٩٦.

٤- كل لقاء بك وداع.

٥- حب شديد اللهجة.

٦- أحبك وبالعكس أحبك

٧- سلسلة تحت عنوان: نصوص في العشق صدرت عام ١٩٩٣.

مذكرات:

رفاق سبقوا - دار رياض الريس ١٩٩٠، عن فؤاد الشايب - أمين نخلة، معين بسيسو، صلاح عبد الصبور، خليل حاوي.

د. صباح قباني

معجزة التأسيس

"ولما كبرنا راحت الحياة تأخذنا كلاً في طريق، ولكن اسم نزار بقي عند الناس هويتنا الأولى، فبه نعرف أينما كنا:

- حضرتك أخو الشاعر الكبير؟

وحين يجيب أحدنا بالإيجاب، وقد امتلأ زهواً، يحس أنه صار لاسمه بعد آخرٌ جديد، وأنه غدا جزءاً من مجد الشعر".

هكذا كتب الدمشقي الدكتور صباح قباني، في ذكرى رحيل شقيقه الدمشقي جداً الشاعر نزار، بعد ثلاث سنوات من وفاته، وإذا كان ما قاله حباً بنزار، فإن ما لم يقله وما لم يكتبه هو أنه شكل، بشخصه الفريد، حنة خاصة من الفن والدبلوماسية، وملكة التأسيس التي هي ظاهرة عند آل القباني.

لعله في زحمة الإعجاب بالشاعر نسي أنه فعل، هو الآخر، ما لم يفعله الأوائل، وأنه مثار إعجاب مديد، وأنه فنان متميز.

مصور أولاً..

- متى ولدت؟

- عام ١٩٢٨، وأخي نزار يكبرني بسنوات.

- كنت مديراً لبرامج الإذاعة في الخمسينيات، ومديراً للفنون في وزارة الثقافة، ثم مؤسساً ومديراً أول للتلفزيون (بدأ البث يوم ٢٣ تموز "يوليو" ١٩٦٠ في الستينات، وفي السبعينات صرت سفيراً لسورية في الولايات

المتحدة الأمريكية، وإذا أضفنا إلى ذلك هوايتك في التصوير الفوتوغرافي، واهتمامك بالسياحة المحلية توصلنا إلى حقيقة هامة، وهي أنك فنان في عدة مسارات، ولكن أي مسار أقرب إليك؟

- ذات يوم، وكنت سفيراً بواشنطن، جاء وزير خارجية سورية وقتئذٍ، وخلال إقامته في بيتي نظر إلى لوحاتي الفوتوغرافية معلقة على الجدران، فأبدى إعجابه بها، وسأل: من المصور؟ قلت: أنا. فقال: أأنت مصور؟ فقلت له: هل تعلم سيادتك أنني مصور أولاً وسفير ثانياً!

وضحكنا.. فالدكتور صباح روى الرواية ليؤكد أنه فنان قبل أي شيء آخر.

منذ حداثته اهتم د. صباح قباني بالتصوير الفوتوغرافي، لكنه لم يمارسه بمنهجية وجدية إلا في أوائل الستينيات عندما تابع دورة مدرسة "مشاهير المصورين" الأمريكية، ودورة تصوير الوجوه "البورتريه" بجامعة نيويورك.

- **ما الذي تحاول أن تقوله في لوحاتك الفوتوغرافية؟**

- أحاول أن أقول أشياء كثيرة بأقل وأبسط ما يمكن من التكنيك والأحجام والخطوط، أما تصوير الوجوه.. فأحرص على التقاط اللمحات التي تعكس الحقيقة الداخلية للإنسان.

أنا مستمر..

ذات يوم أهداني الدكتور صباح لوحة فوتوغرافية التقطها لنهر النيل، كان يعرف أنني مغرم بالقاهرة ونهرها، وإلى اليوم ما تزال اللوحة معلقة على جدار في بيتي. إنه لا يتكسب من هوايته، ولعله المصور الوحيد الذي "يضع الوطن في راحة يدنا" كما قال شقيقه نزار، في تعليقه على صور المعرض الذي أقامه عام ١٩٦٨، عندما كان مستشاراً في الخارجية السورية.

- **ما قصة هذا المعرض، وماذا عرضت فيه؟**

يبتسم كعادته، ويقول:

- صورت أشياء كثيرة من الوطن: سنابل القمح، الرعيان، الحصادين، والراقصين، القرويات وجرارهن، مضارب البدو، المهباج.. الخ. يومئذٍ كتب أخي نزار: "صباح قباني حاول بمعرضه الصغير أن يخرج التفاحة الجميلة من نطاق التجريد، ليكون وطناً نواه، ونشمه، ونلمسه بالأصابع، فلا وطن خارج نطاق التجريد، ليكون وطناً نراه، ونشمه، ونلمسه بالأصابع، فلا وطن خارج نطاق الحواس الخمس" هذا هو معرضي ذاك، هذه هي صوري التي "أهدتنا وطننا الجميل.. مرة ثانية" كما قال نزار.

- **أأنت مستمر في هوايتك؟**

- طبعاً. لكن دعني أقل لك إن الهواية ليست شربة ماء، إنها جهد مبذول في تفاصيل كثيرة، الكاميرات الجديدة تضبط نفسها بنفسها، مما جعل التصوير هواية سهلة، لكنها، بذلك، لا تنطوي على فن. إن اللوحة، لتصبح لوحة فوتوغرافية، تعتمد على الفكرة وعلى دراسة الضوء وعلى الورق المستخدم أثناء تظهير الصورة، والفنان هو الذي يلم بكل هذا. "فكما أن ليس كل من قرأ وكتب يعد كاتباً، كذلك فإنه ليس كل من صور بالكاميرا أصبح فناناً" كما قلت في تصريح صحفي لجريدة "الوحدة" عام ١٩٥٩، وقت كنت مديراً للفنون بوزارة الثقافة، أنا مستمر في هذه الهواية، فبعد معرض عام ١٩٦٨ أقمت معرض "لحظات أندنوسية" عام ١٩٧٢، واشتركت في معرض مشترك عام ١٩٧٣. وأقمت معرضاً استعادياً بعد ١١ سنة، وما أزال أصور حتى الآن.

وأراني بعض لوحاته الفوتوغرافية، فأخذت بلوحة " وعاء الحليب" التي التقطها في الريف السوري. ذات يوم.

جاذبية خاصة..

حصل الدكتور صباح قباني على شهادة البكالوريا "قسم الفلسفة" عام ١٩٤٧ وكان يتمنى، بسبب ميوله للفنون الجميلة أن ينتسب إلى كلية الفنون، لكنها

لم تكن قد ظهرت بعد، فعمل مذيعاً هاوياً في الإذاعة أثناء دراسته الجامعية، وبعد نيله شهادة الدكتوراه في الحقوق في باريس، رغب إليه مدير الإذاعة المرحوم أحمد عسه الذي كان يريد الإذاعة مؤسسة ثقافية، في العمل معه، فاستحدثت هيكلية جديدة للبرامج "تعتمد على الإيقاع السريع" كما قال الدكتور صباح في احتفال بمرور ٥٥ سنة على تأسيس الإذاعة.

- **ماذا فعلت في الإذاعة في نشاطاتك التأسيسية المعروفة عنك؟**

- في ميدان الفكر ابتدعنا عشرات الزوايا التي تتضمن أحاديث فكرية واجتماعية وفلسفية وطبية بلغة مبسطة، وقدمنا موجزاً للأنباء كل ساعة، وأصدرنا مجلة الإذاعة السورية، وكان رئيس تحريرها المرحوم سعيد الجزائري الذي اكتشف المواهب الشابة..

- **مثل من؟**

- مثل سعيد حورانية وشوقي بغدادي ومحمد حيدر واسكندر لوقا وعبد الباسط الصوفي وأنت.. ألا تذكر ذلك؟

- **كيف لا أذكره، وأنت الذي أحببت بواكيري القصصية؟**

- المهم في الإذاعة أنني اعتمدت جاذبية خاصة في برامجها، فصارت في صدارة الإذاعات العربية.

ترك الدكتور صباح الإذاعة ليحقق رغبته الأولى بالعمل في وزارة الخارجية، ثم عاد إلى وزارة الثقافة المستحدثة فصار مديراً للفنون لمدة سنة واحدة، ثم..

- فوجئت باختياري لتأسيس وإدارة التلفزيون الدمشقي..

- **كنت إذاً أمام تحدٍ تأسيسي جديد؟**

- كان التلفزيون معلماً ضبابياً بلا ملامح. كنا أول تلفزيون في المنطقة، وكان علينا أن نبتكر كل شيء من العدم، وأستطيع القول بكل اعتزاز أن الصيغ التلفزيونية التي ابتكرناها منذ ٤٥ سنة هي التي أخذت عنها التلفزيونات العربية فيما بعد.. وربما حتى اليوم.

- **لا بد أنكم واجهتم كثيراً من التوتر وقتئذ؟**

- كانت القاهرة تعني تاريخاً عريقاً ورائداً في المسرح والإذاعة، بل والفنون بعامة، بينما كنا نحن هواة في هذه الميادين التي هي أساس العمل التلفزيوني. لم نكن نملك أجهزة تسجيل. كانت برامجنا تبث مباشرة على الهواء من استديو صغير ومؤقت هيئ على عجل في محطة الإرسال على قمة جبل قاسيون. لهذا اعتمدنا الجدة بالشكل والمضمون. ومنذ اليوم الأول من البث أطلت وجوه غير محترفة. دريد لحام. نادية الغزي، تاج باتوك، وجدان دباغ، عمر حجو، فرقة الفنون الشعبية المؤلفة من مجموعة من الصبايا والشبان، وجميعهم لم يكن محترفاً.

- **والمذيعون، مقدمو البرامج؟**

- كانوا يعرفون من أصواتهم في الإذاعة: خلدون المالح، مروان شاهين، عبد الهادي البكار، عادل خياطة، سامي جانو وهيام طباع.. هؤلاء قدموا التلفزيون منذ الساعة الأولى على أنه صديق جديد للأسرة، سيقدم الثقافة والمتعة المهذبتين، وأظنهم نجحوا وصاروا نجوماً.

- **أي أنكم لم تحملوا "الكاباريه" إلى داخل المنازل؟**

- هذا بالضبط ما أردناه، لم نحمل الكاباريه إلى البيوت، بل الفن الراقي، كانت مغامرة، لكنها وجدت صدى طيباً، وقد تحدثت القاهرة عما أسمته "المعجزة" التي حققها تلفزيون دمشق، في افتتاحه.

- **ما الجديد الذي أعجبت به القاهرة؟**

- كثير مثلاً أعجبت بنادية الغزي في برنامجها الجديد "البيت السعيد" وقيل إن عبد الناصر أحب هذا البرنامج.

- **حدث الانفصال في ٢٨ أيلول "سبتمبر" ١٩٦١، وتحطم حلم الوحدة فما الذي جرى بعد ذلك؟**

- قدمت استقالتي، وطلبت إعادتي إلى وزارة الخارجية التي ندبت منها، ولعلي كنت الموظف الوحيد الذي طلب إعفاءه من منصبه الإعلامي إثر حدوث الانفصال، فيما أعلم.

- **أعرف أنك عينت فوراً قنصلاً عاماً في نيويورك؟**

- نعم أقمت خمس سنوات، ثم وزيراً مفوضاً في جاكرتا.. بعدها.

- **أجل، وصلني منك بطاقة جميلة منتقلة من هناك**

- أقمت ثلاث سنوات في جاكرتا، ثم عملت مديراً للإعلام في وزارة الخارجية، ثم مديراً لإدارة أمريكا فيها.. وقتئذٍ اختارني الرئيس الراحل حافظ الأسد، رحمه الله، كي أكون أول سفير لسورية في واشنطن بعد إعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

- **متى كان ذلك؟**

- عام ١٩٧٤.

- **لا شك بأنك قمت بعمل هام في تلك الفترة، ربما لأنك إعلامي يدرك أهمية دور الإعلام في العمل الدبلوماسي؟**

- كنت أؤمن أننا أمام متغيرات، ولا بد أن يتغير بالتالي دور الممثل الدبلوماسي ونهجه وأسلوب عمله، خاصة في القرن الجديد. حيث يقولون إنه لم يعد للسفير دور يؤديه، ينطلقون من أنه بعد أن تسارعت وسائل الاتصال المباشر بين زعماء الدول عبر الأقمار الصناعية والهواتف والطائرات النفاثة.. فإن دور السفير أصبح ملغى في الحياة السياسية الحديثة، ومن أكثر القائلين المتطرفين بتلاشي دور السفير.. هنري كيسينجر، غير أن السفير العربي يمل في إحدى عواصم الدول الكبرى.. يجابه، حتى اليوم، بتحد كبير، ومن هنا تقفز العملية الإعلامية ليصبح لها مركز الصدارة في اهتمامات الدبلوماسي العربي إن لم تكن هي العمل الدبلوماسي نفسه بكل أبعاده، لذلك يتعين على السفير أن يكون إعلامياً قبل أي شيء آخر، وأن يعرف كيف يفيد من أجهزة الإعلام في جميع البلاد، بجميع إمكانياتها المفتوحة أمامه، لأنها هي اليوم أجهزة تدفق المعلومات وتشكيل الآراء.

- **وكيف يؤدي الدبلوماسي دوره الإعلامي؟**
- لا شك أن للعملية الإعلامية الحديثة لغتها الخاصة اليوم كاستعمال الكلام البسيط الذي يقول أشياء كثيرة بأقل ما يمكن من المفردات، لا وقت في التلفزيون مثلاً للديباجات والمطولات. الجمل يجب أن تكون قصيرة، سريعة، مختارة ذات إيقاع خاص ونفاذ. لأن المشاهدين ليسوا فقط النخبة من المثقفين والسياسيين والاختصاصيين، بل هم من قطاع واسع من الجمهور يضم أنماطاً متعددة من الناس ذوي أعمار واهتمامات مختلفة، ولا سيما أن السفير أصبح في هذا العصر يمثل مجتمعاً لدى مجتمع آخر، وليس إمبراطوراً لدى امبراطور آخر، كما كان حاله في القرون الخوالي.
- **فهمت ما الذي أردت أن تقوله عن السفير هذه الأيام، أي السفير الذي يمثل بلاده، أو مثلها، في الربع الأخير من القرن الماضي، فهل لديك مثال على دورك الدبلوماسي المتداخل مع دورك الإعلامي؟**
- أمثلة كثيرة..
- **هات ما عندك؟**
- حالاً..
- **إن أفكارك لجديرة بأن تعطي الدبلوماسية العربية بعداً جديراً منسجماً مع روح العصر الآن .**
- أهم ما يجابه السفير لفت الانتباه إلى رأيه وموقفه، المثال حاضر، فخلال عملي كسفير في واشنطن تعرضت سورية لحملة شرسة لموضوع ما كان يمس بقضية اليهود السوريين، وقد زارني خلال هذه الحملة صاحب أكبر برنامج تلفزيوني في الولايات المتحدة، يتابعه أكثر من ٤٠ مليون مشاهد أسبوعياً.
- **ما كان اسمه؟**
- مايك دالاس اشتهر بتحقيقاته الجريئة وبنزاهته الإعلامية النادرة، فاتحني برغبته في زيارة سورية، فبادرت بالترحيب بهذه الزيارة. وبدت على وجهه إمارات الدهشة من موافقتي السريعة، وسألني فيما إذا كنت متأكداً من أن حكومتي سترحب بزيارته، فأجبت بالإيجاب، واتفقنا على موعد زيارته

لسورية. كان ذلك عام ١٩٧٥. وقد سارعت بالكتابة إلى وزير الإعلام الراحل "أحمد اسكندر أحمد" - دون أن أعرفه - معتمداً على حسه الصحافي والإعلامي، وأنه سيتجاوب معي، واقترحت ثلاثة عشر بنداً للكيفية التي يجب أن يتعامل بها مع الضيف وفريقه التلفزيوني.

- **وهل جاء الضيف إلى سورية؟**

- جاء وأجرى تحقيقاً سريعاً بحرية تامة، ودونما أية رقابة عليه، وحتى دون مرافقة رسمية، كما كنت اقترحت، وعندما عاد إلى نيويورك، قدم برنامجه من المحطة الشهيرة CBS وكان في مصلحتنا تماماً. وكذب كل الشائعات والحملات المغرضة التي كانت تشن علينا. كان مايك دالاس يهودياً، وقد نظمت المظاهرات ضده، وقالوا في التظاهرة ضدنا بأنه أصبح عميلاً لسورية، وقف الرجل بشجاعة نادرة، وأعاد عرض البرنامج ورد على منتقديه بأنه مصر على كل ما قاله، وأنه سيزور سورية من جديد ليجري تحقيقاً أكثر طولاً وعمقاً، وبالفعل زار سورية، فاستقبل استقبالاً لائقاً، وعندما عاد.. أكد استنتاجاته السابقة، وأن جميع الحملات ضده، وضد سورية هي حملات كاذبة.

ضربت لك هذا المثل لأؤكد لك أن العمل، كسفير، لا يقل أهمية عن العمل كإعلامي، وأن الاثنين يمتزجان عندي، وأنني أفدت من دوري كإعلامي في عملي كسفير فنان في فن الكاريكاتير..

- **أعرف أنك تتقن رسم الكاريكاتير أيضاً- وأيضاً؟**

- هذا شيء نما عندما كنت في بداياتي.

- **هل ما زلت ترسمه؟**

- بقلة، لكنني رسمت رسوماً كاريكاتورية لشخصيات سورية بخاصة، نشرت في الصحف، وقتئذ، إن فن الكاريكاتور جزء من اهتمامي الفني ككل، لكنه يعبر عن مكامني وبواكيري.

- **أستطيع الآن، بعد هذا الحوار الجمل أن أحدد مساراتك. أسست مع المؤسس الإذاعة، وكنت من أوائل الذين عملوا فيها، وأسست بشكل أكيد**

وجديد التلفزيون السوري، واخترت له أسرته الأولى التي رفعت هذا المرفق الإعلامي الهام إلى مصاف المرافق الإعلامية الأهم، تقديراً منك للدور الذي سيشغله التلفزيون في حياتنا، فكنت مصيباً مئة بالمائة، واهتممت بالتصوير الفوتوغرافي، ولك فيه إنجازات مرئية لا تنتهي، حتى اليوم قل لي أرجوك: ماذا قلت في افتتاح تلفزيون دمشق؟

- قلت ما يجب أن يقال لمشاهدين يرون تلفزيونهم للمرة الأولى.

- **ماذا قلت تحديداً، لأن قولك هذا يعني الكثير لنا، بعد نصف قرن مضى، من يوم افتتاح التلفزيون في دمشق؟**

- قلت:

(سيداتي سادتي..

وأخيراً التقينا..

التقيتم بالتلفزيون العربي، هذا الصديق الجديد، الذي يدخل بيوتكم أول مرة، وكم كان الطريق إلى هذا اللقاء شاقاً ومضنياً، وكم سفح فيه من الوقت والجهد والتضحيات. لقد صنعت جمهوريتنا العظيمة في بضعة شهور ما تصنعه الدول عادة في خمس سنين، وكان لا بد لتحقيق المعجزة المذهلة أن يجعل كل من آزر في خلق هذا العمل غير العادي إيقاع حياته غير عادي.

المهندسون الذين سهروا الليالي الطويلة يعملون في الأجهزة الضخمة، ويرفعون الهوائيات العالية، ويصلون ما بين الأسلاك الدقيقة. المخرجون والفنانون والمحررون الذين بذلوا من أنفسهم الشيء الكثير ليهيئوا لكم برامج تزخر بالحياة وبالمتعة وبالثقافة..

العمال الذين شاركوا بسواعدهم القوية المؤمنة في إقامة الأبنية ورفع الأحمال الثقيلة، وفتح الطريق الوعرة بين المدينة وقمة قاسيون.

الموظفون الإداريون الذي كرسوا وقتهم لخدمة هذا العمل الكبير. كل هؤلاء نسوا أنفسهم في غمرة تحقيق المعجزة العظيمة.

كانوا جميعاً يستلهمون إيمانهم من إيمان قائدنا جمال عبد الناصر الذي علمنا كيف نجعل من الأحلام حقائق، ومن المستحيل لا مستحيل.

أما وزيرنا الشاب عبد القادر حاتم، فقد ذلل أمامنا الصعاب وبعث في نفوسنا روح الثقة والتفاؤل واحتمال المتاعب.

كان همنا الوحيد أن يدخل التلفزيون إلى بيوتكم في موعد مع العيد الثامن للثورة ليشيع المتعة الحلوة والثقافة الطيبة بين أفراد أسركم وجيرانكم، وأن يكون ثورة جديدة في حياة وطننا وحياة وحدتنا العظيمة، فما أجمل أن تدخل إلى بيوتكم من خلال الشاشة، أهلكم في جنوب الجمهورية، ما أجمل أن تدخلوا إلى بيوتهم لتنشروا فرحة وحباً في القاهرة وطنطا والإسكندرية.

إن التلفزيون هو الصديق الجديد الذي تحتفون به اليوم، إن له ما لأصدقائكم من مميزات كثيرة وهنات صغيرة.. فاغفروا هذه الهنات، فنحن في أول الطريق وسنبذل خير ما عندنا لنصل إلى خير ما ترتضون وإلى خير ما يدعم وحدتنا الكبرى، والسلام عليكم ورحمة الله..)

- **هذا القول يجب أن يعاد اليوم**

- كيف؟

- **يجب أن يقول التلفزيون هذا القول بعد حوالي نصف قرن من إنشائه، أعني يجب أن يعاد تأسيسه من جديد! ألم تؤسس السفارة السورية بعد إعادة العلاقات؟ وعلى هذا. يمكن ذلك وإذا كانت ظاهرة التأسيس الموجودة في آل القباني قد أعطتك موهبة تأسيس التلفزيون عام ١٩٦٠، فإن ظاهرة التأسيس يجب أن تتجدد مرة في كل نصف قرن، وخاصة في المرفق الإعلامي الهام: التلفزيون، حتى يبقى جاذباً ومؤثراً. المهم أن التلفزيون بحاجة إلى مؤسس جديد، ربما أنت من جديد.**

- حسبي أنني أسست التلفزيون، بملكة التأسيس الموجودة في الأسرة، كما تقول، وأترك لمؤسسين أن يفعلوا ما تقترحه، إن كان ذلك ضرورياً.

- حسبك هذا مفخرة لك، لكنك يجب أن تفتخر بأشياء كثيرة أخرى.

- مثل ماذا؟

- إنك أطلقت صوت عبد الحليم حافظ من دمشق، قبل أن يشتهر في مصر.

ملكة التأسيس..

كان عبد الحليم حافظ مطرباً من آل شبانه، خرج على استحياء في القاهرة، فتبنته دمشق في فتراتها الإذاعية في أوائل الخمسينات، وكان للدكتور صباح قباني فضل أنه ميز صوته الجديد، وأطلقه من إذاعة دمشق، بالإضافة إلى تعامله مع الموسيقار المتميز محمد عبد الوهاب الذي خص التلفزيون السوري بأول حديث له في التلفزيونات العربية والموهبة اللامعة فاتن حمامة التي جعلها لأول مرة تسجل للإذاعة السورية من ديوان الشعر العربي الجميل لمرة واحدة وحيدة، وحتى فايزة أحمد نالها من تشجيعه ما جعل صوتها فريداً في العالم العربي.

إن أيدي د. صباح قباني على الفن والفنانين في سورية، بيضاء ناصعة، لماذا؟ لأنه نشأ نشأة فنية متكاملة. اقترب من جميع الفنون، لامسها ومارسها، لكن ملكة التأسيس المرئية عند آل القباني كان لها سلطانها عليه، فلقد أسس التلفزيون السوري بما يشبه المعجزة، وقد وصفت الصحف المصرية إنشاءه بأنه معجزة، وهو، وحده، له الحق بنسبتها إليه، لأنه يملك ظاهرة التأسيس.

سبق لآل قباني أن أسسوا. أبو خليل القباني أسس مدرسة المسرح الغنائي في سورية، ونقله إلى مصر، والد الدكتور صباح الصناعي توفيق أسس صناعة الملبس في سورية. نزار قباني أسس المدرسة النزارية في الشعر. ود. صباح أسس التلفزيون السوري بإمكانات متواضعة وبتحديات واجهته، ليس أقلها أنهم "أخذوا غرفة صغيرة في محطة الإرسال في جبل قاسيون فجعلوها استديواً مؤقتاً" كما قال د. صباح في مجلة "الإذاعة والتلفزيون - القاهرية - العدد ٢١٧ تاريخ ١٩٨٥/٧/١٦" بمناسبة الاحتفال بالعيد الفضي للتلفزيون.

عمل مشترك مع نزار

- (وفي عام ١٩٩٥ قررنا - أنا وأخي المرحوم نزار - أن نقوم بعمل مشترك آخر، فعمدت إلى انتقاء كل ما كتبه نزار من شعر ونثر عن دمشق وكتب له مقدمة بخطه الرشيق تحت عنوان "دمشق.. مهرجان الماء والياسمين".

ويوم بعثت إليه بصورة فوتوغرافية كبيرة طلبها لإحدى صفحات الكتاب. التي تصور مجلس أبي في صحن الدار. كتب يقول:

لندن - تشرين الثاني "نوفمبر" ١٩٩٣.

يا صباح..

وصلتني لوحتك، فانتقيت لها إطاراً حسب مواصفاتك، ثم حملتها تحت إبطي كحمامة بيضاء ورمادية خوفاً من أن تطير مني، وتذهب إلى حديقة الهايدبارك.

لوحتك أجمل مقتنياتي يا صباح، فقد علقتها على الحائط المقابل للمكتب الذي أجلس عليه، حتى أطمئن أن تاريخي لا يزال بخير، وأن قهوة أبي لا تزال ساخنة، وأن المنقل لا يزال ممتلئاً بالحجر.

قليلة هي الصور التي تختصر عمراً جميلاً بكامله، حتى لأكاد أسمع في منزلي في لندن سعال أبي، وأتدفأ بطاقية الصوف التي كان يلبسها، وأشم رائحة الفانيليا المنبعثة من جسده الناصع، وبيجامته المخططة، وأعيد قراءة مقالات نجيب الريس في جريدة "القبس".

هل من الممكن أن تسجل الكاميرا هذا الحوار التاريخي بين الياسمين.. وطاحونة البن وركوة القهوة والجريدة، ونظارتي أبي اللتين لا تزالان تحملان في زجاجهما قطرات من فيروز عينيه؟

فشكراً يا صباح لأنك أهديتني طفولتي وشبابي، ونقلت تاريخي من مئذنة الشحم إلى شارع "سلون ستريت" في لندن.

بحب كبير.. نزار."

تاريخهما.. بخير

إن فن صباح لقادر على أن يسجل بالكاميرا أن المنقل ما يزال مملوءاً بالجمر وقهوة الوالد ما تزال ساخنة.. وأن تاريخ أخيه وتاريخه لا يزال بخير، فامض في هوايتك يا دكتور صباح، فإن لوحة واحدة تصورها اليوم هي تأسيس جديد لمعلم من معالم المستقبل في بلادنا؛ وفي دمشقك بخاصة.

محطات

- أسهم "صباح قباني" في تحرير وإنجاز نشرات سياحية تشيد بسورية، منها "أضواء سورية" التي تهدف إلى إنتاج موسوعة مصورة عن حياة وحضارة الشعوب في العالم العربي الإسلامي.
- صدر له "سفير جديد لقرن جديد" وهو نص المحاضرة التي ألقاها في ١٩٩٦/٩/٢٠ في مكتبة الأسد بدمشق، خلال المهرجان الثقافي الذي تناول موضوع "العروبة عند مشارف القرن الحادي والعشرين".
- أصر على الاستقالة من الوظيفة، ويمارس الآن هواياته بتؤدة.
- له بنتان، واحدة تعيش مع زوجها في باريس، والأخرى تعيش مع زوجها في لندن.
- متزوج من السيدة مها نعماني التي كانت خير عون له في أعماله المختلفة.
- له صداقات مع عدد كبير من الناس، ومن رفاقه الذين شاركوه في تأسيس التلفزيون عام ١٩٦٠.
- يملك الدكتور صباح أشرطة لأفعاله، منها: شريط لمحاورة أجراها معه الوزير الدكتور رياض نعسان آغا السفير والإعلامي سابقاً عن اليوبيل الفضي لذكرى تأسيس التلفزيون، وشريط لقاء الدكتور صباح مع الموسيقار محمد عبد الوهاب في ١٩٧٢/٢/٢١.
- رسم في جاكرتا، بالكاريكاتير "موشى دايان" عام ١٩٧٠ في لوحة سماها "التحول" وقد أعجب بها المستشرق الفرنسي الذي أسلم وأطلق على نفسه اسم "فانسان منصور مونتوي" واقترح أن تطبع بالآلاف وتوزع باسم جمعية الصداقة العربية الفرنسية التي كان يرأسها.

د. عفيف بهنسي

الرجل الموسوعي

تربطني بالدكتور عفيف بهنسي صلة، كنت أريدها وطيدة، لولا حادث فكه، له رابطة بعملي الصحافي، ففي أحد أيام الستينات، وكنت أعمل في جريدة "المضحك المبكي" الأسبوعية. اتصلت بي زوجة البهنسي الأولى (المرحومة هبة الوادي) وأعلمتني أن زوجها قد نال الدكتوراه في الفنون من باريس، فكتبت مقالاً. عنونته على طريقة الجريدة: " خسرنا معرضاً في الجزائر وربحنا دكتوراً في الفنون " مما أغضب المرحومة. ويعلم الله أنني لم أكتب المقال بهذا العنوان إلا لأن طريقة الكتابة في تلك الجريدة يفرضه طريفاً هكذا.

من الجمارك إلى الفن..

مضى أكثر من أربعين سنة على ذلك الحادث الفكه، وبقيت علاقتي بالدكتور البهنسي الدمشقي القح لا تشوبها شائبة، وكنت أرقب مسيرة الرجل خلال هذه الفترة فأراها ثرة، جديرة بالتسجيل، خاصة وأنه تقلد مناصب هامة في دمشق.

- **متى ولدت؟**

- عام ١٩٢٨، ولو أنني ولدت عام ١٩٢٧ لما ساقوني إلى العسكرية الإجبارية، التي أحببتها، ولقد طلبت أكثر من مرة، حتى صرت نقيباً في الاحتياط.

قلت له:

- **أعرفت أنك اشتغلت بالجمارك أول ما اشتغلت؟**

قال بسرعة:

- فترة قصيرة، لكنني كنت مولعاً بالأدب والفن، ولقد انتسبت إلى "معهد اللوفر" في باريس لدراسة تاريخ الفن، وفي الوقت نفسه كنت في معهد "أندريه لوت" الباريسي لممارسة الفن.

- **وقتئذٍ حصلت الحادثة الفكهة؟**

- لا.. بعد ذلك. كنت في باريس عندما رشحني الدكتور عبد الله عبد الدايم لأكون في عداد موظفي وزارة الثقافة التي تأسست بعد الوحدة بين مصر وسورية. وقد دعاني أول وزير للثقافة في الإقليم الشمالي (السوري) الأستاذ رياض المالكي للانضمام إلى الوزارة. فكان أن صرت مديراً للفنون فيها، وفي غضون ذلك حدثت.

- **من كان المدراء في وزارة الثقافة وقتئذٍ؟**

- كان الدكتور عبد الهادي هاشم مديراً للتراث. وكان الدكتور إبراهيم الكيلاني، مديراً للتأليف والترجمة، وكنت أنت والأستاذ زكريا تامر من بين موظفي هذه المديرية. ألا تتذكر هذه الفترة؟

- **نعم أتذكر ذلك تماماً.**

- وقتئذٍ قمنا بعمل هام جداً.

- **ما هو؟**

- كنت مقرراً للجنة الفنون التشكيلية في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.. أيضاً. وكان وزير الثقافة المركزي في عهد الوحدة الدكتور ثروت عكاشة، وقد ألف لجنة لإنشاء كلية للفنون الجميلة في سورية، من عضويتي، وعضوية الدكاترة والأساتذة: حسين فوزي، أحمد عاصم أستاذ فن النحت في مصر، عباس شهدي أستاذ مادة التصوير الهندسي، فأنشأناها أول الأمر في منطقة العفيف، من دوائر ثلاث: دائرة المعارض، ودائرة النصب والتماثيل، ودائرة الفنانين. وقد درّست في هذه الكلية منذ إنشائها عام ١٩٦٠ مادة تاريخ الفن وما أزال أدرّس فيها المادة نفسها حتى اليوم.

- **أهذا أهم حدث فني قمت به؟**

- من أهم الأحداث الفنية تأسيس مراكز الفنون في دمشق وحلب وحماة، وتأسيس مركز للفنون التطبيقية في دمشق. وهذه المراكز صيغت بشكل معاهد تعطي شهادات مقبولة في المنطقة.

ماذا نشرت؟

- **ما هي إنجازاتكم أيضاً في الفنون؟**

- من إنجازاتنا معرضا الربيع والخريف في سورية كل عام. وفي المعرض الأول اقتنينا كل الأعمال، بالإضافة إلى منح براءات وميداليات للفنانين..

- **يهمني أن أذكر في هذا اللقاء النتاج المنشور لك؟**

- منذ بدأت وحتى اليوم؟

- **نعم .**

- أظنني نشرت ما يزيد عن تسعين مؤلفاً في تاريخ الفن، وفي الفن والعمارة في العالم، وفي الخط والزخرفة وفلسفة الفن، ومنها ما هو باللغة العربية، ومنها ما ترجم إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية. وسأقدم لك ثبتاً بالمؤلفات كاملة، إنّ بلغتنا العربية أو باللغات الأخرى، في آخر هذا اللقاء.

- **ما هو أول كتاب لك؟**

- كتابي الأول عن "تاريخ الفن"، وقد وضعته في زمن الوحدة، أي قبل حوالي خمس وأربعين سنة. وقد قرر تدريسه في كل من القاهرة ودمشق. طورت هذا الكتاب فأصبح عنوانه "تاريخ الفن والعمارة في العالم" وأعيد طبعه ٩ مرات، بدأت عام ١٩٦٣.. وحتى اليوم.

- **والكتب الأخرى؟**

- كلها عن الفن والعمارة وفلسفة الفن والزخرفة، وجميعها ترجم.. ويسعدني أنها طبعت خارج سورية طباعة فاخرة متقدمة.

- **ما هي دور النشر الأجنبية التي طبعتها؟**

- فلاماريون الفرنسية، هابشيت الإنكليزية، لايبزغ الألمانية، كما نشرت بعضها دور نشر إيطالية، وعربية.

- **ما هي دور النشر العربية؟**

- دار طلاس، دار الفكر، وزارة الثقافة، دار الشرق.

الفن يستلهم الشرق..

- **ما هو المضمون الذي اعتمدته في هذا الكم الهائل من التأليف؟**

قال وهو يقدم لي ثبتاً بمؤلفاته بالعربية وباللغات الأخرى:

- كانت عندي ثوابت محددة. أولاها التعريف بالفن ومصطلحاته كما يراها الأجانب. ثانيها إبراز جمالية الفن العربي: جمالية التصوير والزخرفة والعمارة، ثالثها التعريف بمدارس الفن الحديثة في الغرب، ومثيلاتها في البلاد العربية. ومن أجل هذا الهدف عمدت إلى إصدار معاجم خاصة بالعمارة وبالفن وبالخط، كما أصدرت موسوعات عديدة، منها موسوعة "التراث المعماري"، في مجلدين اثنين، وموسوعة "تاريخ الفن والعمارة" في مجلدين أيضاً، وموسوعة "سورية التاريخ والحضارة" في ٨ مجلدات.

قلت له:

- **هذا ما يخص الفن لكن أليس لك كتب أخرى تتناول فيها موضوعات مختلفة؟**

قال:

- لي طبعاً..

- **مثل ماذا؟**

- عندي كتاب عن دمشق الشام، ترجم إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية، بل إن عندي كتيبات عن دمشق وحلب وعن "الجامع الأموي" باللغات

الأخرى. وأهم هذه الكتب كتاب عن سورية باسم "حضارة سورية" صدر بأربع لغات العربية والفرنسية والإنكليزية والألمانية.

- **ما هو آخر كتبك؟**

- آخر كتاب بعنوان "الفن الحديث يستلهم الشرق".

اليونسكو كلفتني..

قلت:

- **أهذه هي مؤلفاتك كلها؟**

قال مبتسماً:

- لا ما ذكرته بعضها فقط..

قلت:

- **قل ماذا نسيت؟ ألا تعتبر الأغزر إنتاجاً لا في سورية، بل في العالم**

قال وهو يبتسم:

- ربما، كلفتني اليونسكو بكتابة أيضاً.

سألت:

- **عن ماذا كلفتك اليونسكو؟**

قال:

- كلفتني اليونسكو بإنجاز أربعة كتب بصفتي خبيراً.

- **وما هي موضوعاتها؟**

- كتاب "جامع صنعاء الكبير" ذهبت إلى اليمن، وكتبت عن جامعها وقد قلدتني حكومة اليمن وساماً وكرمتني. وكتاب "الفن الحديث في البلاد العربية" ثم كتاب "الفن الحديث في سورية" وكتاب رابع حول "الفن الإسلامي".

قلت مستدركاً:

- لا بد أنك سافرت كثيراً؟

قال:

- سافرت كثيراً، وحاضرت في جامعات عديدة، من أستراليا إلى الولايات المتحدة. في ٣٥ جامعة تدرس كتبي، ومنها جامعات عربية بالطبع. وقد منحت حتى الآن ١٣ وساماً بدرجة "قائد" وأحياناً بدرجة "فارس" تقديراً لجهودي في عالم الفن.

شاعر أيضاً..

سألت:

- كل هذا رائع وجميل، لكنه يصب في خانة التأليف، التنظير والبحث عن الجمال- ألم تكن أنت فاعلاً في فرع أو أكثر من فروع الفن العديدة؟ أعرف أنك بدأت الكتابة معنا في "النقاد" السورية وفي "الآداب" اللبنانية منذ خمسين سنة مضت؟

قال مبتسماً:

- بدأت أكتب القصة، ولي صديق بدأت معه كتابة القصة..

قاطعته:

- أعرفه إنه مطاع صفدي. إنه صديقنا أيضاً، وهو مقيم في بيروت الآن رئيساً لتحرير إحدى المجلات.

- نعم إنه هو. لقد نشرت عدداً من القصص. كانت تتلبسني حالة فنية، وكنت أحاول تفريغها، إنّ بالقصة أو بالفن أو حتى بالشعر..

سألت:

- أشاعر أنت أيضاً؟

قال:

- عندي ثلاث مجموعات شعرية، مطبوعة.

وقدم لي ثلاث مجموعات من الشعر الموزون المقفى، مطبوعة. فيها قصائد عدة، ومرسومة برسوم رسمها هو نفسه، ولكل قصيدة رسم خاص.

أضاف:

- هذه هي مجموعاتي الشعرية الثلاث المطبوعة في ثمانينات القرن الماضي.

سماها دواوين: الديوان الأول بعنوان "أبيات على صفحات الجبين"، والثاني "أناشيد للوطن"، والثالث: "أغنيات حالمة" وفي الأخير قصيدة "الجوكندة " ومطلعها:

أسطورة مؤطرة.. في متحف الفن الشهير

جعلتها قصيدة في دفتر الشعر الكبير

وقدمها إلي هدية منه.

دعوة لم يلبها..

في عام ١٩٦٤ دعت جمعية الصداقة السورية - السوفيتية التي تأسست حديثاً وقتئذٍ، لزيارة الاتحاد السوفييتي، الدكتورين غسان الرفاعي وعفيف بهنسي، وأنا، لكن البهنسي لم يلب الدعوة، لأنه كان منشغلاً بأمر هام هو انتقاله إلى مرفق الفن، فحل محله مروان شاهين بوصفه رساماً، وسافرنا، لكنه لم يسافر !

- **لماذا لم تلب الدعوة وقتئذٍ؟**

- لا أتذكر هذه الحادثة قط.

- **يقال إنك خشيت من اتهامك بالشيوعية؟**

- كلا. قلت لك إنني لا أتذكر هذه الدعوة قط.

إنه لا يتذكرها.. من ذا يحاسب الذاكرة؟ وحتى لو أنه تذكر.. إنه لم يسافر.

ارتقى عفيف بهنسي الذي صدمه الانفصال، بعد الوحدة الاندماجية بين سورية ومصر التي دامت عدة سنوات برئاسة جمال عبد الناصر (من شباط ١٩٥٨ حتى أيلول ١٩٦١) من مرفق الفن إلى مرفق أكثر أهمية، فتبوأ منصب المدير العام للآثار والمتاحف، في رحلة من مراحل تاريخه المملوء بالعمل. وجد أنه يحب بلاده أكثر مما كان يتصور عن طريق حبه لآثار بلاده، فأعطاها موهبته، بل حياته.

قلت له:

- أثيرت ضجة حول الآثار. هل هربت آثار سورية في عهدك؟

قال مستنكراً:

- مطلقاً. القصة أننا أقمنا معرضاً لآثارنا في اليابان، طاف على ثماني مدن يابانية. وما جرى أن بعض الصحف كتب أن بعض القطع قد استبدل، لكن هذا ليس صحيحاً. هل تدري أننا أمنا على قطع المعرض لدى شركة تأمين بمبلغ ١٠٠ مليون دولار؟

وجودي فاعل..

وأضاف:

- قصة تهريب الآثار مختلفة، وآثارنا لم تسرق أو تهرب، والمعرض المتجول طاف العالم من أقصاه إلى أقصاه خلال ١٠ سنوات. من أمريكا إلى فرنسا وإيطاليا والنمسا، تنقل المعرض وشاهده الناس، واستدلوا منه على حضارة عريقة، هي في الواقع حضارة سورية.

وقال متفاخراً، ومعه حق:

- في ميدان الآثار كانت لي جولات. في عهدي اكتشفت رقم إيبلا. استغل الصهاينة القضية، لأن الرقم المكتشفة تظهر زيفهم وكذبهم..

- هل رددتم على هذا الزيف؟

- طبعاً. ألقيت محاضرة في جامعة روما فندت فيها المزاعم الصهيونية، وحضر المحاضرة رهط من كبار علماء الآثار لا في إيطاليا فقط، بل في العالم. الرقم المكتشفة تظهر بشكل واضح أن الصهيونية زورت التاريخ لتستفيد، لكن المكتشف فضح أكاذيبها.

- هل تعني أن وجودك في الآثار كان فاعلاً؟

- كان فاعلاً. لم يكن هادئاً. لقد قمت بحملة عالمية لإنقاذ آثار نهر الفرات ومنطقته. ونجحت.

- **ماذا فعلت أيضاً؟**

- أشياء كثيرة. افتتحنا متحف إدلب الخاص برقم إيبلا، وهو من المتاحف الهامة في العالم كله، لأن فيه خميرة تاريخ العالم.

- **كل ما فعلته بسبب حبك لآثار بلدك؟**

- ما فعلته في كل شيء، في الفن وفي الآثار، بسبب حبي لوطني. وقد نلت الجائزة الأولى من المنظمة الإسلامية عن كتابي "الفن الإسلامي" وكرمت من قبل وزارة الثقافة في سورية ومن قبل وزارة الثقافة في الشارقة، ومن قبل الأتراك، ومن قبل من اليمن.

المسكية..

كان ثمة شيء يطوف حول لساني، وكنت متردداً في سؤال الدكتور عفيف بهنسي عنه. لقد راجت شائعات، عندما كان مديراً عاماً للآثار والمتاحف أنه أتى على قسم من منطقة "المسكية" الواقعة في الجزء الغربي من الجامع الأموي. كانت هذه المنطقة مكتظة بمحال تبيع الكتب المدرسية وسواها، وفي أحد الأيام أزيلت عن بكرة أبيها، وقيل وقتئذ أن مدير عام الآثار والمتاحف سئل عن ذلك فأفتى بإزالتها. أخيراً تجرأت وسألت، وأردت الجواب في الحال:

قال مستنكراً:

- أنا؟ كلا. هذا قرار رئاسي. لكنني ساهمت في إزالة حوانيت صنع القباقيب التي كانت لصق المسجد الأموي من جهة الجنوب، وبذلك كشفنا عن جدار المسجد الجميل الذي كان مغطى بالحوانيت.

كان واضحاً أنه لشدة حبه لبلده لا يترك دقيقة واحدة تمضي دون أن يفعل. في أي مركز وجد فيه كان يعمل، سواءً في الفن أو في الآثار، وها هو قد بلغ السابعة والسبعين وما زال يعمل، يعطي ويعطي. إنه دمشقي محب لبلده حتى النخاع، ولأنني أحب دمشق مثله، ضننت بهذا الحوار ألا يظهر في الكتاب المحتفل بدمشق.

المؤلفات..

كان ثبت مؤلفاته ضخماً. ثلاثة وسبعون كتاباً بالعربية. تكلف كثيراً، كلفت كثيراً لأنها مطبوعة بإتقان، ومزينة بالصور الملونة.

- ما هي هذه المؤلفات حسب تسلسل طباعتها؟

- هذه هي كتبي الفنية المنشورة باللغة العربية:

١- الفنون التشكيلية في سورية

٢- الفن عبر التاريخ

٣- قضايا الفن

٤- مايكل انجلو

٥- اتجاهات الفنون التشكيلية المعاصرة

٦- رامبرانت

٧- الفن الحديث في سورية

٨- الفن والقومية

٩- تاريخ الفن في العالم

١٠- الفن الإسلامي

١١- أثر العرب في الفن الحديث

١٢- علم الجمال عند أبي حيان التوحيدي

١٣- الفن والثورة

١٤- الأسس النظرية للفن العربي

١٥- جمالية الفن العربي

١٦- الفن الحديث في البلاد العربية

١٧- الشام - لمحات فنية وآثارية

١٨- معجم مصطلحات الفنون (ثلاثي الأبعاد)

١٩- دمشق الشام

٢٠- الفنون القديمة

٢١- الفن في أوربا

٢٢- الفن والاستشراق

٢٣- الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه
٢٤- الخط العربي
٢٥- وثائق إيبلا
٢٦- رواد الفن في البلاد العربية
٢٧- الفن الإسلامي
٢٨- الثورة الثقافية العربية
٢٩- الشام الحضارة
٣٠- العمارة عبر التاريخ
٣٤- العمارة العربية - الجمالية - الوحدة والتنوع
٣٥- دمشق الشام (٣ لغات)
٣٦- القصور الأموية
٣٧- الفن الإسلامي بالاشتراك مع ميكل روجرز (٣ لغات) ونورهان أتاسوي (٤ لغات)
٣٨- معجم العمارة والفن (إنكليزي)
٣٩- معجم العمارة والفن (فرنسي)
٤- معجم الخط والخطاطين
٤١- العمارة والمستقبل
٤٢- العمارة والمعاصرة
٤٣- الفكر الجمالي عند التوحيدي
٤٤- الجامع الكبير بصنعاء
٤٥- عمران الفيحاء
٤٦- من الحداثة إلى ما بعد الحداثة
٤٧- الفن العربي بين الهوية والتبعية
٤٨- العمران الثقافي
٤٩- النقد الفني وقراءة الصورة
٥٠- الجمالية الإسلامية في الفن الحديث
٥١- الألواح الخزفية
٥٢- جمالية الزخرفة العربية
٥٣- شمال جنوب - حوار في الفن الإسلامي

٥٤- تطوير العمارة الإسلامية
٥٥- تطوير منهاج تدريس العمارة
٥٦- سورية - التاريخ والحضارة
٥٧- سورية - دمشق وريفها
٥٨- سورية - المنطقة الوسطى
٥٩- سورية - المنطقة الشمالية
٦٠- سورية - المنطقة الساحلية
٦١- سورية - الجزيرة والفرات
٦٢- سورية - البادية وتدمر
٦٣- سورية - المنطقة الجنوبية
٦٤- خطاب الأصالة في الفن والعمارة
٦٥- علم الجمال
٦٦- علم المتاحف والمعارض
٦٧- علم الخط والرسوم
٦٨- الثقافة بين العالمية والعولمة
٦٩- موسوعة التراث المعماري
٧٠- موسوعة تاريخ الفن والعمارة

هذا غير الكتب التي صدرت باللغات الأخرى، وطبعت في تونس أو باريس أو لايبزغ أو دمشق أو فيرَونا، منذ عام ١٩٨١ في القرن الماضي، إلى عام ٢٠٠٣ في القرن الجديد.

- أنت رجل موسوعي يا دكتور عفيف؟

ابتسم. إنه يفكر بالمزيد من الكتب ما يزال. وأمامه في غرفة الضيوف في شقته في حي "الروضة" خزانة كتب من الخشب بواجهة من البللور، وقد رصفت فيها كتبه، واحداً بعد الآخر كأنها أولاده تماماً. إن عنده زوجة محبة، وأولاداً سعداء بأبيهم وهو سعيد بهم جداً، وزوجته الثانية (من أسرة الجزائري) هي الأم، إن هذه الكتب هي.. أولاده، أيضاً..

اللهم زد وبارك..

مؤلفاته باللغات الأخرى

Damas Al Sham

Damascus

En Syria

Der Alte Syrien und Seine Kunst

The Ancient Syria and its Arts

La Syrie Ancienne et son art

Guide to Syria

Ebla Archaives

The Great Omayyad Mosqe of Damascus

The Syria of culture

L,art plastique Moderne en Syria

La Grand Mosquee de Damas

L,art Moderne dans les payees Arabes

Art of Islam

L,Art De L,islam

Damas

Damascus

Alep

Aleppo

The Mosque of Damascus

Syria

Interlocution in islamie Art

L,art moderne a mi-chemin

Damascus – Capital of Umayyed dynestie

ناظم الجعفري

٩٠ سنة من الفن والكبرياء

بين حين وآخر، كنت ألقاه في الطريق وأحييه، وكان يحمل أقلاماً، وتحت إبطه أوراقاً، وكان على الأوراق رسوم دمشقية، سقاطات أبواب، ومعالم، وحارات قديمة، وأجزاء من مواقع ووجوه. كان مرسماً متجولاً الفنان ناظم الجعفري وما يزال: إنه يذهب في الصباح ولا يعود إلا في المساء، حاملاً زوادة من الرسوم، يضيفها إلى الكنز المرسوم. لقد مسح دمشق التي أحبها. وعنده ما يزيد عن خمسة آلاف صورة مرسومة بالزيت أو بالباستيل أو بالقلم، تؤرخ لدمشق، غير أنه بين معرض ومعرض مرت ثلاث وخمسون سنة، رسم كل هذا الكم عن دمشق ولم يعرضه.

- دمشق الأجداد..

قال كلمتين وشمخ برأسه بكبرياء.

سألته:

- **لماذا دمشق الأجداد؟**

قال:

- لأنها أيام الأجداد كانت مدينة عظيمة، نظيفة، تعبر عن حقيقتها كأقدم مدينة مأهولة في العالم، وأنا أرسم دمشق أجدادي.

- **ولماذا هاجس رسمها؟**

- أنا أحب دمشق، لأنها مدينتي أولاً، ولأنها، صدقني، من أجمل مدن الدنيا ثانياً. لقد زرت عدداً كبيراً من المدن في العالم، لكنني لم أر قط أجمل من دمشق، بمعالمها وأسواقها وحاراتها ووجوهها.

- **أأنت من مواليد دمشق إذاً؟**

- من مواليدها وسكانها. أعرف أنك تريد أن تسألني عن تاريخ مولدي. أنا ولدت عام ١٩١٨، وتحديداً في ١٧ تشرين الأول في حي الدقاقين بالعمارة.

الانطباعية؟!

سألت: **يتهمك بعض الفنانين والنقاد بأنك لا تعترف بالمدارس الفنية أنت انطباعي، لكنك لا تعترف بذلك**

قال:

- اليهود خلقوا هذه المدارس. إنهم لا يعرفون الرسم، المسيحيون هم أوجدوا هذا الفن، وللمسيحيين فيه نتاجات عظيمة.

قلت له:

- **أوضح يا أستاذ ناظم؟**

قال:

- مدارس الفن أن تحب هذه الصورة أو لا تحبها، والعمل الفني يقبل على تذوقه المتعلم والجاهل. المتعلم يجب أن يتذوقه ويتعرف على مميزاته، وإن وجد أخطاء دلّ عليها، والجاهل إما يحب دونما شرح أو لا يحب دونما شرح أيضاً، أما تقسيم الفن إلى مدارس فهذا ما لا أؤمن به، شخصياً، ولا أعترف به.

قلت له:

- **يقولون إنك استفدت من الانطباعية الفرنسية في فن الرسم؟**

قال وهو يبتسم:

- هذا كلام فارغ لا أعترف به. اللوحة لوحتان، إما فيها ضربة معلم وإما ساقطة فنياً، لا توسط بين فنان ناجح وآخر فاشل. أنا فنان ناجح.

سألته:

- **ولكن كيف صرت فناناً ناجحاً؟**

- بالدأب اليومي. الرسم رفيقي الوحيد، ولا أعرف سواه.

- **ما هي بداياتك؟ كيف كانت مع الرسم؟**

- قصة طويلة..

- **قصها عليّ**

- عشت طفولتيْ في بيت واحد مع أمي وأبي وعمي وزوجه وأولاده. كان الفارق بين الأب والعم فارقاً كبيراً. عمي طبيب وأبي إنسان كادح..

- **وما دخل الآباء والأعمام في مسألة الفن؟**

- إنني أحكي لك القصة. كان أبي وكيل أعمال عمي، وكان في بيتنا صورتان للوالد والعم. اخترت صورة عمي ورسمتها بيدي بالفحم، وذهبت إلى عيادته، وأعطيتها للممرضة اليهودية، فأرتها لعمي الذي انبهر بها، وطلب إليها أن تحملها إلى بيته (وكنا انفصلنا عنه في بيت في القزازين)، فحملتها وأعطتها إلى زوجه، امرأة عمي، التي ما إن رأتها، حتى صرخت بأميتها:

ليش هيك شحر عمه؟

عندما علمت، استرجعت اللوحة ومزقتها، ووصلتي الدرس بألا أقرب المال قط في حياتي، وأن أسهر على فني فقط، علماً بأنني لم أرسمها من أجل المال.

- **بدأت الفن هواية إذاً؟**

- هواية ملكت عليّ عقلي وحواسي وحياتي، فقررت أن أسافر وأدرس.

- **مع أنك لا تملك المال؟**

- بدأت أجمع المال من عملي الفني.

- **كيف؟**

- تخصصت في رسم الواجهات وكتابة "آرمات" المحال، وكان أول عمل رسمت واجهته هو للسيد المرحوم عبد اللطيف اسديه، ورأى جمال ما رسمت كثيرون. منهم زين إخوان، فكلفوني برسم واجهات محالهم. ثم

تطور عملي فصرت أعدّ الإعلانات وأرسم الكتب المدرسية، حتى جمعت ما مكنني من أن أسافر إلى القاهرة وأدرس فن الرسم دراسة أكاديمية في كلية الفنون هناك. لم أكن أدخن ولا أشرب ولا أبذر، لهذا جمعت المال وبرزت كفنان مهم.

- **متى التحقت بكلية الفنون في القاهرة؟**
- أمضيت أربع سنوات، من عام ١٩٤٣ م حتى عام ١٩٤٧ م.
- **من كان أساتذتك؟**
- يوسف كامل، وكان رئيس قسم التصوير الزيتي. وأحمد صبري رئيس قسم الهواه الذين يدرسون ولا يأخذون شهادات، اسمع يا أخي عادل. لا نجاح إلا بالدراسة والتخصص، لهذا عدت من القاهرة متسلحاً بهوايتي وبدراستي الأكاديمية، ولهذا نجحت.

أختي كانت موديلي..

كنت أجري هذا الحوار في المتحف الوطني أمام لوحاته المعروضة في المعرض الذي أقامه بعد ٥٣ سنة من الصمت والبعد عن المعارض في دمشق وغيرها.

سألته:

- **لماذا هذا الصمت والانطواء؟**

قال:

- لست صامتاً، متقاعداً، لن أعرض لكنني ما أزال أنتج باستمرار. رسمت حوالي ٥٠٠٠ رسم لدمشق الأجداد. وكيف كانت بياسمينها ونظافتها. اللوحة عندي أهم من كل شيء.
- **يقال إنك دعيت إلى إقامة معارض، رفضت المشاركة فيها على مدى نصف قرن؟**
- أجل رفضت.
- **لماذا؟**

- لعلمي بأن لوحاتي ستعرض إلى جانب لوحات فاشلين. هذا يسيء إلي كفنان..
- **هؤلاء أيضاً يسمون فنانين؟**
- المحك هو أن يرسم الفنان موديلاً حياً بمباشرة. من ذا يستطيع ذلك، وأن يجسد حياة الموديل سواي؟ هذا دليل على أن الدنيا مملوءة بـ "الفنانين" الفاشلين الذين لا يسمون فنانين.
- **على ذكر الموديلات الحية من هو أو من هي موديلك الحي الآن؟**
- ليس الآن، في الماضي، كانت المرحومة أختي موديلي.
- **أختك المرحومة تلك؟**
- نعم، عندما رجعت من القاهرة. حاملاً فني وشهادتي لم أجد من أصوره. كانت موانع عديدة: تمنعني من أن أستخدم موديلاً. ولأن المجتمع الدمشقي محافظ. وكان قلة يدركون أهمية الرسم، لهذا جعلت أختي ملك موديلاً ورسمتها، أنا الذي ربيتها وأنفقت عليها بعد وفاة والدي.

نبوءة الوحدة..

كنت قبل حوالي خمسين سنة قد رأيت رسماً ضخماً لناظم الجعفري بارتفاع ٢،٢٠م وعرض ١،٧٠ م، فيه صورة جندي سوري بالحجم الطبيعي، وهو يصافح جندياً مصرياً بالحجم الطبيعي نفسه وهما يتصافحان، وبينهما أخته كأنها أمهما، وفوقهما العلمان المصري والسوري والخلفية أعداد من الشعبين السوري والمصري وهي فرحة بقيام وحدة القطرين.

- رسمتها وعرضتها عام ١٩٥٦ أي قبل الوحدة بسنتين. فكنت كمن يتنبأ بقيام الوحدة، وهكذا حققت بالرسم الوحدة.
- **واستخدمت أختك كموديل في هذه اللوحة؟**
- في هذه اللوحة وفي لوحات كثيرة غيرها، حتى أن لي حوالي ٥٣ صورة لأختي، موديلي، بينهما ٤ أو ٥ لوحات لها بالحجم الطبيعي.

كان زائرو المتحف وزائراته يدخلونه، وأنا جالس إلى الفنان ناظم الجعفري أجري هذه المقابلة، وقد سأله بعض هؤلاء عن ثمن لوحة صغيرة معلقة أمامنا. فقال الجعفري:

- ثمنها خمسة وعشرون ألف ليرة سورية..

سألته:

- **هل بيعت لوحاتك أو قسم منها؟**

قال:

- يقال إن سيادة الوزير محمود السيد سيشتري بعض لوحات هذا المعرض لوزارة الثقافة، والمعرض مستمر حتى يوم غدٍ (٧ أيار ٢٠٠٥).

سألته:

- **هل تبيع لوحاتك بعيداً عن المعارض، ما دمت لا تقيم معارض ولا تشترك فيها؟**

قال:

- أبيع أحياناً، لكن المال ليس بأهمية الفن.

صمتّ قليلاً قبل أن أتجرأ وأسأل:

- **كيف تعيش إذاً؟**

قال مبتسماً:

- لا ينساني الله. بالسترة أعيش.

ولم يزد بحرف واحد. لوحاته بأحجامها المختلفة، الصغيرة والكبيرة، لا بد وأنها تباع، بقليل أو كثير، وربما يعيش الفنان من دخله منها على الرغم من غلاء أثمانها. قلت لنفسي: "هذه مسألة خاصة، على أية حال، ويجب ألا أخوض فيها".

يؤمن ناظم الجعفري بعدم قدرة الفنانين الآخرين، السوريين بالطبع، على مجاراته في الرسم، ويؤمن بأنه ليس ثمة مثل لوحاته في تاريخ الفن. إن لوحة لناظم الجعفري لا يستطيع أن يرسمها إلا ناظم الجعفري نفسه، لكن المشاهد أن فنانين كثيرين يبيعون لوحاتهم.

- **هم يبيعون لوحاتهم؟**

أعدت السؤال مرة أخرى، حتى أجد حلاً مناسباً لهاجس ركبني وهو، كيف يعيش الفنان، إن لم يبع نتاجه؟

قال وهو يحدق إلي:

- لو بعت لوحاتي لكنت الآن واحداً من أغنى أغنياء العالم.

قلت:

- **إذا لم تبع، يعني أنك تنفق دونما مردود؟ وهذا.**

قال مقاطعاً:

- قلت لك إنني أعيش أنا وزوجتي بالسترة. إنني أبيع بعض لوحاتي، ولكن بالأثمان التي أفترض أنها تكافئ خبرتي وجهدي. إن أثمان لوحاتي مرتفعة.. لقد بعت منذ مدة عدة لوحات بملايين الليرات السورية..

شعرت بالاطمئنان، لكنه أكمل:

- لم أكن أريد البيع، هذا مبدأ كنت لا أحيد عنه. كنت أريد أن تعرض لوحاتي جميعاً في متحف خاص بي وبأسمي. انتظرت طويلاً شخصاً ما يبني متحفاً يضم لوحاتي. ويكون دخل المعرض موزعاً بيني وبينه بنسب متساوية، لكنني لم أعثر على هذا الشخص. هل تعلم بأنني أسكن في بيت مستأجر، حتى اليوم؟

- **مع من تسكن؟**

- مع زوجتي.

- **أليس لديكما أبناء؟**

- لدينا ولدان واحد يحمل ماجستيراً من أمريكا، ويعمل مدير محاسبة في إحدى الشركات، والآخر مهندس معماري.

- **تعيش الآن مع زوجك وفنك ولوحاتك؟**

- أجل مع زوجي التي تفهمني جيداً وتتجاوب معي، ومع فني الذي هو كل حياتي..

- لك مزاج خاص، فكيف وجدت شريكة حياتك؟

وضحك لهذا السؤال، وقال:

- كنت أعطي ساعات في مركز الفنون..

سألت مستفهماً:

- مركز الفنون التشكيلية؟

قال بما يشبه الاحتجاج:

- احذف هذه الكلمة "التشكيلية" حسبك أن تقول مركز الفنون. وأكمل القصة:

- في يوم من الأيام، وأنا في مركز الفنون جاءت زوجي بابنة أخيها وكانت في الثامنة من عمرها، وأرتني رسماً للصغيرة مأخوذاً عن غلاف مجلة "الجندي". أثارت الرسمة إعجابي لأن الصغيرة ضبطت النسب فيها. اعلم يا سيدي أن ضبط النسب هو أساس في فن التصوير. طلبت أن أرعى الصغيرة، وأعلمها دون ذكر اسمها وعمرها. فتم ذلك. وكان في المركز السيدة سليمى جمعة، وهي زوجة رئيس جمهورية الأرجنتين فيما بعد، التي خاطبت زوجي (قبل أن تصبح زوجي) بكلمة: "مدام" فانتفضت وقالت: "لا لست مدام" عندئذٍ تنبهت إلى أن هذه السيدة قد تصبح زوجتي. فقررت بيني وبين نفسي أن أعرض عليها الزواج، ولكن بعد أن أكلمها عن مبادئي. ولما كلمتها عنها وكيف أنني صادق مع مفسي ومع الآخرين، وإن الرسم حياتي، وجدتها قد استوعبت كل ذلك. وفي يوم من الأيام كنا أمام لوحة لي تمثل شجرة جوز وكانت أم الصغيرة وعمتها، أي زوجة المستقبل، فسألتا: عما تمثل الشجرة فقلت: "شجرة الجوز هي أنا. وعندما ينبت الورق فيها ستغطي السماء" فقالت أم الصبية مقترحة: "لو أنك تعطينا يدك بالليل وتبقيها لنفسك في النهار" فإذا بزوجة المستقبل تصرخ: "لا.. لا" عندئذٍ أدركت تجاوبها معي، وخلال خمسة عشر يوماً تزوجتها، وعاشت إلى جانبي كل هذه المدة الطويلة، تفهمني، وتشد من أزري، وتؤمن بي.

قلت:

- **يخيل إلي أنك تقف إلى جانب المرأة، على ضوء تجربتك مع زوجك؟**

قال:

- ركزت على المرأة في فني، لأنني شعرت أن المرأة في بلادنا مظلومة، ولقد قمت بواجبي تجاه هذه القضية خير قيام.

سألت:

- **ما هي خصوصية رسوماتك؟**

قال:

- عندما أضع ألواني وأمزجها.. أصل إلى إيقاعات لونية جديدة كل الجدة، لا تجدها في لوحات الآخرين.. ولا يستطيعون مزجها كما أفعل..

قلت:

- **يتهمونك بأن هذه الإيقاعات متأثرة بالتجارب التي أجراها ويجريها رواد المدرسة الانطباعية أو التعبيرية في العالم**

قال:

- لا أعترف بالمدارس. قلت لك وأعيده الآن أمامك وأمام جميع الذين حاوروني. أؤمن بأن العمل الجيد يفرض نفسه على الجميع. سواء أكانوا عاديين أو مختصين.

سألته:

- **والتجريد؟ ألا تعرفه؟ ألم تجرب فيه؟**

قال:

- في رأيي لا يوجد تجريد. هناك من يختبئ وراء مثل هذه التسميات. المحك الحقيقي أن يرسم الفنان أحاسيسه، ويحب الناس ما رسم، بعيداً عن التسميات.

تاريخ مدينة

اعتبر الفنان ناظم الجعفري من الرواد الذين خلقوا فن الرسم الجميل وتمسكوا به واستمروا فيه مدة طويلة، قد تصل إلى ستين سنة، وهو مستمر في العمل، يرسم متى وجد إلى ذلك سبيلاً، وتستهويه مواضيع من مدينته، القديمة بخاصة، فهو لم يترك باباً دمشقياً قديماً إلا ورسمه، ولم يشاهد سقاطة على باب إلا وأثبتها برسم ضمه إلى ما يزيد عن ستة آلاف لوحة.. وهو معجب بنفسه وبفنه، حتى أن بعض النقاد اتهمه بالفانتازيا أو بالطرافة أو بالغرابة، ومنهم من وصفه بالمهلوس، ومحب الخلود، وبالنرجسية والمزاجية، لكن كل هذه التهم لم تفت في عضده، ولم تجره إلى تنازلات، يعرف أنها تريد تحطيم إرادته وثقته بنفسه وبفنه. إنه ماض في مسيرته الفنية بالشكل الذي أراده، وأمنيته الوحيدة أن يقام متحف خاص بلوحاته التي هي خلاصة تاريخ مدينة.

إنه يعيش لفنه بأصالة وكبرياء، وقد تتفق معه في الرأي وقد تختلف، ولكنك لا تستطيع إلا أن تحترمه لا لالتزامه بفنه فقط، بل لأنه ذو ثوابت فنية راسخة رسو جبل قاسيون في دمشق أيضاً.

❖ ❖ ❖

وقبل أن أودعه، ذهبت إلى منضدة مقامة في طرف معرضه الذي مدد أياماً، ورحت أرى إلى صور للوحاته، أو لبعضها، فانتقيت عدداً ودفعت فيها مبلغاً متواضعاً. كان يهمني أن أحتفظ بشيء من نتاج هذا الفنان، وحتى لو لم يكن لوحة أصلية بسبب غلاء ثمنها، فلوحات مطبوعة على ورق، تباع على هامش المعرض.

لقد أتيح لي وأنا فوق السبعين أن أشهد معرضاً لهذا الفنان الكبير بعد أكثر من خمسين سنة على آخر معرض أقامه. من يدري كم سيمضي ليقام له معرض دمشقي جديد؟

محطات في سيرة الفنان

- كان لناظم الجعفري أخ فيلسوف، أصغر منه، هو المرحوم "خير الله الجعفري"، وكانت له مجلة يصدرها بدون مواعيد ثابتة، وكان مؤمناً بفن أخيه كل الإيمان.
- كانت المرحومة ملك الجعفري مؤمنة بفن أخيها، ولقد ضحت في سبيل إيمانها هذا بكل الاعتبارات، ونذرت نفسها موديلاً له، في وقت لم تكن عادة وقوف الموديلات أمام الرسامين أمراً مستساغاً في دمشق.
- بدا الفنان متلهفاً إلى استملاك بيته وجعله متحفاً خاصاً بنتاجه.
- لا يمكن أن ترى فناننا الكبير إلا ويحمل لوحة قد فرغ من رسمها لتوه، ليضمها إلى مجموعته الأثيرة، أو لوحة بيضاء مجهزة لترسم.
- لم يشترك بأي معرض جماعي في دمشق أو غيرها، وأقام عدة معارض في بداية حياته خاصة به وحده.
- على الرغم من أن نظريته في الفن تقوم على تذوق المتلقي للوحة أو عدم تذوقه، فإن الفنانين ونقاد الفن، يعتبرونه واقعياً، مع ألوان انطباعية.

د. نذير العظمة

٥٠ كتاباً في الغربة والوطن

عرفته، ولم أكن أعرفه.. مع أنه كان مشهوراً.

كنت أنقل لصحيفة "الجمهور" الدمشقية وقائع محاكمة المتهمين بالانتماء إلى جمعية سرية، وهي التهمة التي وجهت للسوريين القوميين الذين اعتقلوا في أعقاب اغتيال العقيد عدنان المالكي في أواسط الخمسينات من القرن العشرين في سورية، فإذا بي أمام عدد من الأدباء والمبدعين السوريين، كأدونيس وفاروق نصار وأورخان وعدنان ميسر ونذير العظمة الذي دافع عن نفسه، يوماً، بإلقاء قصيدة عصماء، هزّ فيها فضاء المحكمة، يومئذٍ عرفت نذيراً لأول مرة، وصار صديقي.

العظمة التي أتى به إلى سعادة

- متى ولدت؟

- في أيلول عام ١٩٣٠ م، في دمشق، فأنا منها وإليها.

- هل كنت في الجامعة يوم اعتقلوك؟

- كنت قد تخرجت من الجامعة، وعينت معلماً للأدب العربي في "ثانوية الحرية" بصافيتا، التي اعتقلت وأنا فيها، جيء بي إلى دمشق، سجن المزة، وحقق معي عدد من الضباط، أذكر منهم أكرم ديري وبهجت المسوتي، لقد استغرب هؤلاء المحققون أن يكون واحد من أسرة العظمة التي أعطت الوطن يوسف العظمة شهيد ميسلون. من بين أعضاء الحزب. مع أن هذه لا ترتبط بتلك..

قلت وقتئذٍ، أجيبهم بشموخ:

- يوسف العظمة هو الذي أتي بي إلى أنطون سعادة !

- **هل كنت شاعراً وقتئذٍ؟**

- كان عندي دواوين مطبوعة..

- **مثل ماذا؟**

- ديوان "عتابا" المطبوع في دمشق عام ١٩٥٢ م، وديوان "جرّحوا حتى القمر" مطبوعات دار مجلة شعر في بيروت عام ١٩٥٧ م.

الهجرة الأولى

ولد الشاعر نذير العظمة في دمشق، وشبّ.. وصار شاعراً، بواكيره قدمها في قراءات شعرية عبر الإذاعة، وقال فيه الأديب المرحوم شكيب الجابري منذ أوائل الخمسينات: "نذير العظمة.. هو فرلين دمشق" إشارة إلى شعره الرمزي. كان شعره يأخذ ويعطي محيطه. بساتين العاصمة. وأنهرها، ومعاناة الإنسان الشامي الإنسانية والنفسية والمادية، وبعد اعتقاله في سجني المزة والقلعة، ومحاكمته بالتهمة المذكورة، برأه الحاكم الفرد المرحوم زهير غزال، وجميع المتهمين، من تهمة الانتماء إلى جمعية سرية، لا لأن الحزب لم يكن جمعية سرية أيضاً، وكان من نتائج هذا الاعتقال الظالم أن الجهات الرسمية رفضت توظيفه، وبمعنى آخر، هجر.. وكانت هجرته الأولى لبيروت، وربّ ضارة نافعة.

أسسنا مجلة " شعر "

- **ماذا فعلت في بيروت يا عزيزي نذير؟**

- درّستُ الأدب العربي في كلية برمانا العالية، وصرت رئيساً للقسم العربي فيها، لكنني تابعت دراستي في الجامعة الأمريكية في بيروت ونلت الماجستير، وكنت ناشطاً في ميادين الفكر القومي والسياسي.

- أعرف أنك كنت من مؤسسي مجلة "شعر" وقتئذٍ؟

- فعلاً. أسسنا مجلة "شعر" مع خليل حاوي، ويوسف الخال، وأدونيس، والثلاثة كانوا شعراء مثلي.

- هل نشرت في "شعر"؟

- نشرت قصائد مثيرة، وعنها صدر لي ديوان "اللحم والسنابل" عام ١٩٥٧م و"غداً تقولين كان" التي صدرت عن "دار المجاني" عام ١٩٥٩ م، وعن "دار الموسوعات العربية" عام ١٩٨٣ م، والداران في بيروت التي كانت تجذب المثقفين والمطاردين.

- أعرف أنك اشتغلت في المسرح في تلك الفترة أيضاً؟

- الواقع أنني عملت للمسرح منذ طلعتي الأولى من دمشق. كتبت مسرحية شعرية بعنوان "ابن الأرض" قدمت للإذاعة بإخراج من جوزيف فهدة ١٩٥٢م، تمثل الاعتقال، وأذيعت مراراً ثم طورتها للمسرح عام ١٩٥٧م، بل وأهديت للإذاعة الأمريكية، ومسرحية "جراح من فلسطين" عام ١٩٥٢م، ومسرحية "جسر الموتى" التي نشرت في مجموعة "أطفال في المنفى" في بيروت عام ١٩٦٢م وأعيد طبعها في الشام عام ١٩٩٢ م.

- هل كتبت المسرحية الشعرية فقط، أي أنك لم تكتب المسرحية النثرية؟

- بل كتبت المسرحية النثرية أيضاً. من نثرياتي المسرحية "سيزيف الأندلسي" التي أخرجها "فريد بنمارك" لمسرح محمد الخامس في الرباط عام ١٩٧٥ م، وأخرجها "أسعد فضة" في دمشق بعد عام واحد لحساب وزارة الثقافة السورية، ومسرحية "طائر السمرمر" التي أخرجها نبيه مراد في كندا، والتي نشرتها دار فكر في بيروت، ومسرحية "أوروك تبحث عن جلجامش" المنشورة في دمشق، و"المرايا" و"دروع امرئ القيس" و"الشيخ ومغارة الدم" و"الزنج" التي ترجمتها عن مؤلفها "عز الدين المدني" إلى الإنكليزية، وجميع هذه الأعمال صدرت ما بين أعوام ١٩٧٤ م و ١٩٩٣.

إنه كم كبير كتبته للمسرح؟

- نعم كنت أكتب وأنشر الدواوين والمسرحيات، وأتهيأ لنيل الدكتوراه بالأدب الحديث والمقارن، وقد نلت الدكتوراه من جامعة إنديانا في الولايات المتحدة الأمريكية.

- **كنت إذاً قد هاجرت هجرة أخرى إلى أمريكا؟**

- أجل، بعد نيلي الماجستير من الجامعة الأمريكية في بيروت. ذهبت إلى الولايات المتحدة، وعملت كأستاذ بكرسي كامل في جامعة بورتلاند بعد حصولي على الدكتوراه. كنت أستاذاً زائراً في جامعات هارفرد وجورج تاون وإنديانا. وقتئذ اهتممت بالأبحاث المقارنة وحضرت واشتركت في أكثر من ٢٠ مؤتمراً دولياً للأدب المقارن والدراسات والأنشطة الإسلامية. ونشرت أبحاثي في المجلات الاختصاصية في الولايات المتحدة.

- **هل تستطيع أن تحدد لي مدة إقامتك في أمريكا؟**

- أقمت ما يزيد عن ١٨ سنة، أي منذ عام ١٩٦٢ م حتى عام ١٩٨٠، وكانت سنوات خصبة.

- **ثم عدت إلى بيروت؟**

- عدت لأنخرط في المقاومة الفلسطينية..

- **أحقاً فعلت؟**

- طبعاً. وخرجت مع المقاتلين في السفن من بيروت إلى طرطوس، وقد.. طلعت بديوان كامل عن الصمود في بيروت.

- **ماذا كان اسم هذا الديوان؟**

- "سيدة البحر".

- **هل كان انخراطك في المقاومة غسلاً لذنب لم ترتكبه؟ هل كوفئت بعد\ ذلك في وطنك بعد هذه الغربة الطويلة؟**

- كنت بطلاً في الفكر والقومية والإبداع، لكن بطولتي هذه لم تغفر لي. واضطررت إلى الهجرة من جديد، طلباً للرزق.

- **هل ذهبت إلى الولايات المتحدة من جديد؟**
- طلبت للعمل هناك، لكنني اخترت بلداً عربياً لأعمل فيه: المملكة السعودية، وتحديداً عملت في جامعة الملك سعود في الرياض.
- **أدرّست هناك أيضاً؟**
- أشرفت على طلبة الدراسات العليا، لكنني اشتركت في الحياة العامة أيضاً. وكتبت حوالي عشرة كتب، هي عبارة عن أدب وأحاديث ومجموعات شعرية ومسرحيات.

جيل المعاناة..

- **ما الذي أردت أن تقوله في معظم نتاجك الشعري والنثري؟**
- جيلنا جيل المعاناة. إنها معاناة حقيقية، سواءً أكانت فردية أو جماعية. وهذا ما حاولنا أن نعبر عنه من خلال تجاربنا الذاتية أو الفكرية. لماذا؟ لأن الإبداع برأيي لا يمكن أن يكون معزولاً عن المجتمع. إنه، أي الإبداع. لا يمكن أن يكون منطلقاً من برج عاجي، ولكن هذا لا يعني ابتذالاً، الابتذال ليس هو الشعبي أو الفولكلوري..

العظمة السياسي..

هنا أردت أن أذكره بحادثة رأيتها بنفسي عام ٢٠٠٢م كنا معاً في مقهى الروضة نحتسي الشاي، عندما قرع جرس هاتفه النقال. كانت المكالمة من بيروت. ورأيت أسارير الفرح تبدو على الوجه المكتنز.. فحدست أن قيادة الحزب السوري القديمة الموجودة في لبنان قد وافقت على ترشيحه لعضوية مجلس الشعب السوري، وكان حدسي في محله، كم كان مغتبطاً.. ربما لأن ترشيحه يعيد إليه انتماءه إلى دمشق التي خرج منها على الرغم منه. ولقد خاض غمار هذه التجربة، على الرغم من أن الأجيال المتعاقبة لم تكن تعرفه معرفة تامة. فقد كان غيابه طويلاً. إلا أنه حاز على ٢٢ ألف صوت في دمشق. وهذا دليل على أن الناس يقدرون علمه وكفاحه، ولم ينسوه، على الرغم من غربته الطويلة بعيداً عن دمشق.

- **هل هذا يدل على التزامك بالحزب؟**

- الجواب إن القوميين السوريين لا يهجرون الحزب وإن تقاعدوا.. لكن نذير العظمة لم يتقاعد. إنه الآن في الخامسة والسبعين، لكنه ما يزال ينتج، وآخر أعماله الإبداعية كتاب "فضاءات الأدب المقارن". وهو دراسة في تبادل الثيمات والرموز والأساطير بين الآداب العربية والأجنبية، وهو من مطبوعات ومنشورات وزارة الثقافة السورية، ومثله كتاب "الماسة وأزميل الترجمة" الذي تضمن ترجمة شعرية عربية كاملة لأغاني البراءة والترجمة عن وليم بليك..

- إن المبدع يعطي باستمرار حتى ولو بلغ المائة؟

قال هذا، وهو ينظر إلي بعينيه الشابتين، فسألته:

- ما هي طموحاتك؟

قال:

- طموحي الآن أن أكتب سيرتي الذاتية.

- **لماذا؟**

- لأن فيها بعداً إنسانياً.

- **لأن فيها بعداً إنسانياً فقط؟**

- فيها أبعاد قومية وفكرية وإنسانية تستحق التسجيل أيضاً.

- **هل ثمة طموحات أخرى؟**

- أجل، هناك خمسون وربما ستون مقابلة أريد أن أجمعها وأنشرها في كتاب، وكلها تعبر عني أو ترسم خارطة كفاحي ومعاناتي.

- **طموحاتك محصورة بالنشر إذاً؟**

- تستطيع أن تقول هذا.

- **هل هناك كتب جديدة تطبع لك هذه الأيام؟**

- هناك كتاب بعنوان "التراسل بين المخيلة والعين" وسيصدر عن دار الفيصل في المملكة العربية السعودية.

- **عن أي شيء يدور مضمون هذا الكتاب؟**

- مضمونه يبحث في علاقة الشعر بالفنون البصرية.

عودة عشتار..

- **وهل هناك كتب أخرى معدة للنشر؟**
- كتاب آخر سيصدر لي عن دار فكر في بيروت وعنوانه "عودة عشتار من العالم الأسفل" ويبحث عن عشتار في المسرح والفنون المعاصرة.
- **وماذا أيضاً؟**
- كتاب "أوراق عازف دمشقي" وهو سيرة ذاتية، ذات طابع أدبي، وليس حياتي.
- **يعني أنك لا تتوقف عن العطاء؟**
- لا يمكنني أن أتوقف. لأن الإبداع لا يتوقف. هل سمعت عن مبدع توقف عن العطاء يوماً؟ خاصة إذا كان دمشقياً؟

مساهمات أخرى..

شارك الدكتور نذير العظمة في ٢٠ مؤتمراً دولياً. ألقى خلالها بحوثاً عربية وإسلامية، ومنها مؤتمر جمعية الاستشراق الأمريكية، ومهرجان قرطاج في تونس، والمسرح الآسيوي - الأفريقي، ومهرجان جبران خليل جبران العالمي.

- نشرت خمسين بحثاً، بعضها باللغة الإنكليزية في العالمين العربي والأمريكي، كما نشرت ما يزيد عن مئتي مقالة نقدية، في صحف ومجلات سياسية ونقدية.
- **مثل ماذا دراساتك هذه، وعن ماذا؟**
- مثل "مؤتمر تي.. إس. إيليوت في الحركة التموزية" و"صورة عشتار في الشعر العربي الحديث" و"مؤثرات إيديث ستيويل في شعر بدر شاكر السياب" وقد نشرت هذه باللغتين الإنكليزية والعربية.

مشاركات بالجملة..

لم يتوقف د. نذير العظمة عن الإبداع الشعري بكافة أشكاله، ولم يضن على جمهوره بقراءات شعرية في أماكن مختلفة في العالم.

- **أين قرأت شعرك؟**

- في مهرجان ابن زيدون برعاية وزارة الثقافة المغربية، وكان ذلك عام ١٩٧٥ م، ومهرجان المحبة في اللاذقية في عامي ١٩٩٣ و ١٩٩٥ م، ومهرجان الجنادرية في عام ١٩٩٥ م وغيرها.

- **يقال إنك أسست مجلة باللغة الإنكليزية؟**

- أجل. وكنت رئيس تحريرها، وهي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق، وتتصدى للإبداعات العربية.. تعرف بها وتقدمها لجمهور غير عربي.

- **جمعت المجد من أطرافه؟**

قال مبتسماً معلقاً على ملاحظتي الفكهة:

- لا أستطيع إلا أن أعمل وأشارك، ولقد شاركت في جميع الوسائط المقروءة والمسموعة والمرئية في العواصم العربية والأمريكية.. تصور. لقد أتيح لي أن أشارك بمداخلات عديدة في مؤتمرات غير التي ذكرت أنني حضرتها..

- **مثل ماذا؟**

- مثل لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية، وهي منبثقة عن " المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ".

- **هل سافرت في رحلات أدبية؟**

- حياتي كلها أسفار في أسفار. أنا الذي كنت أريد أن أستقر في دمشق، لكنني في الواقع.. شاركت في وفود سافرت إلى الهند وإلى الاتحاد السوفياتي، إن كنت تعني أنني سافرت في مهام أدبية.

نزار قباني

وجازفت بسؤال د. نـدير العظمـة عـن رأيه ـفي الحركـة الـشعرية ـفي سـورية، على ما أعرفه من إحجام الشعراء من ذكر ما يتعلق بزملاء المهنة..

قال:

- لا أريد أن أذكر الأسماء، اعفني من هذا السؤال.

قلت:

- نزار قباني صديقك، ألن تقول ـفي المرحوم كلمة؟

قال:

- حبيبي. رحمة الله عليه.

قلت:

- ما رأيك بشعر نزار؟ أرجوك اصدقني القول؟

قال:

- نحن جيل المعاناة ـفي الشعر، وـفي..

ولم يكمل..

سألت:

- هذه إجابة غامضة وملتبسة أنزار من جيل الذين عانوا ـفي الشعر يا دكتور؟

قال وهو لا يضع عينيه ـفي عيني، كأنه لا يريد أن يفتح قصصاً عن شعراء بلاده:

- أعني أنني من جيل المعاناة، ربما لأنني ارتبطت بقصيدة. أنا مختلف، مختلف عن بقية الشعراء.

ولم يشأ أن يزد عن ذلك، فاحترمت صمته.. وصمت معه قليلاً، ثم خطر لي أن أسأله عن حياته الخاصة. فقال:

- تزوجت مرتين، مرة من لبنانية، رزقت منها بأبناء عاشوا معي ـفي أمريكا، وهـم موجـودون هنـاك الآن، ثم تزوجـت مـن شـامية، أنجبـت لـي فتـاتين تعيشان معنا الآن ـفي دمشق، ـفي بيت اشتريته لأستقر فيه.

الدوشكا تتكلم..

وقام إلى المكتبة، فقدم لي عدداً من كتبه، منها:

- "لماذا لا أغرد للموت؟"
- "المأساة وأزميل الترجمة"
- "فضاءات الأدب المقارن"
- "المرايا "
- "ثلاث مسرحيات شعرية"
- "درع امرئ القيس"
- "المسرح السعودي"

واستوقفتني من "لماذا لا أغرد للموت" قصيدة "أغنية الدوشكا":

الدوشكا الدوشكا تتكلم
الدوشكا أفصح من أكثم
ملك الزاروب يعانقها
دم دم در لم دم دم در لم
دم دم دم
در لم دم دم
آه من عنترة الزينة
بالبطش يقرر قانونه
فالحاكم يحكم باسم الدوشكا
والقاتل يقتل باسم الدوشكا..
يا أطفال
تعالوا نرقص للدوشكا
حيوا الدوشكا
صلوا للدوشكا
خلف الكرم وتحت التينة
من يذكر حيفا؟

من يذكر يافا؟
من يعطي قمحاً وقطافا؟
غير الدوشكا؟

لم أعرف ما هي الدوشكا. ولم أسأله، لأن هذه القصيدة تحاول أن تؤدي دور المونولوج الشعبي، لذا يجب أن تصوت لا أن تقرأ، لكنني قرأتها واستمتعت بها، استمتاعي بجميع نتاج الشاعر. شعراً كان أو مسرحيات. نثراً كان أو نقداً، ولقد تمنيت أن أقرأ له "عدي بن زيد العبادي" الذي صدر عام ١٩٦٠ عن دار مجلة "شعر" لكنني لم أجده بين الكتب التي أهدانيها، مثله مثل كتابه "المعراج والرمز الصوفي" الذي صدر عن دار الباحث في بيروت عام ١٩٨٣م، غير أ، الكتب التي قدمها لي تكفي لتدل على أن د. نذير العظمة واحد ممن نذروا أنفسهم لمسألة الإبداع الشعري، والكتابي بعامة، في الوطن السوري، فما بالك وله خمسون كتاباً مطبوعاً، عشرون دراسة نقدية، وسبعة عشر عملاً شعرياً، وتسع مسرحيات وثلاث روايات؟

اللهم زد وبارك..

محطات

- شغل د. نذر العظمة منصب رئيس تحرير جريدة "البناء" اليومية البيروتية من عام ١٩٦٠م حتى عام ١٩٦٢ م.
- شغل د. العظمة منصب رئيس قسم الأرشيف والمعلومات في مؤسسة أبي ذر الغفاري في بيروت من عام ١٩٧٩ م حتى عام ١٩٨٢ م.
- وكان مستشار المجلة الفصلية "الباحث" من عام ١٩٨١ م حتى عام ١٩٩٤.
- عندما كرمته "الإثنينية" السعودية - تجتمع كل اثنين - عام ١٩٩٤ قال الدكتور منصور الحازمي عنه: "نذير شاعر الأمجاد والأساطير. إنه السندباد الذي لا يتعب من الإبحار".
- وقال في حفل التكريم ذاته الدكتور عبد الله الغدامي: "إنه الأمريكي الذي يفيض عروبة".
- بعد أن تقاعد من العمل الوظيفي قرر الإقامة الدائمة في دمشق.

أحمد أبو سعدة

ثنائية الموت والحياة

لو كان قدره أن يموت باكراً، لكان في عداد الموتى، منذ زمن سحيق، لكن الموت زاره أكثر من مرة، خلال حياته الحافلة بغرائبية لم تتوفر لسوري مثله قط. كان الموت يقترب ويبتعد، فعاش ثنائية الموت والحياة، دون أن يدري أنه، لسبب ما، كان عصياً على الموت الذي هو حق، ربما ليكمل مشوار النضال الذي بدأه، وكان في الثامنة من عمره، وليتوجه بمؤلفات تحكي عن سيرته التي كأنها مسيرات متعددة لأشخاص كثر، مد الله في عمر هذا الدمشقي الاستثنائي.

ثقافتي..

- **في أية سنة ولدت يا أحمد؟**
- عام ١٩٤٠ م أبصرت النور لأول مرة في حياتي. أنا دمشقي ابن دمشقي ودمشقية، وحارتنا هي ميدان فوقاني، وأسرتنا مكافحة فقيرة.

كانت دمشق، بل سورية، تعيش عصر الانفتاح على الفنون الجديدة الوافدة، ولسبب ما تعلق أحمد بفن الفوتوغراف فلم يكمل دراسته النظامية، وعندما نجح إلى الصف الثاني الابتدائي التحق باستديو ملوحي للتصوير في "السنجقدار"، وراح يكمل دراسته في مدارس ليلية حتى نال الشهادة الابتدائية، وكان قد انتقل من محل تصوير إلى محل آخر، حتى صار في استديو "خاشادور".. والمفاجأة أنه صار عضواً في الحزب الشيوعي السوري بعد ١٢ سنة من ولادته، فكان أصغر عضو في ذلك الحزب، فاهتم به الحزبيون، وفي مقدمتهم الأمين العام أبو عمار "خالد بكداش" الذي خصه برعاية استثنائية، فجعله في عداد أمن الحزب.

- **ما هي مقومات ثقافتك منذ ذلك الوقت؟**
- الدراسة والقراءة. كنت أستأجر الكتب لأقرأ، وساعدني سفري المستمر على الاطلاع على ثقافات العالم.
- **إلى أين سافرت؟**
- سافرت إلى أماكن كثيرة. كنت أريد أن أتعرف على الجغرافيا أيضاً، وأولى زياراتي إلى الهند، مع الرئيس شكري القوتلي. كنت أعمل وقتئذٍ في استديو درزي. سأذكر المواقع التي زرتها في مواضعها في هذا اللقاء، لكنني أستطيع أن أؤكد أنني سعيت إلى كل مكان في ثورة، انطلاقاً من معتقداتي.
- **أين اشتغلت أيضاً؟**
- في استديو "منصور" في "المرجة" وكانت فترة طويلة، نلت شهادة البكالوريا من مدرسة "دار الحكمة" بدراسة ليلية خاصة، وكان من زملائي في تلك المدرسة الأستاذان عبد القادر قدورة، والدكتور ياسين الأسطة.

عربي وشيوعي..

كان وعي أحمد أبو سعدة طبقياً في بداية الأمر، ربما لسبب انتمائه للحرب الشيوعي، وعندما حدثت الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ م نشط في تجميع الأخبار وتوزيع المنشورات، ضد الوحدة، إلى أن اعتقل وسجن في سجن المزة، حوالي عام ١٩٥٩ م.

- **حدثني عن فترة السجن يا أحمد؟**
- هذه الفترة صقلتني، بل أحدثت انقلاباً في معتقدي الحزبي.
- **كيف؟**
- رحت أفكر بأنني عربي منتم إلى العروبة، فلماذا عملت ضدها؟ بدأ وعيي القومي يستيقظ، وكان هذا هو الذي أحدث الانقلاب العظيم في تفكيري. أمي الأمية كانت شجاعة وجريئة، اعترضت طريق صاحب النفوذ البارز وقتئذٍ عبد الحميد السراج، أكثر من مرة، حتى نجحت في إطلاقي من السجن.

أمين المؤتمر؟!

اتجه أحمد أبو سعدة، مع بداية الستينات إلى الانتقال بحرفته من التصوير الفوتوغرافي إلى التصوير السينمائي، وتقدم إلى مسابقة لتعيين مصورين سينمائيين في التلفزيون السوري الذي أنشئ عام ١٩٦٠ م، فكان الأول على المتنافسين، لكن الإدارة المصرية صاحبة النفوذ أيام الوحدة لم ترد أن تعين مصوراً "شيوعياً" في التلفزيون السوري.

- **من ساعدك في الانضمام إلى أسرة التلفزيون السوري؟**
- المرحومان قحطان الجندي وخالد حمادة، والمصور وقتئذٍ محمد الرواس. عينت في التلفزيون. وأرسلت إلى القاهرة لأعمق دراستي للتصوير، ثم إلى تلفزيون، "راي" في إيطاليا للغرض نفسه.
- **هل تركت الحزب الشيوعي في تلك الفترة؟**
- تركته، بسبب عدم قيام مؤتمر. كنت قلت صراحة بأن من أولى المبادئ التي تعلمتها في الحزب الديمقراطية، فلماذا لا يعقد الحزب مؤتمراً لأعضائه؟

بدء عملي التلفزيوني..

زفر أحمد أبو سعدة زفرة وقال:

- عشت في السجن وفيما بعد قمة التناقض. كنت، وأنا في السجن، وحدوياً أنا المنتمي إلى حزب لا يؤمن بالوحدة، وعشت على وهج كلمة مكتوبة ومعلقة في غرفة نوم خالد بكداش: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ " فلماذا لا يتم اختيار قادة الحزب بانتخاب في مؤتمر؟

المهم أنك اتجهت إلى العمل في تلك الفترة؟

- نعم. أخرجت وصورت فيلماً بعنوان "وتشرق الشمس من جديد" عام ١٩٦٤ م كتب قصته عن قصة حقيقية المرحوم وليد مارديني، ومثله محمود جبر وهالة شوكت وظفيرة قطان.

- **ما هي هذه القصة الحقيقية؟**

- خال أمي، واسمه الحركي طحبش قتل، بل ذبح ضابطين فرنسيين أثناء الثورة السورية الكبرى. فأعدت تسجيل الواقعة بفيلم سينمائي، ما يزال موجوداً.

- **ماذا أخرجت وصورت أيضاً؟**

- فيلم باسم "انتظار" عن قصة "التراب الحزين" للدكتور بديع حقي، مثله فهد كعيكاتي وهالة شوكت، وكان ذلك عام ١٩٦٦ م. كان العمل حثيثاً، وكانت برامجي كثيرة، حتى حدثت الثورة عام ١٩٦٣م فذهبت إلى منطقة "الطبقة" ومسحتها تصويراً، وما زلت أعمل مصوراً ومخرجاً..

لومومبا وغيفارا..

- **أعرف أنك واجهت الموت في أكثر من مكان، وأكثر من حادثة فيما ذكرته لي من أعمالك لم تأت على مثل هذه المواجهة؟**

- كنت أتحدث عن مراحل حياتي مرحلة بعد أخرى. ما جرى لي حدث بعد هذه المرحلة.

- **متى؟**

- يمكن القول إن الأخطار داهمتني عندما بدأت أسافر إلى الخارج.

- **متى كان ذلك؟**

- في الستينات، ذهبت لأول مرة إلى الكونغو. أردت أن أقابل لومومبا، وذهبت ثانية إلى الكونغو للبحث عن غيفارا.

- **نزعة نضالية متأصلة فيك**

- نعم. هذا أنا. وهذه النزعة انصبت صباً في أرتيريا، عندما ذهبت إليها عام ١٩٦٩ م.

- **ما هي تفاصيل الحوادث التي جرت لك في أرتيريا، وفي غيرها بدءاً من هذا التاريخ؟**

وضحك أحمد أبو سعدة، وقال:

- أول هذه الحوادث الغريبة أنني كنت ذاهباً إلى الخرطوم التي كنت انطلق منها عادة في الدخول إلى أرتيريا (المحتلة وقتئذ من قبل أثيوبيا)، وهناك التقيت بجاسوس لإسرائيل اسمه "مارك فو".. وقتئذٍ عرض علي العمل معه..
- **بأية لغة؟**
- بالإنكليزية التي كنت درستها جيداً في دمشق. هل تعرف بأنني تعلمت " السواحلية " أيضاً، وهي لغة معروفة في أفريقيا الشرقية، كما أنني أعرف شيئاً من الإيطالية، وقتئذ افتعلت شجاراً عنيفاً هناك وعدت إلى دمشق، وقابلت مدير المخابرات العامة يومئذٍ المرحوم عدنان دباغ.
- **هل هذا صحيح؟**
- صحيح؟ قبض على الجاسوس في القاهرة، بعد ذلك، ونشرت الخبر مجلة "آخر ساعة" بعنوان: "المخابرات المصرية تلقي القبض على جاسوس" مع صورته.

ثعبان على صدري..

- **ماذا فعلت في أرتيريا؟**
- انضممت إلى ثوار أرتيريا، ودخلتها عن طريق الجبال. هناك ضربنا قاعدة أمريكية اسمها "كانيوستشن" بعد أن تسللنا إليها، وخطفنا في هذا الهجوم ضابطين أمريكيين، الأول "ستيف كامبل" والثاني زنجي اسمه "جيم هاريل" عرضت على دمشق أن تستلم المخطوفين فأبت، لسبب غير معلوم.
- **ما هو دليلك على هذا الاختطاف؟**
- سلوى اسطواني. مندوبة الـ "بي. بي. سي"[1] غطت الخبر وأذاعت كل شيء وقتئذٍ.

---

(١) توفيت، رحمها الله بعد الحوار.

- **قلت إنك اجتزت الحدود مع أرتيريا عن طريق الجبال ألم تصادفك متاعب؟**
- متاعب؟ السير على الأقدام في حر الشمس، وبرد الليل، ووعورة الجبال، ما تصادفه من حيوانات وزواحف..
- **هل صادفتك زواحف؟**
- كنت نائماً في العراء، عندما أحسست بثقل على صدري، فتحت عيني فوجدت ثعباناً ضخماً جاثماً عليه. طار عقلي من الفزع، أمسكت بالثعبان، وبقيت على هذه الحالة مدة طويلة. عيناي تصبان في عينيه وعيناه تتربصان بي. أخيراً أنقذني أصدقائي في الجبهة بقتله. لقد رأيت الموت. وكانت لسعة الثعبان كافية لموتي.

ثنائية الموت والحياة

كانت هذه إحدى المرات التي يرى فيها أحمد أبو سعدة الموت رأي العين. كانت لحظة من لحظات ثنائية الموت والحياة في مسيرته الطويلة، ولقد اجتازها غير هياب، لأنها مكتوبة في صفحة حياته، لكنه كان قد مر بمثلها من قبل ومن بعد.

- **ماذا بعد يا أحمد؟**
- سرحت من التلفزيون، فحملت الكاميرا وذهبت إلى استوكهولم "السويد" وعملت في مجلة "أتتن بلادا"، بمساعدة سويديين، إحداهما "إيفا" التي أعطتني مفتاح شقتها، كان ذلك غام ١٩٦٧.
- **هل كان تسريحك بسبب موقف ما؟**
- أجل بسبب موقفي من الحرب العربية - الإسرائيلية !
- **ماذا كنت تصور في استوكهولم؟**
- عروض الأزياء والأزياء نفسها.

- لكنك عدت إلى التلفزيون؟

- عدت إلى سورية بعد فيلم شاهدته في التلفزيون السوري عن الصهاينة، فأعادوني إلى التلفزيون.

- أعرف أنك مررت بلحظة من لحظات ثنائية الموت والحياة أكثر من مرة؟

- أجل. في عام ١٩٦٤ وكانوا يحتفلون بعيد الثورة، ذهبت إلى قاعدة الضمير لأصور فيلماً عن الطيران العسكري. كان قائد القاعدة الرئيس، فيما بعد، حافظ الأسد، ركبت الميغ ١٧ أنا وزهير نابلسي. وكان نقيباً، ووقتئذٍ حدث خلل في الطائرة التي لم تسقط، رأيت الموت بأم عيني، لكنني نجوت، وركبت في طائرة من النوع نفسه مباشرة وصورت. وكبر ذلك عند قائد القاعدة. فتناولت معه طعام الغداء في القاعدة. منذ ذلك الوقت صارت لي معرفة بالرئيس، فلما تولى الرئاسة، ذهبت إليه وطلبت ديناميت للثورة الأرتيرية فاستجاب فوراً. كان مدير المخابرات علي ظاظا الذي أمر بإقامة جسر جوي مع الخرطوم لإرسال السلاح والذخيرة. لقد دعم الرئيس الثورة الأرتيرية دعماً قوياً.. حتى أنه أرسل فيما أرسله لعناصر الجبهة الأرتيرية الثائرة السكر والعدس والمواد الغذائية.. وحتى المال أيضاً.

- قلت إن الطائرة لم تسقط، فهل سقطت بك طائرة أخرى؟

وابتسم أحمد أبو سعدة، وقال:

- مرتين. مرة ركبت مع عميد اسمه "طالب صباغ" طائرة من نوع الميغ ١٧ لأصور. ما إن غادرنا بالطائرة مطار المزة حتى شعرت بتموج الطائرة وخللها، فصرخت: "أشهد أن لا إله إلا الله". لكن براعة الطيار طالب صباغ جعلت الوقوع غير مؤذ. درجت الطائرة حوالي ٢ كيلومتر قبل أن تتوقف. يومئذٍ كان معي المونتير "طلعت المغربي" الذي لم يصور الحادثة، وقد رآها، فلمته. علق القائد "ناجي جميل" وسام جناح طيار على صدري، اعترافاً بشجاعتي ورباطة جأشي. هذه هي لحظة من لحظات ثنائية الموت والحياة في مسيرتي..

- **أعرف أن هذا ما جرى لك في العراق أيضاً؟**

- أجل، كنت أصور فيلماً باسم "نسور البعث" عام ١٩٨٠، وكان رئيس العراق صدام حسين. ركبت سوخوي ٢٤ مع رائد عراقي اسمه غالب. تعطلت السوخوي فقذفنا أنفسنا بالمظلات ونجونا أيضاً. وقتئذ، وللأمانة، أعطاني الرئيس صدام حسين مساعدات عسكرية للثورة الأرتيرية، واستقبلني أكثر من مرة.

٧٥ ألف دولار

- **علمت أنك سافرت إلى فييتنام؟**

- سافرت عام ١٩٧٠. كان السفر إلى فييتنام يتطلب تزكية من جهة رسمية. وكان صميم الشريف يستعير أفلاماً من بعض السفارات لعرضها في برنامجه في التلفزيون. حاولت أن أقدم تزكية منه، المهم أنني ذهبت إلى فييتنام ومعي ١٢ دولاراً وفيلمان أبيض وأسود وكاميرا من نوع " كييف ". نزلت في سايغون، ولمست نوعاً من الحياة مختلفاً عما نعرفه. رشاوى ودعارة وعصابات في شوارع المدينة، وصرت آكل الفضلات، وأنام في الطرقات وحالتي مزرية، وقتئذٍ وقعت حوادث في "سايغون" فصورتها، مصادفة، وبعت الصورة لـ "بي. بي. سي" وهي وكالة أنباء، وقبضت ثمنها ٢٠٠ دولار، فشممت رائحة كفي. وتعرفت على مدرسة صارت عاهرة، ثم تعاملت مع M.B.C وهي شركة أنباء وصور، وصرت أصور لأقبض ثمن الصور الفوتوغرافية، وتعرفت في منطقة "هاي فونغ" برجل منتج "زمرمان" فعملت لحسابه، مقابل ٤٠٠٠ دولار في الشهر، ورحت أصور لحسابه أفلاماً من نوع ١٦ ملم، وكان أقسى ما صادفني، وقتئذٍ، أنني ذهبت إلى منطقة دانناغ المملوءة بالحشرات..

- **عند نهر الميكونغ؟**

- بالضبط. كنت أنام في كيس خوفاً من لسع الحشرات.. مرت حوالي ثلاثة أشهر، اشتغلت بعدها في الـ "أي. بي. سي" وكنت أقبض حوالي ٥٠٠٠ دولار في الشهر، ثم استقلت وعملت لحسابي، واستطعت أن أجمع

من بيع الصور في فييتنام ٧٥ ألف دولار، خلال ١٤ شهراً، عدت بعدها إلى دمشق، بعد أن أمضيت في "كان" عطلة ترفيهية.

سمموه..

اعتبر أحمد أبو سعدة واحداً من ثوار أرتيريا، ودعي إلى المؤتمر الأول لجبهة تحرير أرتيريا. كان يعرف جغرافية المنطقة أكثر من أهلها. ذهب إلى المؤتمر عبر "بورسودان" في حين استغرق وصول الوفود حوالي ١٨ يوماً، ومثلت سورية وقتئذٍ بفاضل الأنصاري وعلي أبو نعيم ومحمد أبو عزة. استقبل أحمد في المؤتمر كأنه نجم، بسبب الأعمال العظيمة التي خدم بها الثورة الأرتيرية. صدرت وقتئذٍ قرارات هامة.

- **ما هي هذه القرارات يا أحمد؟**
- قرارات كثيرة أدت في النهاية إلى الاستقلال، يمكنك أن تجدها في كتابي "أرتيريا من الكفاح المسلح إلى الاستقلال".
- **أهو كتاب خاص بأرتيريا؟**
- نعم. يقع في ٥٦٠ صفحة، ضم كل شيء عن تلك البلاد، وبخاصة وثائق تثبت دعم العرب لهذه الثورة، ومدها بالسلاح والذخيرة.
- **كنت قلت لي إنك نسفت قطاراً، وصورته؟**
- أجل. نشرت الهرالدتريبيون الصورة منسوبة إلي بالاسم الصريح.

وقدم لي نسخة الجريدة.

- **ماذا عن محاولة تسميمك؟**
- قصة..
- **اذكرها لي**
- كان عضو جبهة تحرير أرتيريا "صالح أحمد أياي" وهو صديق عزيز، مريضاً. ذهبت لعيادته في أسمرة، كان مشلولاً، وهو من منبت فقير ومتواضع، وكان فذاً.

- **ماذا كان؟ بالضبط؟**

- كان قائداً كبيراً، وكان مسؤولاً في الجبهة. نزلت، وأرتيريا مستقلة، في بيت واحد من غلاة الجبهة الشعبية، واسمه "حديش ورارمالو". وكنت غير مرغوب فيّ من قبل الفئة التي تسلمت الحكم، بل سرقته من الجبهة. أتت "الملم" زوجة "حديش" بوجبة سمك مسمومة. أكلت، وأحسست بالمغص، أخذت إلى المستشفى، وبقيت ستة أيام فيها بأسمرة، ثم ذهبت مع مرضي إلى القاهرة ودخلت مستشفى فيها وأخذت ٤٢ إبرة ضد التسمم، وعاودت الكرة في مستشفى آخر في دمشق. أرادوا أن يسمموني، لأنني كنت أعرف أنهم سرقوا الثورة، وكنت أجاهر بذلك.

في مرات ثانية وثالثة ورابعة نجا أحمد من موت أكيد. ألم نقل إن مسيرته راوحت أبداً بين ثنائية الموت والحياة، حتى في كينيا الأفريقية التي ذهب إليها ليصور الحيوانات المفترسة، كانت حياته لا تهمه بقدر ما تهمه مهنته، وثوريته التي ظلت متقدة أبداً.

- **ماذا أصدرت من كتب يا أحمد؟**

- أصدرت وأصدر. إنني ما أزال أعمل حتى في هذه السن.

- **ماذا تعمل؟**

- أصور وأخرج أفلاماً ومسلسلات، وأنشر ذكرياتي ومعاناتي.

- **مثل ماذا؟**

- كتاب "حرب الجياع" الذي يقع في أكثر من ثلاثمائة صفحة، والذي أهديته إلى أمي وظلها الذي حماني فغفوت عنده واسترحت، إلى أمي العربية، وكتاب "ساعات من الحب" الذي أهديته إلى روح والدتي التي علمتني أن الحياة تستحق أن تعاش، وكتاب "أبو سعدة في شوارع العالم"[1] وفيه أسجل ذكرياتي في أماكن متعددة في الدنيا: مطار بنوم بنه عاصمة كمبوديا. أديس أبابا، الكونغو. الفييتنام. دلتا الميكونغ. القاهرة،

---

(١) في جزئين.

السودان، كوناكري. أرتيريا. وكتاب "مكان دائم في الجنة" الذي أهديته إلى المقاومين المجاهدين في فلسطين الأبية، وإلى روح شهيد الأمة العربية والإسلامية الشيخ أحمد ياسين. والذي أتحدث فيه عن الحقد اليهودي وأقوى مؤامرة حاكتها دول التجبر والبغي.

- **يلفت النظر هذا التحول إلى كاتب من مصور بالكاميرا إلى مصور بالكلمة**

- أردت أن أقول دائماً، سواء بالصورة الفوتوغرافية أو بالصورة التلفزيونية، أو بالكلمة ما اعتقدت دائماً أنه حق وواجب. "إذا لم تكن قادراً على أن تتكلم بيديك أو بلسانك فبقلبك.. وهذا أضعف الإيمان".

❖ ❖ ❖

لم أتردد في اللقاء مع أحمد أبو سعدة، لأنني وجدته مغامراً دمشقياً من الدرجة الأولى. إنه جدير بأن يكون بين الدماشقة البارزين الذين التقيتهم.. بامتياز، في هذا الكتاب.

محطات

- أول من قدم فيلماً روائياً في التلفزيون السوري إخراجاً وتصويراً عام ١٩٦٢م.
- نال عدداً من الجوائز، منها الجائزة الثانية في مهرجان " لايبزغ ".
- انضم إلى العمل الفدائي الفلسطيني في غور الأردن وجنوب لبنان.
- اشترك في ثورات متعددة في غينيا بيساو، وجزر الرأس الأخضر، وظفار، والصومال الغربي "أوغادين"، وفي الفيلبين "مورو"، وفي تايلاند والكونغو وأنغولا.
- عمل مراسلاً حربياً في الفييتنام أثناء الحرب الفييتنامية - الأمريكية.
- عمل مراسلاً حربياً في حرب تشرين التحريرية.
- متزوج وله عدة بنات وأولاد متزوجين.
- صدر له مؤخراً كتيب "جنوب السودان وآفاق المستقبل"، سيصدر قريباً كتاب "كنت في الفييتنام" وكتاب "كنت في ظفار".

د. غسان الرفاعي

أي جانب أكتب عنك؟

تربطني بالدكتور غسان الرفاعي صحبة قديمة، عمرها نصف قرن. وكان في أول قائمة الذين قابلتهم وسأقابلهم، لكنه اليوم في دمشق، وغداً وبعده، وبعد الذي بعده في باريس، فتأخرت المقابلة كثيراً، إلى أن حاصرته في زاوية في مقهى الروضة بدمشق، وكان قد جاء ليحضر عرس ابنة أخيه المرحوم منذر في حلب، فهددته.. قلت: "سأكتب اللقاء، دون أن ألقاك وسأنسبه إليك، لأنني أعرفك أكثر مما تعرف نفسك" عندئذٍ رضخ واستمع إلى أسئلتي وأجاب عليها، ثم شمع الخيط وهرب دون أن نكمل الحوار.

والواقع أنني ترددت، أي جانب أكتب عن الدكتور غسان، عن جانب طرافته وظرفه أم عن حديثه الذي لا تمله، أم عن غربته الطويلة، أم عن جانب علمه وأدبه وكتاباته الصحفية، أم عن إتقانه اللغات العربية والإنكليزية والفرنسية، إتقاناً عجيباً أم عن تهربه وكذبه وإهماله لنفسه، بحيث وصف بالدمشقي الهارب؟

الاغتراب

- لك زمن وأنت مغترب في باريس؟

- الظروف تقود الإنسان، أكثر مما يقودها، ظروفي..

- هل أستطيع أن أعرفها؟

- أنت تعرفها، ففيم السؤال؟

- الجواب ليس لي، بل للقراء.

- بدأت الاغتراب عندما عينت مديراً لمكتب "سانا" في باريس، وأنت زرتني فيه، وبعد ذلك ارتبطت بأعمال صحافية وكتابية أمسكتني عن العودة.. فبقيت في باريس وأدمنتها، أنا الدمشقي الذي كان لا يفكر بغيرها.

- **أي اغتربت، كم طال هذا الاغتراب؟**

- أكثر من ربع قرن، لكنني، أنا مغترب "مودرن"، كل شهر أركب الطائرة وآتي إلى دمشق، عشقي، وها أنذا اليوم في دمشق..

- **هل هي دمشق ذاتها التي عرفتها في الربع الثاني من القرن العشرين؟**

- لا شك في أننا تغيرنا كثيراً أنا وهي، مع ذلك أنا أحبها.. هكذا المدن العظيمة، كثيراً ما تتغير، لكنها تبقى أثيرة عند أهليها، وسكانها ومحبيها.

لا أبالغ أن هذه الفقرة من الحوار قد دامت أكثر من ساعة سماعة، لأن الدكتور غسان مرح بطبعه، ولا يترك كلمة تمر دون أن يرفدها بحكاية أو قصة، دماغه مملوء بالذكريات والقصص والنكت عن أشخاص كثر مروا بحياته فأغنوها، ولا بد أن يمزح بخصوصهم.

خريج دورة الـ ٥٢

- **متى ولدت يا دكتور؟**

- تريد أن تفسد علاقتي بالنساء؟

- **هذا تقليد.**

- ولدت عام ١٩٣٢ م، ودرست في مدارس دمشق وجامعاتها، وتخرجت عام ١٩٥٢ في الفلسفة وعلم النفس.

- **هل يوحي لك تخرجك بشيء، وإن كنت أشك في تاريخ مولدك؟**

- يوم التخرج رفض راغب السباعي، المحامي فيما بعد، أن يأخذ شهادته من بطل الانقلاب السوري المرحوم أديب الشيشكلي، وهتف في الحفل "لا يشرفني أن آخذ الشهادة في بلاد تداس فيها الحقوق".

- **موقف هام لخريج مثلك؟**

- هام طبعاً. كنا شباناً في أول طلعتهم. نشتهر لعلمنا وثقافتنا ووطنيتنا..

- **ثم ذهبت إلى جنيف للحصول على الدكتوراه؟**

- نعم. أنت تعرف، ففيم هذا الاستجواب؟

- **وتزوجت هناك؟**

- نعم..

- **من فتاة من آل الرفاعي، لكنها ليست قريبتك، على تشابه النسبتين؟**

- نعم.

أغاظني بترداد كلمة "نعم" فاستثرته بسؤال:

- **هل نلت الدكتوراه أم لم تنلها؟**

وسبني، فابتسمت، لقد أثرته، لكنني لم أغضبه. قال:

- أنا صاحب مشروع "التدريب المستمر" الذي تبنته اليونسكو، وقد درست في كليتي الآداب والتربية، فكيف لم أحصل على الدكتوراه؟

قلت له:

- **لكنك اشتغلت في الصحافة؟**

قال:

- عملت في الصحافة: الطليعة، عصا الجنة، النقاد، الصرخة، الدنيا. وكان لي وجود دائم في الصحافة على الرغم من أنني كنت موظفاً في وزارة التربية، بعد عودتي من جنيف وقبلها.

- **ماذا تحمل من ذكريات عن وزارة التربية؟**

- كان سليمان الخش، المرحوم، وزيراً للتربية، يوم طلع مرسوم إلغاء تعليم اللغات الأجنبية في المدارس السورية، اجتمعنا لبحث هذا المشروع، وكان في اللجنة الأستاذ الدكتور محمود السيد وزير الثقافة وقت اللقاء، وأحمد القادري وأنا. وقد ترنم القادري بالمشروع وقال إنه لم ينم

لفرحته، لأن في مشروع الوزير صوناً للأجيال، ظللت صامتاً فنظر إلي المرحوم سليمان يريد أن أبدي رأيي فقلت له: "لو ترك الأمر لي لأعلنت أن ما جرى يستحق أن يصبح يوماً للحداد الوطني". فوجئ الوزير.. فأكملت: "العرب بنوا أمجادهم على ما ترجموه وخاصة من اليونانية. أهذا عمل حضاري؟ أتحمي الفكر بهذه الطريقة؟ بعد سنوات سألني خدمة أن أجعل ابنته الموهوبة تدرس في أوروبا، فذكرته بما اقترفه، فقال قولاً اسمح لي أن احتفظ به لنفسي.. لأنه..

ولم يكمل. فعرفت أنه لا يريد الغوص فيما لا يحبّ. فلم ألح.

مع سارويان

كان غسان رفاعي معجباً بكاتب قصة أمريكي من أصل أرمني، اسمه "وليام سارويان" وقد ترجم له عدداً من القصص القصيرة، لشد ما أخذنا بها في الخمسينات، لكنني عرفت، بطريقة ما، أن الرفاعي اختلق قصصاً ألفها ونسبها إلى سارويان، وكنت دائماً أحب أن أسأله فيما يخص هذا الاختلاق:

- كان وليام سارويان على فراش الموت في مستشفى "سال بريتيرير" في باريس، عندما زرته، وقد قلت له قبل أن يموت بأيام "إنني أرجو عفوك لأنني ترجمتك إلى العربية دون إذن منك، لأن الآداب العربية ترجمت كنوع من الخدمة" فهز رأسه أنه يفهم ويعذر"، وقلت له إنني اختلقت جزءاً من قصته، أضفتها إلى قصتك "آه يا فاهان" فأرجو عفوك. فنظر إلي مستفسراً. فقلت: "القصة لها بطلان أخان وأم في مزرعة. وكانت الأم تحبهما وتقول لواحد إذا ما أخطأ" آه يا فاهان "إلا أنها لم تقل لابنها ذلك عندما وقع عن دراجته وكسرت قدمه، لهذا أضفت مقطعاً تردد فيه الأم كلمة" آه يا فاهان " فأرجو أن تسامحني أيضاً، ورأيت سارويان يوافقني على ما فعلت. هذه هي قصة الاختلاق.. من بابها لمحرابها.. فلا تتهمني بالاختلاق بعد اليوم.. يا حبيبي يا عادل.

ليس له كتب

ضحكنا. كم كانت قصص وليم ساroيان جميلة، تعلمنا منها نحن القصاصين في بواكيرنا.

تذكرت أن الرفاعي كان عضواً في رابطة الكتاب السوريين، ثم العرب التي كنا أعضاء فيها، غير أن كلاً منا قد مضى في طريق الكتابة وقطع أشواطاً وأنتج كتباً إلا غساناً وحده. لم ينشر نتاجه في كتاب، بل نشر في مئات المجلات في مشرق الوطن العربي وفي مغربه، وتجاوزها إلى النشر في دوريات أجنبية باللغتين الفرنسية والإنكليزية..

سألته:

- **لماذا لم تنشر كتباً حتى اليوم؟**

قال:

- الإهمال. لقد بلغت أرذل العمر وما أزال أفكر بأن أكون أكثر نضجاً، وها قد مرت الأيام وراء الأيام، وتبين لي أنني أجنح إلى الخرف. إنها حالة من عدم اللامبالاة. الإهمال. التقصير. المرض..

قلت:

- **هذا تبرير لا يضع الأمور في نصابها.**

سأل:

- كيف؟

أجبت:

- **لأنك ساهمت في إنشاء صحف ومجلات، كان بإمكانك أن تجمع مقالاتك في مجلدات، لأنك كتبت منذ كان عمرك ١٨ وحتى صار ٧٤، آلاف المقالات الجيدة التي لها قراؤها ومتابعوها لا في سورية فحسب، بل في الوطن العربي وفي الخارج. اسمح لي أن أقول لك بصراحة: أنت مقصر بحق نفسك.**

قال:

- فعلاً أنا مقصر.. يا حسرتي على نفسي.

قلت:

- **لنتدارك هذا التقصير. عدني أن ترسل إلي مقالاتك لأنشرها في كتاب.**

ومع أنه وعدني إلا أنني كنت أشك في هذا الوعد، فهو رجل ينسى، ولا يعيش إلا في لحظته الآنية، وتلك مشكلة الصديق العزيز د. غسان الرفاعي.

مجلة "شمال جنوب"

وراح يستعرض ما كتبه منذ حوالي ٦٠ سنة: يوميات نزقة في جريدة تشرين التي شارك في تأسيسها مع جلال فاروق الشريف وجبران كورية وعبد الله خالد وأنا. يوميات شبه ثقافية في مجلة "المحرر" التي استلم رئاسة تحريرها عندما كانت تصدر في باريس. وها هو الآن يكتب يوميات غير متزنة، بالإضافة إلى ما كتبه وترجمه في صحف الخمسينات والستينات والسبعينات والثمانينات.. وهكذا حتى اليوم (١٥ أيلول ٢٠٠٥).

قال:

- أنا أكتب الآن بالإنكليزية والفرنسية في مجلات تصدر في أوروبا، هل تعرف يا عادل أنني أصدرت مجلة بعنوان "شمال جنوب".. كان يكتب فيها جاك برك وروجيس دوبريه وأنا وآخرون، وكانت لها سمعة عطرة وقراء..
- **لماذا لم تعد تصدرها الآن؟**
- شخت ومرضت. العمل الصحفي يحتاج إلى صحة وشباب.

"سانا" أول الاغتراب

أسهمنا في إنشاء جريدة "تشرين" وكنا بضعة عشر صحفياً فقط هم الذين أصدروا هذه الصحيفة التي امتلأت اليوم بالصحفيين والمحررين، غير أنها لم تضف إلى سمعتها التي تركتها عند القراء منذ بواكيرها الأولى. كان غسان رئيساً

لتحرير قسم الدراسات، وكان نشطاً، ثم حل محل المرحوم جلال فاروق الشريف بعد أن استقال، وأصبح رئيساً للتحرير بالوكالة عدة أعوام، ثم عين مديراً لمكتب "سانا" في باريس، فكان اغترابه الذي دام طويلاً، وإن أثمر في الصحف والمجلات التي تصدر بلغات أجنبية يتقنها، وتصدر باللغة العربية في دمشق بجريدة "تشرين" التي عاد إليها كاتب زاوية، ولمجلة "الرجل اليوم" التي تصدر في الإمارات، وله فيها زاوية دائمة..

مع هيكل..

- كان عندي برنامج تلفزيوني أيضاً..

- **ما هو؟**

- أضواء على الأحداث..

- **ماذا كنت تقول فيه؟**

- من اسمه تعرف مضمونه، يمنح أنه كان يضم استثناء، مقابلات مع مشاهير في الفكر والأدب والصحافة.

- **مثل من؟**

- مثل محمد حسنين هيكل..

- آ- **يقال إن هيكل قد بطحك يوم لقيته في برنامجك.**

- بطحني، صرعني.. كلها أقاويل بأقاويل.. يا رجل.

- **احك لي قصة لقائك مع هيكل.**

- عندما أردت أن أستضيفه، كان مصراً على أن يكون اللقاء على الهواء، أي غير مسجل. وافقت، وإن كنت قد شعرت بأن هناك شيئاً لم أحبه، فقد كنت أخشى أن يقول ما لا تحب في سورية.

- **لم يقبل حديثاً أو لقاء مسجلاً؟**

- نعم. بصراحة توجست من إصراره على الظهور على الهواء، جرى اللقاء وكانت هناك أربع نقاط بارزة.

- **ما هي؟**

- النقطة الأولى التي تحدثنا عنها هي إمكانية أن توقع مصر على اتفاق سلام مع إسرائيل. قلت: إن مصر ماضية في هذا الأمر، وقال هيكل: إنه يستبعد حدوث ذلك.

- **والنقطة الثانية؟**

- تحدثنا عن جسر جوي بين دمشق وموسكو ومصر، وعن جسر جوي آخر بين واشنطن وتل أبيب، فقال هيكل: إن الأسلحة كانت توزع بين مصر وسورية طناً بطن.

- **النقطة الثالثة؟**

- تحدثنا عن النفط، فقال هيكل: إن النفط لن يستخدم إلا إذا وضعت الحرب أوزارها. وكلنا يعرف أن الملك المرحوم فيصل حجب النفط في تلك الأيام.

- **النقطة الرابعة؟**

- طرحها زميلي في اللقاء أحمد حلواني عندما سأل هيكل عن رأيه في الصحافة السورية، فقال هيكل إن الصحافة أحد الأمرين إما صحافة رأي أو صحافة خبر، والصحافة في سورية "لا دي ولا دي". هذه هي النقاط الأربع التي دار حولها النقاش، بعد أربعة أشهر وقعت مصر السادات اتفاق سلام منفرد مع إسرائيل. واتهم السادات بالخيانة، وقد أقر هيكل بأنه أخطأ في هذا اللقاء، مع ذلك قال مثيرون أن هيكل بطحني أو صرعني بالضربة القاضية.. غير مهم لهيكل سمعة تبطح من يقول عكس ما يقوله في حوار على الهواء.

السياسة.. السياسة

- **أفهم من تلخيصك للنقاط الأربع أنك تحب الغوص في السياسة؟**
- نعم أحب.
- **لماذا لم تصر سياسياً؟**
- كل إعلامي سياسي. وإن لم يشتغل بالسياسة اليومية..

مع ذلك أجد أن غسان رفاعي يحب السياسة من باب الحديث عنها وفيها، لا من باب الاشتغال بها، فهو يسأل كلما لاقاك: "شو في.. شو ما في؟" لا لينتظر جوابك، بل ليتدفق هو بالحديث عن في أو ما في. هذه اللعبة تستهويه، يمطرك بها مكسوة بالملح والنكات والفكاهات، حتى لتحسب أن الغاية هي الحديث الفكه أكثر من أي شيء آخر. وفي رأيي هذا الرجل يصلح لحقبة الديمقراطية أكثر من صلاحيته لحقب أخرى، فهو جاء في غير زمانه، مواهبه كلها جاءت مبكرة قليلاً أو متأخرة قليلاً.

أولاده.. ومزاجه

- **كم ولداً لديك؟**
- ثلاثة. صبيان وبنت. شريف (اسم والدي) ووسيم وهلا.
- **جميعهم يعيشون معك؟**
- الصبي صار محامياً وهو يعمل في دمشق، والبنت والآخر متزوجان بفرنسا مغتربان مثلي.
- **وزوجتك؟**
- حمصية من آل الرفاعي، حمصية تزوجت دمشقياً !
- **ألم تكن تعرفها؟**
- التقيت بها في جنيف، وتزوجنا.
- **يقال إنه في يوم زواجك، والعروس تنتظر، دخلت في رهان حول لعبة الطاولة، واستغرقك اللعب طويلاً فكدت أن تنسى الزواج؟**

- قبحك الله على فريتك هذه !

أليست حقيقة؟

- شائعة فوق شائعة تصبح حقيقة.

- **جرى الأمر نفسه معي شخصياً.**

- كيف؟

- **كنت في دعوة إلى استوكهلم، وكلمتك هاتفياً بأنني قادم إلى باريس فقلت لي أنك ستنتظرني في المطار، لما وصلت لم أجد أحداً. في صباح اليوم التالي رأيت في مقهى الشانزلزيه المرحوم عبده قطرميز، كان يضحك كثيراً، قلت: "لماذا تضحك؟" قال: "د. غسان عملها فيك، كان يلعب معي بالطاولة فلم يذهب إلى المطار".**

ضحك بشدة، له ضحكة تشبه صهيل خمسة خيول.

- لكنني رأيتك بعد ذلك وأكرمتك..

- **أجل ذهبت بي إلى مطاعم ومنتزهات**

- شيء يغطي شيئاً..

كان له مزاج التعلق باللحظة الآنية. هو يكره المواعيد والارتباطات. يعشق أن يعيش على هواه. ومع ذلك فإن له حضوراً عند الناس. يستقبلونه بالترحيب، ويتركونه يتحدث، لأن حديثه ممتع، ولحبه اللحظة الآنية.. قصر بحق نفسه.

- أنا مقصر بحق نفسي؟ غير ملتزم.

- **أنت اعترفت منذ لحظة**

- بمسألة الكتب معك حق..

وقام فجأة:

- بخاطرك.

- **لم ينته اللقاء.**

- نكمل غداً.. عندي موعد ضروري جداً.

- غداً؟ وعد؟

- وعد ونص !..

جاء الغد، وبعده غد آخر وثالث ورابع وغسان عنده شيء يريد أن يقوله في اللقاء، لكنه لم يأت. لست أدري السبب.. هذا الوعد الذي ضربه معي، ومع غيري يعبر عن خلاصة غسان، فهو مثل العصفور الباحث عن الطيران الدائم، وعدم الانكماش في قفص.. مع ذلك أحب غسان الرفاعي، فهو صديقي وأنا أقبله على علاته !

❖ ❖ ❖

الحوار امتد ساعة وبعض الساعة، وكان في نيتي أن أوجه إليه أسئلة حارة، لكنه مضطر إلى الذهاب لموعده، أنا منتظر هذا الغد. هل يحتاج الأمر إلى زواج يحمله إلى دمشق لألقاه مصادفة وأكمل معه اللقاء؟!

رفيق السبيعي

الناس سموني "فنان الشعب"

ذات يوم من ثمانينات القرن العشرين، كنت في بودابست، مبعوثاً من اتحاد الصحفيين، مع قاسم ياغي وسلمى كامل، عندما رأيت وسمعت فناننا السوري ابن دمشق رفيق السبيعي في لقاء في التلفزيون الهنغاري. عجباً، كيف وصل هذا الفنان إلى تلك الأداة الإعلامية الأجنبية يتحدث فيها بلغته العربية عن بلاده ومدينته وفنونها ومعالمها وشخصيتها؟ عرفت، بعد ذلك بربع قرن أنه كان يحضر مؤتمراً للتمثيل والممثلين، يحضره البارزون منهم في العالم.

خلفية فنية

سألته، وكنت في لقاء معه في "مقهى السياحة" بدمشق:

- **حدثني عن هذه الواقعة؟**

قال، كأن الأمر طبيعي، لا يستدعي الدهشة:

- مؤتمر عالمي، حضرته واستضافني تلفزيون المجر، كواحد من حضوره.

الممثلين البارزين

سألته:

- **كم عمرك مدّك الله بالمزيد؟**

قال:

- خمس وسبعون سنة. أنا من مواليد عام ١٩٣٠.

ولد الفنان رفيق السبيعي بعد وفاة أبي خليل القباني بحوالي ٣٠ سنة. كانت دمشق ما تزال محافظة، لا تتقبل كار التمثيل بيسر، كما هي عليه الحال اليوم، فسألته عن بداياته. أجاب مع ابتسامة:

- كنت طفلاً، وكنت أذهب كل عشية إلى بيت خالي بالعمارة، من بيتنا في "البزورية"، وعندما أعود عن طريق "النوفرة" كان يستوقفني في مقهى النوفرة حكواتي اسمه "أبو أحمد المنعش" حتى ينتهي.

كان يرفع قنبازه من طرفيه إلى خصره، ويصول ويجول ضمن صفين من النراجيل مع مدخنيها الذين يستمعون إلى قصة شعبية: "الملك الظاهر"، "الزير سالم"، "عنترة" لم يكن يقرؤها، بل كان يمثلها. مثل هذا المشهد شكل خلفية لحياتي الفنية في المستقبل، إضافة إلى حبي للغناء منذ الصغر، فقد كنت مولعاً بسماع "صندوق السمع" - أي الفونوغراف - الذي كان جديداً في دمشق.

- **ما الذي كنت تسمعه في "الحاكي"؟**

- أسمع النيل نجاشي لعبد الوهاب. كنت في الثامنة من عمري.

- **ماذا تقول هذه الأغنية؟**

- يقول مطلعها:

النيل نجاشي حليوه واسمر
عجيب للونه دهب ومرمر

كانت هذه الأغاني تهزني فأسبح في بحرها.

- **لمن النيل نجاشي؟**

- تأليف أحمد شوقي عندما كتب زجلاً خاصاً لعبد الوهاب.

- **ما الذي كنت تسمعه أيضاً؟**

- كنت أسمع سلامة الأغواني، وأذكر مونولوجه الناقد حتى اليوم:

يا لطيف القمار مـــاللا كار
وقعنـــا فيـــه.. كبار وصغار

- **شكل الغناء إذاً خلفية فنية لمسيرتك وأنت طفل؟**

- أجل، لكن ثمنها كان "قتلة" من والدي، كل مرة.

كوميديا ارتجالية..

- كان أبي يحاول أن يعلمني صنعة، أساعده فيها على حياة الفقر التي كانت عائلته المؤلفة من ١٢ فرداً غارقة فيها. كان أبي يعمل في الترانزيت مستخدماً عند أقاربه الأغنياء، ولم يكن بمقدوري الثبات في أي كار، لأن خلفيتي الفنية كانت السبب في فشلي بتعلم أي صنعة. وفي مسيرة شبابي توظفت عدة مرات وانسحبت لأنني لم أكن أجد نفسي فيها.

- **عانيت إذاً في طفولتك؟**

- في طفولتي وشبابي، المعاناة كانت أقسى من الحياة القاسية نفسها. تشردت ونمت في الفرن، وغيبت عن المنزل، وأكلت في بيتنا بالسرقة، وكنت خالي الوفاض دائماً، لكنني كنت غنياً بحبي للفن. كان الفن ثروتي الحقيقية.

- **مع ذلك كنت هاوياً؟**

- لم يكن الاحتراف في الفن كما هي الحال اليوم. كان ينظر إلى الفن نظرة دونية وإلى الفنان نظرة أكثر انحطاطاً، وفي هذا الجو انخرطت لأول مرة في عمل فني مع ثنائي كوميدي هو الثنائي "جميل خربوطلي وأبو رمزي" كانا يقدمان فصولاً ضاحكة ارتجالية في المناسبات والأفراح وقد بدأت معهما في مسرح مرتجل كان يقام في العيد، وقبضت أول أجر لي ثمناً لحبي للفن.

- **كم كان أجرك؟**

- ليرة سورية واحدة!

- **قلت إنه مسرح مرتجل ماذا تعني؟**

- أعني أنه دون نص.

- **دون نص؟**

- كانت كوميديا "دي لارتي"، وهذه تعتمد على وجود فكرة، وكان على الممثلين إكساؤها بجمل، تضحك.

بعثة في القاهرة..

- تعرفت في ذلك الوقت على الممثل القدير المرحوم سعد الدين بقدونس. فذهبت معه إلى اللاذقية. كان مسرح "شناتا" صيفياً وشتوياً، وفوجئت بأنه عمل في هذا المسرح ممثلون كبار.

- **مثل من؟**

- يوسف وهبي مثلاً.

- **مثلت فيه؟**

- لم أمثل بل غنيت.. كنت مطرب الفرقة، (إلى أن غاب أحد الممثلين، فقرر سعد الدين بقدونس أن أحل محله ونجحت، لذا قررت المضي في التمثيل).

- **من هذه اللحظة صرت ممثلاً؟**

- نعم، لكنني بدأت كملقن.

- **أين؟**

- في مسرح النصر ومسرح الأندلس بدمشق. كنت أتطلع إلى التمثيل، لكن الفرصة لم تأت بعد، وكان مثالي في ذلك الوقت ممثل رائع اسمه "أنور المرابط".

- **لماذا أنور المرابط؟**

- لأنه عانى مثل معاناتي. كان ابن أسرة دمشقية عريقة. مثلي. لكنه كان مصراً على التمثيل والفن مثلي أيضاً. طردت من البيت مثله، وعانيت الأمرين لأثبت أقدامي في هذا الكار.

- **أخيراً نجحت؟**

- نجحت.

- **أذكر أنك كنت من أوائل الممثلين الشبان الذين التحقوا بالمسرح القومي، ولقد شاهدتك تمثل وبالفصحى .**

- نعم، على الرغم من ممانعة البعض في انضمامي للمسرح القومي !!

- **لماذا؟**

- لأن فن التمثيل في بلادنا سطا عليه "برجوازيون"..

- **من هم؟**

- الدكتور رفيق الصبان. كان لا يؤمن بنا نحن الذين نمثل في الفرق الخاصة. أراد بناء المسرح من فوق، ناسياً جهود عشرات أرادوا بناءه من تحت، اعتماداً على الناس، مع ذلك كان ثمة من يؤمن بي.

- **مثل من؟**

- د. صباح قباني الذي طلب مني في القاهرة أن أزوره في التلفزيون الذي بدأ بثه في أوائل ستينات القرن الماضي بدمشق.

- **هل ذهبت إلى القاهرة؟**

- في أوائل عهد الوحدة أوفدت إلى القاهرة في بعثة لأتعلم الفن الإذاعي.

- **هذه مفاجأة بالنسبة لي ..**

- مفاجأة لي أيضاً. كانت النفوس ملأى بحب العمل من أجل الوطن. مثلت مسرحية "أبطال بلدنا" ليعقوب الشاروني، وهو مصري، عن أعمال المقاومة الشعبية، وقمت بدور "الملك لويس التاسع" ولفت انتباه مخرج أردني عمل في سوري هو "هاني صنوبر" - الذي اكتشف طاقاتي في أعماله المستمدة من الأدب العالمي الرفيع فيما بعد - وصدف أنني قدمت طلباً للعمل في المسرح القومي، وآخراً للعمل كمخرج إذاعي، فنجحت وأوفدت إلى القاهرة.

الدراما في الإذاعة والتلفزيون

- **هل استفدت من دراستك في القاهرة؟**

- أجل، أخرجت ومثلت عدة تمثيليات ومسرحيات إذاعية !

- **أذكر أنك مثلت لي عدة أعمال في الإذاعة؟**

- لا أزال أذكر تمثيليتك "بائع التفاح" ومسلسلك الذي بث من إذاعة لندن: "الزير سالم"

- **أذكر أنك كنت مجلياً في التمثيليات الإذاعية؟**

- نعم. لكنني اتجهت إلى الدراما في التلفزيون. وقد مثلت لك مسلسلة "هذا الرجل في خطر" الذي كتبته أنت ومثل أحد أدوار البطولة فيه المرحوم عدنان بركات.

شخصية أبو صياح

كان رفيق السبيعي قد تزوج سيدة من الوسط الفني، وأنجبت له - عنده الآن ستة أبناء - ٣ ذكور و ٣ إناث، و١٢ حفيداً - وكان من أوائل من عملوا في الدراما التلفزيونية، معتمداً على حضوره المتميز وخبرته التي كسبها من مشواره الطويل، وفصاحة نطقه التي جاءته من قراءته للقرآن الكريم في صغره، وقد اشترك في أعمال "دريد ونهاد" الأولى، عندما كان دريد يعتمد شخصية "كارلوس" للتلفزيون، قبل شخصية "غوار" وقد مثل معهما بشكل منتظم في معظم الأعمال، حتى سموا "الثالوث"، بدءاً من "عقد اللولو" و"مقالب غوار" و"حمام الهنا" اللذين غبن حقه فيهما، إذ كان الإنتاج قد أعد في سورية، مع نسخة يبيعها دريد ونهاد إلى العالم العربي لصالحهما، مما عده رفيق قسمة غير عادلة ولا تتناسب مع "الثالوث" الذي كان يعتمده في علاقته بدريد ونهاد، وقد نشأ الخلاف مع دريد، واعترف نهاد بأن رفيقه بخيل..

- **ألم تستفد من بعدِك عن دريد؟**

- استفدت..

- **كيف؟**

- اكتشفت شخصية "أبي صياح" فيّ. كانت هذه الشخصية محببة وشعبية وجماهيرية، وخاصة في قاع المدينة. هذا الـ"أبو صياح" رافقني على الدوام، وسكن روحي، وأحدث صراعاً داخلياً عميقاً بينه وبين "رفيق السبيعي" لكنه كان معيني في الأوقات الحرجة.

- **لم يعد هناك أوقات حرجة بعد نجاحك؟**

- قصدت فنياً. أنا أحب الغناء، وتتلمذت على يد الأغواني في المونولوج الناقد، فاتجهت إلى هذا النوع من الفن، مرتدياً لباس أبناء الشعب، واضعاً الخال على خدي، وشاربين كثين فوق فمي، وبدأت رحلة الغناء الناقد بأغان ضاحكة سميت ضاحكة، لكنها كانت ناقدة:

داعيكم أبو صياح

معدل عالتمام

حتى عيش مرتاح

عيش عالنظام..

ليش؟ لأني تمام!

كان المؤلفون يؤلفون هذا النوع من الأغاني، ويلحنها عدنان قريش، وقد لحن منها شاكر بريخان[1]، مده الله بثوب العافية، كثيراً.

- **يا ولد لفلك شال وتعلم شغل الرجال..**

- نعم هذه من ألحان بريخان. وقد قدمتها لأول مرة في برنامج ٧×٧ للمخرج خلدون المالح الذي طلب مني الظهور في كل حلقة من حلقات برنامجه التلفزيوني الناجح.

(١) توفي عام ٢٠٠٧ رحمه الله.

- **أذكر في هذه الفترة أن مجلة الإذاعة ظهرت وعلى غلافها صورتك بشخصية "أبو صياح".**

- نعم. كان سعيد الجزائري رئيس تحرير المجلة وقد قال لي بالحرف الواحد: "روح اشتري صندوق حديد" مما يعني أن هذا الكار الذي ظهرت فيه سيبيض ذهباً.

٤٥ فيلماً..

كان المجد قد فتح أبوابه لرفيق السبيعي. صار ممثلاً بعد أن كان ملقناً وممثلاً بالصدفة. ومطرباً بالعيرة، ومطرباً ذا شخصية خاصة، ومؤدياً لأدوار عدة على المسرح وفي السينما.

- **قل لي، ماذا قدمت في السينما؟**

- قدمت ٤٥ فيلماً.

- **هل أنت راض عنها؟**

- أعتز بستة أفلام منها. أما الباقية فكانت وسيلة انتشار ومحكومة بقوانين الوسط الفني، والداخلين إلى صناعة السينما دون أن يعرفوا ما هي.

- **مع من اشتغلت في السينما؟**

- مع نيللي ومحمد جمال "نساء للشتاء"، مع سميرة توفيق في فيلم "أيام في لندن"، مع يوسف شعبان وعبد المنعم ابراهيم في "المدينة الهادئة" الذي صورناه في حلب باللهجة الحلبية وقد فشل فشلاً ذريعاً. أفلام كثيرة مثلتها وأعتز بأنني عملت فيها: مع المصري المخرج هنري بركات. ومع الجزائري "سليم رياض" ومع السور ي"محمد ملص".

- **ماذا قدمت من إخراج محمد ملص؟**

- "أحلام المدينة". وقد هنأني نور الشريف، وقال لي: "دورك في أحلام المدينة صعب جداً".

نقيب.. ولا نقيب

خمسة وسبعون عاماً من التعايش اليومي مع الفن في سورية، يمكن أن ترينا المشهد كله بانورامياً. كيف كان وكيف صار. كان الفن كاراً منظوراً إليه بحذر، وأقول بحقارة، واليوم صار الفن سيد الكارات مقبولاً من الناس جميعاً، يستهوي أبناء العائلات قبل غيرهم، والمقياس و الموهبة والخبرة والنضج، والأرضية الفكرية والثقافية التي يعتمد عليها الفنان.

رأيت الفنانين الأوائل في جدهم لبلوغ نهاية الطريق الصعبة، وتأكيد هذا الكار واحترامه. كانوا يتبادلون الخبرات فيما بينهم، ويحاولون أن يوصلوا أصواتهم للناس. لكن الناس لم يكونوا في وارد احترام مهنة الفن، وقد سعى رفيق السبيعي إلى بناء نقابة للفنانين. كان يصرخ باستمرار حتى كان له وللفنانين هذه النقابة التي أحدثت عام ١٩٦٨ لكن تدخلات، كانت تضع الأسماء غير المناسبة على قمة الهرم في النقابة، وهذا ما جرى لرفيق السبيعي ذات يوم عندما نجح لأول مرة كنقيب وتنازل لدريد، ونجح مرة ثانية فعين غيره نقيباً بهاتف من مسؤول.

- **متى كان ذلك؟**
- في انتخابات عام ١٩٨٤.
- **لكنك بقيت عضواً في مجلس الإدارة**
- أجل.. نهايته.. الحياة الفنية ليست على ما يرام تماماً.

يحرك المشاعر

تزوج رفيق السبيعي وكان عمره ٢٦ سنة ورزق أبو عامر بعامر وبشار وسيف الذي سار على نهج أبيه فصار ممثلاً ومخرجاً متميزاً، ورزق بثلاث بنات تزوجن جميعاً، وله الآن ١٢ حفيداً، يفخرون بجدهم الذي كافح في

مسيرة الفن حتى صار واحداً من ألمع نجوم الفن لا في سورية فحسي، بل في جميع أنحاء الوطن العربي، وله عشرات الأعمال المتنوعة في الإذاعة والتلفزيون والمسرح والسينما والمونولوج، وشخصية "كاركتر خاص" أبي صياح الذي يقف على المسرح فيهز ضمير الناس ويحرك عواطفهم ومشاعرهم. "شرم برم كعب الفنجان"

فنان الشعب

قلت أسأله عن لقب طالما سمعت الناس يلقبونه به:

- **يسمونك "فنان الشعب". كيف حصلت على هذا اللقب؟ ومن الذي أعطاكه؟**

قال وهو يبتسم:

- لم أحصل عليه من أحد. الناس سموني فنان الشعب. لقب أعتز به، وهو أجمل نيشان وضعه على صدري جمهوري الحبيب، لا في سورية، بل في جميع أرجاء الوطن العربي.

سألته:

- **إلى من ترد نجاحك في كار التمثيل بخاصة والفن بعامة؟**

قال:

- إلى عدة أشخاص.
- **مِن هم؟**
- الحكواتي أبو أحمد المنعش، عبد اللطيف فتحي، سعد الدين بقدونس، محمد علي هبدو، الكوميديون السوريون الذين جاهدوا قبلي لتثبيت دعائم الفن، هاني صنوبر المخرج الأردني الذي اكتشف طاقاتي الفنية وفجرها، سليم قطايا وجميل ولاية المخرجان التلفزيونيان الرائعان، شاكر بريخان كاتب وملحن الأغاني.. وقبل هؤلاء.. الناس الذين أنصفوني.

حب الوطن

- **الآن وقد بلغت ما تريد. ما هو برأيك مستقبل الفن في سورية؟**
- أنا شخصياً أشعر بأن الدراما بشكل خاص، والفن بشكل عام قد نجحا، لأنهما كانا نتيجة جهود شخصية وطموحات لفنانين حقيقيين.
- **أي ليس بدعم الدولة؟**
- ليس بدعم الدولة كما يجب.

وأردف:

- علينا نحن كلنا أن نحب فننا ونعطيه، لقد رفضت البقاء في مصر عندما تهيأ لي ذلك، وقررت العودة لأخدم قضية الفن في بلدي. على الجميع أن يتصرفوا بنفس الحرارة.

معرفة فنية..

كنت قد حضرت في أوائل الستينات حفلاً في دار المرحوم نزار فؤاد، زوج الممثلة ميليا شمعون التي سميت ميليا فؤاد وقد غنى الجميع أغنية جماعية جميلة، وكان بينهم رفيق نفسه، تقول:

مين ده اللي كابس طربوشه

لحد رموشه

وعينيه باظين

كنت أظنها لسيد درويش، فلما ذكرت رفيق السبيعي بالحادثة صحح لي المعلومة، قال:

- هذه من أغاني داود حسني وتأليف أمين صدقي. وهي من مسرحية "البرنسيسة عيوشة" وقد غنيناها في ذلك اليوم تذكراً للفن الجميل، عندما كان المسرح الغنائي متألقاً، بعد أن ثبت دعائمه سيد درويش.

قلت مقاطعاً:

- بل أبو خليل القباني رائد المسرح الغنائي

توقف عن الكلام، منكراً، فقلت له:

- عندي كتابي "أبو خليل القباني رائد المسرح الغنائي العربي" ويسرني أن أقدمه لك هدية

عندئذٍ قال:

- عندي كتاب واحد أسميته "ثمن الحب" وهو من سيرتي الذاتية، سأقدمه لك بدوري، فيه كل المعلومات عن كفاحي وسرة حياتي.

تفحصت الكتاب. لعل أجمل من الكلام فيه صور رفيق السبيعي في طفولته وشبابه وكهولته، وفي أدواره التي مثلها على المسرح وفي السينما.

.. حقاً إنه لقب يعتز به أي فنان: فنان الشعب. سماه الناس، بلا مرسوم أو قرار. إنه قرار شعبي.

د. مازن المبارك

حب اللغة العربية

أسرة المبارك الدمشقية أسرة عريقة، جاءت من المغرب العربي حاملة ديناً وأخلاقاً ولغة، ولقد سمعت عن الشيخ عبد القادر المبارك. عضو المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية فيما بعد) ولم ألتق به، لكنني تعرفت على أبنائه الدكتور هاني [1] والدكتور مازن، والأستاذ عبد الهادي الذي ربطتني به صلة وثيقة، لأن هماً واحداً قد جمعنا في مطلع حياتنا، هو هم الإذاعة التي ارتبطت باسمينا. الدكتور مازن ابن العلامة الشيخ عبد القادر المبارك. وها هو (الابن يخلف أباه في عضوية المجمع..) مما يدل على أنها أسرة أصالة وعلم.. ومضي في حب اللغة العربية. "ومن شابه أباه فما ظلم".

ماجستير و دكتوراه..

- **متى ولدت؟ وأين؟**
- عام ١٩٣٠، في مدينة دمشق.
- **تحصيلك قبل الدراسة الجامعية؟**
- في مدارس وثانويات دمشق؟
- **متى حصلت على الليسانس في الأدب؟**
- حصلت عليها من جامعة دمشق عام ١٩٥٢ م وفي السنة نفسها حصلت على أهلية التعليم الثانوي من المعهد العالي للمعلمين بدمشق أيضاً.

---

(١) توفي عام ٢٠٠٧م رحمه الله .

- **أعرف أنك نلت دبلوم التربية والتعليم أيضاً؟**
- أجل حصلت على هذا الدبلوم عام ١٩٥٢ م.
- **ثم سافرت إلى القاهرة؟**
- سافرت إليها لأقدم للماجستير ثم الدكتوراه.
- **متى حصلت عليهما؟**
- الماجستير عام ١٩٥٧ م والدكتوراه عام ١٩٦٠ م وكلاهما في الأدب.

التدريس..

غدا الدكتور مازن المبارك عشية نيل الدكتوراه مدرساً في كلية الآداب (جامعة دمشق) ثم صار أستاذاً مساعداً في الكلية نفسها عام ١٩٦٦ م، ثم أستاذ بكرسي فيها عام ١٩٧٠ م، وكان قد بلغ الأربعين من العمر، لكنه كان قد ذاع صيته في حب اللغة العربية وتعليمها، ففي الرياض وفي جامعتها درّس اللغة (١٩٦٥ - ١٩٦٦م) ودرسها في الجامعة اللبنانية في سنتي (١٩٧٢ - ١٩٧٣م)، ودرسها في جامعة قطر وترأس فيها قسم اللغة العربية، وكان المسؤول الثقافي فيها، وأمين سر مجلس كليات الألسنيات، وعضواً في مجلس الجامعة (١٩٧٤ - ١٩٨٢ م).

- **أعرف أنك رئيس لقسم الحضارة في الموسوعة العربية؟**
- أجل خلال سنتي (١٩٨٧ - ١٩٨٩م)، وصرت رئيساً لقسم اللغة العربية في كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي (١٩٧٩ - ٢٠٠٣م).
- **هل هناك مهام أخرى؟**
- كنت أستاذاً زائراً في جامعة وهران في الجزائر، وأستاذاً زائراً في كلية الدعوة بطرابلس ليبيا..

عضو المجمع..

شارك الدكتور مازن في عدد كبير من الندوات والمؤتمرات المختصة باللغة العربية في دمشق والكويت والجزائر وبغداد والبندقية (إيطاليا) واختير عام ٢٠٠٦

عضواً في مجمع اللغة العربية خلفاً للدكتور بيطار، وكان لي شرف حضور ترشيحه في هذا المنصب، وسمعت كلمات رئيس المجمع الدكتور شاكر الفحام وكلمة عضو المجمع الدكتور محمود السيد، ثم سمعت كلمته المؤثرة في سلفه المرحوم، وشاهدته يتقلد شارة المجمع.

مؤلفاته..

- **ما هي مؤلفاتك؟**
- عشرة.
- **عددها لي.**
- أذكر منها:
  - قواعد اللغة العربية (بالاشتراك).
  - الزجاجي، حياته وآثاره ومذهبه النحوي.
  - الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه.
  - النحو العربي: بحث في نشأة النحو وتاريخ العلة النحوية.
  - الدليل في دراسة الأدب العربي (بالاشتراك).
  - النصوص اللغوية.
  - الموجز في تاريخ البلاغة.
  - مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته.
  - نحو وعي لغوي.
  - اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي.
  - اللغة العربية لغير المختصين (بالاشتراك).
  - مشروع النموذج المقترح لتدريس اللغة العربية وآدابها في الدرجة الجامعية الأولى في الوطن العربي.
  - مقالات في العربية.
  - الدعوة التامة.
  - سعيد الأفغاني.

ماذا حقق؟

- أعرف أنك حققت كتباً عديدة في موضوعك؟

- نعم حققت:

- الإيضاح في علل النحو للزجاجي.
- مغني اللبيب لابن هشام (بالاشتراك).
- اللامات للزجاجي.
- المباحث المرضية لابن هشام.
- رسالتان لابن جني.
- المقتضب لابن جني.
- الصبر مطية النجاح للإربلي.
- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة للأنصاري.
- أشهر الأمثال للشيخ طاهر الجزائري.
- كفاية المحتفظ لابن الأجدابي.

الكتاب الأحب..

- أظن أنك نذرت نفسك للغة العربية، حتى يخيل إلي أنك لم تضيع دقيقة من حياتك؟

- اللغة العربية تحتاج إلى بحوث كثيرة.. وكتب.

- أي الكتب أعز إلى قلبك؟

نظر إلي بعد هذا السؤال، كمن يستغرب، فالكتب عند مؤلفيها كأطفالهم، يجدونها متساوية كالأبناء، وقال مجيباً، وهو يبتسم ابتسامة عرف بها الدكتور مازن، ابن السادسة والسبعين، مد الله في عمره، وأفاد الأمة من علمه:

- كتب الإنسان كأولاده، ويصعب عليه المفاضلة بينها، ومع ذلك فمن أعز الكتب وأقربها إلي "نحو وعي لغوي" و"اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي" ثم "مقالات في العربية" لأن كلاً منها ولد في الوقت الذي شعرت فيه بالحاجة إليه.

- **ماذا يعني لك تسميتك كعضو في مجمع اللغة العربية؟**

- المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، وقد كنت أعمل مفرداً فأصبحت بعد انتسابي إلى المجمع أعمل ضمن فريق، ولا بد أن العمل في المجمع سيكون أكثر شمولاً لكثرة اللجان المجمعية وتنوع اختصاصاتها، وسيكون أبعد أثراً لما في المجمع من وسائل النشر والإعلام كالمجلة والندوات والمؤتمرات في داخل القطر وخارجه.

- **أين درّست هل أفدت بقلمك بلاداً غير سورية؟**

- درّست مقيماً في جامعات الرياض وقطر وفي كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي. ودرّست أستاذاً زائراً في الجامعة اللبنانية وفي معهد اللغة العربية بالجزائر ووهران، وفي كلية الدعوة بليبيا كما قلت.

- **ما هو مستقبل اللغة العربية؟**

- مستقبل اللغة العربية هو مستقبل العرب الناطقين بها ! وهي اليوم مثلهم في ضعف وانحسار، وليس ضعفها في نفسها ولكن ضعفها على ألسنتهم وأقلامهم، وهي اليوم في بلادها كما هم في بلادهم مهينة لأن أهلها ذلوا وهانوا على أنفسهم فكانوا على غيرهم أهون وبهرتهم لغات أجنبية وغزتهم ثقافة الدولار !!

ومع ذلك فإني أرى فجر صحوة أرجو أن تكون قريبة تستعيد الأمة فيها وعيها بنفسها وبتاريخها وثقافتها ولغتها وتخلع عنها ثوب التغريب والأمركة، وتلك هي عادة التاريخ في أدوار القوة والحضارة للدولة والأمم وأدوار خمولها "وتلك الأيام نداولها بين الناس".

- **هل ستكون مشاركتك في المجمع عملية؟ وكيف؟**

- تكون المشاركة العملية في مجمع اللغة العربية من خلال المشاركة في المحاضرات والندوات، وفي أعمال اللجان التي ينتسب إليها عضو المجمع، وهي لجان كثيرة منها لجنة المجلة ولجنة اللغة العربية والأصول، ولجنة المكتبة، ولجنة المخطوطات وإحياء التراث، ولجنة المجمعات، ولجنة

تنسيق المصطلحات، ولجنة النشاط الثقافي وغيرها، ولا بد أن يكون عضو المجمع مشاركاً في لجنتين منها على الأقل الشارة المجمعية.

- **ما هي الشارة المجمعية التي حصلت عليها؟**

- شعار القوم هو العلامة التي تميزهم من غيرهم وبها يعرفون. وشعار مجمع اللغة العربية بدمشق رسم مثمن الأضلاع تقوم في وسطه شعلة يحيط بها من أحد الجانبين غصن زيتون، ومن الجانب الآخر سعفة نخيل، وقد رمزوا بالشعلة إلى رسالة المجمع في إحياء العربية وإبقائها قوية مشرقة، وأما الزيتون والنخل فإشارة إلى شمول الرسالة المجمعية للوطن العربي بشقيه المشرقي الذي يرمز إليه بالنخيل، والمغربي الذي يرمز إليه بالزيتون وفيه إشارة أيضاً إلى السلام وفي انعطاف الغصنين إشارة إلى التضافر والتعاون.

وقد ظهر هذا الشعار على ما أذكر أول مرة على غلاف مجلة المجمع عام ١٩٤٥ وأذكر أنني رأيته قبل ذلك، كما أضيف إلى الشعار بعد ثلاثين سنة من ظهوره ألوان العلم العربي فكانت الشعلة حمراء والغصنان بلون أخضر والمثمن أو الإطار بلون أسود وتركت قاعدته أو أرضيته بيضاء.

- **هل ساهمت في مجلة المجمع؟**

- أذكر أن أول مشاركة لي في مجلة المجمع كانت في سنة ١٩٥٩م إذ كتبت سلسلة مقالات عن أبي القاسم الزجاجي، وأخرجتها فيما بعد في كتاب "الزجاجي، حياته وآثاره ومذهبه النحوي من خلال كتابه (الإيضاح)".

- **تطغى الأمية اللغوية على ألسنة بعض المثقفين، فما هو نهجك لاستبدالها بثقافة لغوية فصيحة؟**

- اللغة تتأثر بالبيئة الاجتماعية. وللغة بيئتها التي قد تكون نظيفة خالية من الشوائب يسعى المسؤولون دوماً - كما عند الأمم الراقية والدول الواعية - إلى نقائها والمحافظة عليها، وقد تكون بيئتها ملوثة كما هو الأمر عندنا بالعامي والدخيل من كل لسان !

وقد شغل المسؤولون بالبيئة المادية من أرض وماء وهواء عن تنقية البيئة الاجتماعية والفكرية واللسانية من الأوراق والنفايات وما يعلق بها من الشوائب !

إن البيئة اللغوية المعاصرة خاصة وصلت إلى مستوى من التلوث لم تصل إليه من قبل أو أصبحت لغتنا عجيبة على ألسنة الكثيرين من المتحدثين والإعلاميين وفي الإعلانات والصحف الإعلانية. ونحن نرى من يقوم بترميم الدور الأثرية والأبنية ودور المؤسسات العلمية ولا نرى من يقوم بترميم البيئة اللغوية وبنيتها وكأن ترميم الجدران أهم من ترميم شخصية الإنسان وإن البيئة اللغوية لا يصلحها اللغوي ولا أستاذ اللغة بقدر ما يصلحها السياسي والإعلامي وصاحب القرار.

- **ما هي مشاريع كتبك الجديدة؟**

- لم أعد من الذين يعلنون عن مشروعاتهم العلمية قبل صدورها فلقد أعلنت في أول نشأتي العلمية وعوداً بإصدار أعمال معينة ثم حالت ظروف أخرت بعضها (وخطف) بعضها الآخر من سبق إليها. ولم يتحقق إلى جزء مما أعلنت ووعدت به.

- **هل أنت متفائل بانتمائك إلى المجمع؟**

- نعم، أنا متفائل لأن التاريخ علمنا أنه ما من شيء في الدنيا يبقى على حاله: فلا القوي يبقى قوياً، ولا الضعيف يبقى ضعيفاً، واللغة العربية إذا بدأت اليوم ضعيفة في مستواها على ألسنة الناس وأقلامهم، وإذا رأيناها الآن تعيش عصر ضعف وانحسار فإن الأمل في إحيائها وحياتها قوي لأنها تحمل في ذاتها بذور نمائها وصفات خلودها، وهي كالنار تبقى جذوتها منتظرة الفرصة المناسبة لتعبّ من جديد، أو كالسنديانة اليابسة تنتظر الموسم الملائم والجو المناسب لتعود أقوى مما كانت حياة ونضارة. أعطني بيئة عربية سليمة وسلح المواطن العربي بالحرية التي يشعر فيها بكرامته ويعي ذاته ويعتز بانتمائه وقوميته وتاريخ أمته وثقافتها لأعطيك

العربية التي عرفت مثلها على أقلام الأدباء والكتاب وألسنة الشعراء من أولئك الذين صنعوا المجد اللساني واللغوي والأدبي للأمة العربية. أعطني وعياً لغوياً سليماً لأعطيك لغة عربية مشرقة.

❖ ❖ ❖

إن أيدي الدكتور مازن المبارك على اللغة العربية وتدريسها مرئية وملموسة والأمل أن يكون عطاؤه في الماضي دافعاً له ليعطي أكثر.. خاصة وأنه صار في حضن المجمع، ومن أعضائه.. إنه يحب اللغة العربية، واللغة تحبه كثيراً.

❖ ❖ ❖

ها هو دمشقي آخر يشتهر بحبه للغة العربية، ومن مثل دمشق مدينة تلد محبين للعروبة وللغة العربية أكثر منها؟

د. رفيق الصبان

رجـل الأفعـال الكبيـرة

عام ١٩٦٩م اغترب د.رفيق الصبان. ذهب إلى القاهرة، بعد أن بنى مجداً مسرحياً كبيراً في سورية، ترك كل شيء، الشهرة والمجد والمسرح و"ندوة الفكر والفن" التي أسسها ونافس بها المسرح الرسمي، والمقالات التي يكتبها عن الفن بعامة. ترك دمشق التي أحبها ورحل. ما الذي جرى؟ ولماذا هاجر؟ ولماذا مضى على اغترابه٣٧سنة؟ ما الذي فعله في القاهرة؟ كيف برز هناك، ولماذا اتجه نحو السينما. وهل سيعود بعد هذه الغربة التي فرضت نفسها عليه؟

كان جاء آخر مرة في حزيران- تموز٢٠٠٦ إلى دمشق. فالتقيته وكان هذا الحوار الذي لا تنقصه الصراحة.

لماذا هاجرت؟

- **د. رفيق أرجو أن تجيبني بصراحة: لماذا هاجرت وأنت ابن دمشق ومحبها ؟!**
- لهجرتي قصة كبيرة - صغيرة. هل تسمعها؟
- **أجل بشوق ولهفة**
- حدثت القصة قبل مجيء الرئيس حافظ الأسد إلى رئاسة الجمهورية، وقبل وفاة الرئيس جمال عبد الناصر. كان ثمة نداءات من أصدقاء لي في مصر للمجيء إليها، والعمل فيها.
- **مثل من؟**

- الشاعر صلاح عبد الصبور، الأديب محمود أمين العالم، أحمد بهاء الدين. رجاء النقاش.. كنت أريد أن أذهب إلى القاهرة لمدة محددة، لكن شيئاً حدث جعلني أتخذ قراراً بالهجرة.

- **ما هو؟**

- عينوا علي عقلة عرسان مديراً للمسارح في وزارة الثقافة. مما اعتبرته ثقيلاً علي، لأنه كان تلميذي، فطلبت نقلي من الوزارة إلى مؤسسة السينما، وجوبهت برد الوزير سهيل الغزي القاسي: "مفكر الوزارة عزبة أبيك، حتى تقرر أنت المكان الذي تعمل فيه"، تأملت في وضعي، وقتئذٍ، كنت قد أنجزت عدداً من الأعمال الهامة للوزارة، فإذا بي أواجه بمثل هذا الموقف.

- **ما هي هذه الأعمال؟**

- أشعلت المشهد الثقافي بالمسرحيات التي قدمتها، شاركت في تأسيس صالة الكندي السينمائية، أنشأت نادي السينما، وندوة الفكر والفن ذات التاريخ في العروض المسرحية.. هل أكافأ بمثل هذا الموقف. قال لي الوزير: "ما عجبك قدم استقالتك فوراً" فقدمت استقالتي على الفور، واتجهت إلى اتخاذ قرار بالهجرة إلى مصر، خاصة عندما قبلها الوزير.

حشد من الفنانين..

على الصعيد المسرحي، كان رفيق الصبان قد قدم أمهات المسرحيات الكلاسيكية وسواها، ونافس المسرح القومي بها من أمثال مسرحية "تاجر البندقية" "انتيجونا" "الليلة الثانية عشرة" "يوليوس قيصر" "الاعترافات الكاذبة" "السلطان الحائر" "رجل الأقدار" "لشكسبير ومارنير وتوفيق الحكيم وبرناردشو"، والمسرحية الأخيرة، أي "رجل الأقدار" لشو قدمها في الوقت الذي كان المسرح القومي يقدمها فتفوق بها على العرض الرسمي، وأذكر أن المسرحية الأخيرة عهد بتمثيلها إلى نجمين ساطعين في دنيا الفن وقتئذٍ، هما "ارليت عنحوري وهاني الروماني"، فأبدعا أيما إبداعاً.

وكان د.رفيق الصبان واعياً لمهمته في بعث المسرح السوري، فاستعان بحشد من المثقفين والفنانين والفنيين، وعلى رأسهم د.هشام متولي، صلحي الوادي، لؤي كيالي، نعيم إسماعيل، عدنان بغجاتي، أديب غنم، فاتح المدرس، عبد القادر أرناؤوط وغيرهم[1] الذين رفعوا سوية عمله، إلى أفاق نهضة ثقافية ممتازة.

- **ذهبت إلى مصر بشكل يبدو مؤقتاً؟**

- أجل، لكن المؤقت صار دائماً !

- **كيف؟**

- سأروي لك كيف. ذهبت إلى القاهرة، ورحت استقصي وأبحث عن عمل. ذات يوم حضرت ندوة للمخرج ممدوح شكري كان يتحدث عن فيلمه الجديد، وكان النقاد يتحدثون، بقيت صامتاً، فقال: "أعرف أن مثقفاً سورياً موجود بيننا، وأحب أن اسمع رأيه." كنت أدرك أنه يشير إلي. قلت: "خير لي أن أسكت. لأنني لا أريد أن أتكلم فأصفق مع مصفقين، وهذا ليس رأيي." أعجبه كلامي. قال: "قل" فقلت نقدت الفيلم، قلت إن الإخراج جيد لموضوع غير جيد.

بعد أسبوع رأيت الرجل يسأل عن عنواني ويأتي إلي ويسألني أن اكتب له موضوعاً جديداً. كتبت، وحين قرأ.. جحظت عيناه، كنت كتبت عن المخابرات المصرية، معالجة باسم "زائر الفجر" وبنوع من التحدي قال: "سأخرج هذا الفيلم. اكتبه"

كتبت الفيلم، لكننا لم نجد من ينتجه.. فتجرأت النجمة ماجدة الخطيب وأسهمت بنصف تكاليف الإنتاج، ودفعت أنا النصف الباقي، وكان كل ما حملته معي من دمشق.

انتهى الفيلم، وأخذنا الموافقات المطلوبة، لكن أحداً لم يرض إلا بعد حذف ٣٥ دقيقة منه أي أكثر من ثلثه، وإلى اليوم لم يعرض كاملاً، وتكبدنا خسائر كبيرة.

- **كيف مضيت في السينما بعد زمن؟**

- كانت سمعتي ككاتب سيناريو قد وصلت إلى الجميع.

---

(١) توفي معظمهم، ومد الله بعمر الباقين .

- **مثل من؟**

- مثل رمسيس نجيب الذي استدعاني وطلب مني أن أوقع على عقد لكتابة خمسة سيناريوهات لأفلام، وهكذا عوضت ما فقدته.

- **أحقاً لم يعرض "زائر الفجر"؟**

- بعد التسوية حذفنا منه ١٧دقيقة وعرضناه بعد فترة طويلة، لكننا لم نحصل على رأسمالنا، غير أننا كنا أرسلنا نسختين قبل الحذف إلى باريس، فهو موجود كاملاً هناك.

البحث عن الذات

- **لماذا لم تعد إلى دمشقك بعد ذلك؟**

- عدت

- **كيف عدت؟**

- كنت مرة في لندن، فضاع جواز سفري، وكان علي في هذه الحالة أن أعود إلى دمشق وأخذ جواز بديل.

- **هل أخذت؟**

- خلال أربع وعشرين ساعة.

- **خلال ٢٤ساعة؟**

- لهذه قصة، والفضل في ذلك للرئيس الخالد المرحوم حافظ الأسد.

- **قصها علي**

- كان السادات قد صار رئيساً للجمهورية في مصر، وكان قد أصدر كتابه "البحث عن الذات"، ولما بدأت الغيرة تدب في قلوب بعض المصريين من نجاحي الصاروخي في مصر، اتهموني بأنني شيوعي. تصور يا عادل أنني أنا اتهم بالشيوعية؟! فشكوت أمري إلى صديقي الأديب رشاد رشدي المقرب من السادات، رشحني لأكتب فيلماً عن السادات معتمداً على كتابه

"البحث عن الذات" وقد استقبلني الرئيس المرحوم أنور السادات باعتباري كاتب سيناريو الفيلم المأخوذ من كتابه، الأمر الذي أدى إلى إصدار قرار بمنع كتبي وأفلامي في سورية، فلما جئت إلى دمشق، فوجئت بأن جواز السفر لن يصدر بديل عنه إلا في مدة تزيد عن أربعة أشهر، وهذا قد يعطل أعمالي في مصر، ويبعدني عن زوجتي وأولادي، فلجأت إلى مكتب الرئيس الأسد، وطرحت الأمر، وقلت إنني لا أملك الرفض إذا ما طلب السادات مني كتابة السيناريو، لكنني أعرف كيف أسوف الأمر، فتفهم الرئيس موقفي وأمر بإعطائي جواز سفر جديد خلال أربع وعشرين ساعة وهذا ما لا أنساه قط طوال حياتي، وأنا مدين للرئيس المرحوم حافظ الأسد.

- **وهل كتبت سيناريو البحث عن الذات؟**

- كلا !

- **كيف تخلصت؟**

- كنت أعرف أن السادات كان قد تزوج امرأة أخرى قبل السيدة جيهان السادات، وكانت تلك الزوجة تحبه وتخدمه، وذات يوم خبأت في بطنها عدداً من القنابل خرجت بها أمام محققين داهموا بيته، فظهرت أمامهم كأنها حامل، وذهبت بالقنابل فتخلصت منها برميها في بئر، وقد كتبت هذه الواقعة في مشهد من مشاهد السيناريو الذي كنت أعده عن كتاب "البحث عن الذات" الأمر الذي امتعض السادات منه، فصرف النظر عن السيناريو وعني وبذلك تخلصت من تكليفي بذلك السيناريو الذي أربكني.

دبلوماسية

كان د. رفيق الصبان، كعادته، يتدفق بالحديث إلى درجة أنك وأنت تلتقط حديثه تقصر عن استيعابه إن لم تكن منتبهاً إلى كل كلمة يقولها، وها قد مضى من الزمن حوالي ٣٧سنة وهو مغترب، ولم يتبدل فيه شيء، سوى أنه هرم بعض الشيء.

- **كأنك في دمشق لم تبرحها، فأيهما أحب إليك القاهرة أم دمشق؟**

- هذه عيني وهذه عيني.

بمثل هذه الدبلوماسية أجاب ويجيب دائماً، وهو أجابني ذات مرة بإجابة لا تقل دبلوماسية عنها.

كنت أعمل في جريدة "الوحدة" بعد الثورة، ثورة عام١٩٦٣، وقد علمت أن فرقة "الكوميدي فرانسيز" ستأتي لتمثل في مسرح القباني لليلة واحدة فجمعت عيداني ووجدت الدكتور صبان أصلبها فكلفته بالذهاب إلى مسرح القباني وحضور المسرحية التي ستؤدى باللغة الفرنسية والكتابة عنها بالعربية، وإعطائي المقال لنشره في الصفحات الثقافية التي كنت رئيس تحريرها، وقد جرى الأمر بيسر وسهولة، وجاءني المقال فنشرته، وصباح يوم نشره هتف إلي الأستاذ المرحوم جلال فاروق الشريف يقول لي: المقال جيدة مما أثلج صدري، لكنه أضاف "لكن فرقة الكوميديا فرانسيز لم تأت، فمن أين جاء الدكتور بالمقال وتفاصيله؟ هنا أسقط في يدي. هتفت للدكتور صبان وعاتبته، فقال بدبلوماسيته: " شو بدي إعمل، طلبت وطلباتك أوامر يا عادل."

سألت د.رفيق الصبان.

- **ما هي أعمالك السينمائية؟**

- كتبت: زائر الفجر.

الأخوة الأعداء

ليلة ساخنة

حبيبي دائماً

قطة على صفيح ساخن

البؤساء

قاهر الظلام

رحلة داخل امرأة

قصص الحريم

حب آخر العمر

اذكريني

واكتب مقالات أسبوعية في جريدة القاهرة الأسبوعية وفي مجلة الكواكب الأسبوعية وفي مجلات أخرى.

- **والمسرح، هل هجرته إلى الأبد؟**

- لم أهجره.

- **كيف ستعود إليه . ولماذا لم تتجه إليه في مصر؟**

- لم أتجه إليه في مصر، لأنني وجدت نفسي فجأة في لجة السينما، لكنني سأعود إلى المسرح، سأحضر مهرجان المسرح في دمشق، وأفكر بمشروع تعاون مسرحي بين سورية ومصر. لنترك ذلك إلى الظروف.

- هل أنت متزوج؟

- أنت تعرف أنني متزوج. زوجتي فلسطينية من آل الحسيني.

- ولك أولاد؟

- لي ولدان، ولد معاق وولد موظف في الجامعة العربية ومسؤول عن ملف السودان.

ملابسات

أجريت هذا اللقاء في فندق "الشام" وطلبت منه صورة فاعتذر تواعدنا على اللقاء يوم الاثنين على تناول الغداء حتى أصوره، وفي الموعد المحدد جاء المدعوون، وبينهم الدكتور صبان الذي أصيب بوعكة واستدعي طبيب لمعالجته. جاء ليعتذر، وقال إنه قاوم بعد عشرة أيام ليحضر حفلة يقيمها المنتج السوري المعروف نادر أتاسي، بمناسبة انتهاء المسلسل الذي أنتجه عن "جبران خليل جبران" وأنتجه وأخرجه فردوس أتاسي. بعد عشرة أيام. يوم الجمعة ٧/١٤ التقينا في كافيتريا الشام، بعد أن سافر إلى مصر فأمضى هناك عدة أيام وعاد إلى دمشق ليحضر حفل الأتاسي، مما حرك الفضول عندي..

- ما الذي بينك وبين الأستاذ نادر الأتاسي؟

- الواقع أن بيني وبينه مشروع عمل أو فيلم نتباحث في أمر كتابته.
- هذا خبر مفرح جداً.
- لماذا مفرح؟
- لأنه يعني عودتك، ولو جزئياً، إلى دمشق للعمل، لنستفيد من موهبتك وخبرتك.. فأنت رجل الأفعال الكبيرة.

❖ ❖ ❖

محطات في حياة د. رفيق الصبان

- أصبحت السينما خبز د.الصبان اليومي. لابد من حضور فيلم في اليوم عن طريق المشاهدة في دار السينما أو بواسطة الفيديو.
- نقل د.صبان يوم هاجر إلى مصر ١٢ألف جنيه هي كل ما كان يملك.
- يكتب مقالات للصحف كل يوم، تنطوي على وجهات نظر ذكية.
- غدا جزءاً من الثقافة المصرية، حتى أنه صار يرسل إلى المهرجانات السينمائية الأوروبية لتغطية وقائعها، وأهمها مهرجان كان.
- له شقيقة[1] في دمشق ينزل في بيتها عندما يأتي إلى دمشق، وقد يستضاف في أحد الفنادق الدمشقية.
- تعقد في بيته في القاهرة ندوات وجلسات أدبية وفنية، كل ليلة تقريباً.
- مضياف وبيته مفتوح على مصراعيه للمثقفين السوريين زوار القاهرة.
- قال إن فيلم "حليم" لم ينجح وقال لما قلت إن رواية "عمارة يعقوبيان" مملوءة باللواط، أنهم حلوا المسألة في الفيلم؟!.

---

(١) توفيت مؤخراً رحمها الله .

بسام كردعلي

أول سوربوني سوري

-١-

كل مساء، في الخامسة بعد الظهر تتوقف سيارة خاصة أمام مقهى "الروضة" في شارع العابد القريب من "البرلمان"، تقودها سيدة وينزل منها رجل وقور يمشي بحذر لئلا يقع، يدخل المقهى، ويمضي نحو طاولة بعينها فيجلس عليها، ويجيئه النادل بكأس من الشاي، يحليه بالسكر، ثم يخرج من جيبه كعكه صغيرة، يروح يضقمها مع الشاي.

إنه بسام كردعلي... الدمشقي الذي يقال إنه بلغ المائة من عمره[1]، وهو أول سوري يحمل شهادة من جامعة السوربون الفرنسية على ما أعلم.

شهادة من السوربون

كنت أعرف الرجل منذ القديم، وكنت أعرف أنه يملك شهادة من السوربون في التاريخ وأخرى في الجغرافية، لكنني لم أكن أعرف أنه ألف كتباً في تاريخ وجغرافية البلاد العربية والعالم، وأنه توقف عن التأليف عام ١٩٤٥ م، أي قبل ستين سنة وأكثر.

عنّ لي أن أحاوره، فهو من أقدم المثقفين الدمشقيين أصحاب الشهادات العليا، إضافة إلى كونه ينتمي إلى عائلة دمشقية عريقة.

---

(١) توفي أوائل عام ٢٠٠٧ م رحمه الله .

- **متى ولدت؟**

- عاهدت نفسي ألا أفصح عن عمري.

ابتسم فابتسمت، ربما كان معه الحق، فالطاعن في السن يجب أن يخفي عمره.

- **متى نلت شهادة من "السوربون"؟**

- عام ١٩٣٣ م.

- **هل ذهبت إلى فرنسا مباشرة بعد البكالوريا؟**

- كلا، نلت البكالوريا ثم شهادة الحقوق من الجامعة السورية، ثم سافرت إلأى باريس لاستكمال تحصيلي العالي.

- **من الذي أوفدك؟**

- ذهبت ببعثة نظمها الانتداب الفرنسي على سورية.

- **لأنك ابن كردعلي، وعمك العلامة الشهير محمد كردعلي؟**

- لأنني كنت الفائز الأول في مسابقة، وكنت متقناً للغة الفرنسية كأنني مولود في فرنسا، وليس للأسباب التي ذكرتها.

المؤلفات..

- **كم استغرقت دراستك في السوربون؟**

- أربع سنوات.

- **إذاً سافرت إلى باريس عام ١٩٢٩ م**

- نعم.

- **بالبحر؟**

- بالبحر.

- **لماذا اخترت دراسة التاريخ والجغرافية؟**

- يستهويني هذان العلمان، أخذت ثلاث شهادات في التاريخ وشهادة في الجغرافية، أي شهادة في كل سنة من سنوات الدراسة.

- **عدت لتدريس المعلمين في مدارس وثانويات دمشق؟**

- درستهما في ثانويات العاصمة لكنني ألفت كتباً في التاريخ والجغرافية، ربما هذا هو وجه الفائدة التي جنتها البلاد من دراستي.

- **مثل ماذا هذه الكتب؟**

- تاريخ العالم، الجغرافية التجارية، تاريخ الإسلام، حضارة الغرب.

- **وغيرها؟**

- تاريخ العرب.

- **كم كتاباً أصدرت؟**

- ستة أو سبعة كتب، باتت مراجع.

- **أهي كل ما ألفت وطبعت؟**

- نعم. لم تكن المدارس تعرف كتباً مؤلفة عن هذين العلمين بالطريقة الغربية، فكانت كتبي من أوائل الكتب المؤلفة فيهما، وباللغة العربية.

- **هل تتقن اللغة العربية؟**

- أتقنها جيداً.

- **لماذا؟**

- لأنني نشأت في بيت يعنى بالأدب واللغة العربية، عمي محمد كردعلي، علامة مشهور، له كتب عديدة في بلاد الشام وفي دمشق خاصة، ألم تقرأ "خطط الشام"؟

- **قرأته .**

- ألم تقرأ كتاباً صدر في القاهرة عن "دمشق"؟

- **قرأته أيضاً، وقد أصدرته سلسلة كتب "اقرأ" على ما أذكر.**

- كتبه عمي.

من الطب إلى الصحافة

كنت أعرف أن عمه محمد كردعلي كان وزيراً للمعارف في أوائل الحكم السوري، أيام الانتداب، وكان رئيس المجمع العلمي العربي (الذي عرف فيما بعد باسم مجمع اللغة العربية) وهو الذي أسسه.

سألته:

- **تتحدث عن عمك؟ ألا تحدثني عن والدك أحمد كردعلي؟**

- كان أبي طالباً في كلية الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت عندما استدعاه أخوه محمد، وعهد إليه بإدارة جريدته "المقتبس" فترك الطب مرغماً، وانهمك في العمل الصحفي، وضاعت عليه مهنة الطب.

- **وأنت؟ لماذا لم تعمل في الصحافة مثل عمك وأبيك؟**

- طلبني نجيب الريس لأعمل في جريدته "القبس" لكنني رفضت، كنت متجهاً نحو التاريخ والجغرافية، فلم أرد أن أغير اتجاهي..

كتب وخرائط..

كنت أعرف أن بسام كردعلي عمل في التدريس قبل الذهاب إلى فرنسا، وحتى يزيد دخله قليلاً عمل مدرساً في مدارس حمص، لكنه لم يقو على كبح جماح رغبته في السفر لتلقي العلم من أشهر معلم علمي في باريس، بل في العالم، وكنت أشك في كونه الأول بين حملة الشهادات السوريين الذين درسوا في "السوربون". فتجرأت وسألته:

- **أكنت أول من حمل شهادة من السوربون حقاً؟**

ونظر إلي نظرة عتاب، كأنه كان يريد أن يقول: "ألم تصدقني؟" وقال:

- كنت الأول من حملة شهادات السوربون في سورية، في التاريخ والجغرافية؟

سألته:

- **هل استفدت من شهاداتك؟**

- أجل، درست المادتين، وألفت فيهما للطلاب والتلاميذ ورسمت خرائط لسورية، وللبلاد العربية، وللعالم.. لم تكن معروفة من قبل، وانتشرت خرائطي وحددت معالم الوطن العربي، في وقت لم تكن الخرائط متداولة على نطاق واسع، وكانت البلدان معروفة بأسمائها غير معروفة بأماكنها في أذهان المواطنين.

البنات أكثر حناناً

لم تكن رحلته الأولى إلى "سوربون" باريس الوحيدة، فقد ذهب عدة مرات إلى فرنسا، بعد ذلك، خاصة وأنه تزوج سيدة تركية أنجب منها ثلاثة أبناء ذكور، واحد منهم يعمل طبيباً الآن في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، والثاني يعمل في دولة الإمارات العربية المتحدة، وقال إنه يعمل على تحلية الماء المالح، والإماراتيون يحبونه ويقدرون فضله، والثالث توفي في الأردن، بعد أن قاتل إلى جانب قوات المقاومة الفلسطينية في صراعها ضد قوات السلطات الأردنية.

- **أليس لديك بنات؟**

- لم يرزقني الله بنات مع أنهن أكثر حناناً من الصبيان.

- **وأمهن؟**

- أمهن، تلك السيدة التي تحملني كل عشية بالسيارة إلى المقهى.

- **أهي تركية واسمها السيدة توركان؟**

- أجل.

- **ما رأيك بفرنسا؟**

- كانت سلطة انتداب في سورية، لكنها..

ونظر إلي نظرة متفحصة، قبل أن يتم كلامه قائلاً بجرأة من يقرر أمراً:

- لكنها، في وجه من الوجوه، أفادت سورية كثيراً.

- **في أوي وجه؟**

- أنشأت نظامي "الطابو" و"الكاداسترو" مثلاً.

- **قبل احتلال فرنسا لسورية، ألم يكن هذا النظامان قائمين؟**

- لم يكونا، كانت الأراضي تسجل لأصحابها دون أوراق طابو، وفرنسا هي التي نظمت عمليات تسجيل الأراضي والعقارات، بموجب صكوك تحفظ حقوق ملاكها، مما عد من الإنجازات.

الكتب المؤممة؟!

كان لبسام كردعلي شقيق اسمه عبد الرزاق كردعلي، توفاه الله قبل فترة ليست بالقصيرة، وكان من ظرفاء دمشق. وقد عمل مديراً لمصلحة الحدائق في محافظة دمشق، وهو الذي أهداني في مرحلة من مراحل العمر كتاب عمه "خطط دمشق"، وعن طريقه عرفت أسرة كردعلي الكردية الدمشقية، فقد حدثني كثيراً عن هذه الأسرة وعن عمه وأبيه وأخيه، حامل الشهادة من "السوربون"، فلما تعرفت ببسام كردعلي كنت كمن يتعرف على صديق، لكن هذا الرجل ضنين على الصحافة لا يعطيها إلا "من الجمل أذنه" كما يقولون، وهذه المعلومات التي قدمتها في هذا الحوار استدعت مني أن أستنطقه، فكان نطقه منتقى، كأنه الذهب.

كنت أريد أن أعرف شيئاً عن كتبه الستة أو السبعة التي ألفها في مرحلة من مراحل شبابه، فلما سألته عنها، قال:

هي كتب مدرسية، لكنها في وقتها كانت كتباً تسد حاجة القراء والمثقفين والمكتبة.

- **هل لديك نسخ منها؟**

- لدي.

- **أين؟**

- في بيتي، إنني أملك من كل كتاب نسخة واحدة عزيزة.

- **ألن أستطيع رؤيتها؟**

- ليس لدي سوى نسخ وحيدة، فإذا فرطت في إحداها ضعت وضاعت!

- **ألك تجربة في هذا الصدد؟**

- أجل.

- **مع من؟**

- مع الدكتور المرحوم حافظ الجمالي.

- **ماذا جرى؟**

- استعار نسخاً من كتبي، وأطال في الاحتفاظ بها، فلما طلبتها منه، قال إنها موجودة بين زحمة الكتب في مكتبته، ومن الصعوبة أن يعثر عليها، لهذا قررت ألا أعير كتبي لأحد، خاصة وأنني لا أحتفظ منها الآن إلا بنسخة واحدة من كل كتاب.

- **لا بد أنك استفدت من هذه الكتب في وقتها.**

- استفدت، لكنها أممت.

- **ماذا تقول؟**

- أممت.

- **من أممها؟**

- السلطة السورية.

- **متى؟**

- بعد قيام الثورة.

- **لماذا؟**

- أكبر الظن أنها عدتها ثروة قومية، تجب المحافظة عليها.

- **وانقطعت أنت عن الكتابة؟**

- ليس بسبب التأميم، ولكن بسبب أنني قلت ما كان علي أن أقوله في هذه الكتب.

تنظيم الإصدار

كانت فكرة التأميم التي ذكرها من أغرب ما سمعته من المثقف السوربوني "بسام كردعلي" ولم أجد تفسيراً لهذه الفكرة إلا بفكرة جديدة، وهي أن نشوء وزارة للتربية، تعنى بالتدريس وتنظيم إصدار الكتب المدرسية هي وراء عدم السماح للمؤلفين بإصدار كتب على هواهم، إذ لم يعرف أن كتباً مدرسية أممت لا في عهد الثورة ولا قبلها ولا بعدها، لكنني احتفظت بفكرتي ولم أجهر بها أمامه، غير أنني بقيت متعطشاً لرؤية ولو كتاب واحد من كتبه.

- **ألا يمكن أن أرى كتبك أو حتى واحداً منها على الأقل؟**

وقال حاسماً الموضوع مقاطعاً:

- لا يمكنني أن أفرط بالنسخ الوحيدة من كتبي، قد تجد نسخاً في وزارة التربية.

جبنت عن اقتراح الذهاب إلى بيته، فقلت:

- **صف لي هذه الكتب.**

قال:

- لا سبيل إلى وصفها، الوصف لا يكفي.

قلت:

- **بكلمة أو كلمتين.**

قال:

كتب التاريخ تتحدث عن تاريخ العالم، وعن تاريخ الإسلام، وعن تاريخ الدول العربية.

- **وكتب الجغرافية؟**

- تتحدث في جغرافية البلدان، مع خرائط رسمتها بنفسي، هذا كل شيء..

هذا الزاهد

والواقع إنني وجدته زاهداً في الحديث عن نفسه عن كتبه وعن حياته العامة والخاصة، وأنه يؤثر، وقد بلغ هذه السن أن يكون بعيداً عن أضواء الصحافة واللقاءات، وقد نفر مني نفرة ملحوظة عندما قلت له إنني أريد أن أسجل آراءه وأنشرها في الصحافة وفي مجلة "المعرفة" تحديداً، قال:

- سلط أضواءك على من يستحقون.

قلت:

- **أنت واحد ممن يستحقون**

قال:

- واحد من الجيل الجديد المؤمن بالإعلام، هذا ما قصدت قوله.

سألت:

- **ألست أنت مؤمناً بالإعلام؟**

قال مغيراً الحديث:

- لك أسلوب مميز، أنت تكتب بحرفية.

عرفت أنه لا يريد أن يستمر في الحديث، خاصة وأنه قال لي مبتسماً:

- أظن أن أصدقاءك يطلبونك.

كان أصدقائي في مقهى الروضة ينتظرونني بالفعل، لكنهم لم يلحوا في طلبي، فلماذا يريد التخلص مني؟ وهل محاورتي له أزعجته إلى حد أنه يلح علي أن أكف عن متابعة هذا اللقاء؟

قدرت، بيني وبين نفسي - أن رجلاً قد طعن في السن إلى هذه الدرجة لم يعتد في تكوينه الصبر على سماجة الكتاب والصحفيين والإجابة على أسئلتهم، فقررت أن أنسحب، وقمت.. لكنني تلكأت قليلاً، فمثل هذه اللقاءات لا تكون لقاءات بحق إلا إذا اقترنت بصورة.. كنت أريد صورة لبسام كردعلي بأي شكل.

سألته:

- **أمعك صورة لك؟**

حدجني بنظرة، وقال:

- وصورة أيضاً؟

ابتسمت، قال:

- لا أحمل صوراً قط.

قلت:

- **سأصورك .. لاحقاً.**

كان يريد الخلاص مني، فقال:

- صورني.. لاحقاً (صوره الزميل جورج عشي بعد أيام).

كتبه وصوره

سلمت وتركته، فجاء إلي النادل، وفي فيه كلام كثير. كان يعرف كثيراً عنه، ومن فمه، فهو خلال الساعتين اللتين يبقى فيهما في المقهى يومياً يتحدث معه، وكم من مرة حدثه عن أمجاد الماضي، وعن خدماته التي قدمها لا في دمشق وحدها، بل في جميع أنحاء المحافظات السورية التي كان يذهب إليها مفتشاً للمادة التي أهلته ليكون واحداً من فرسانها في سورية، متوجاً بشهادة من أكبر جامعات أوروبا، وعندما استجوبته أفاد بما لم يخرج على نطاق المعلومات التي أوردتها في هذا اللقاء.

بقي لدي هم أخير، أن أعثر على كتب بسام كردعلي، وأن أصوره، والهمان ليسا بقليلين، لأن كتبه عزيزة عليه، ومن الصعوبة بمكان أن يفرط بواحد منها ولو لمدة ربع ساعة، ولأنه لم يعطني صورة من صوره، ولن يمكنني من التقاط صورة له، كما أقدر.

ورحت أهتبل الفرصة لتحقيق أحد الهمين أو الاثنين معاً، حتى لو التقطت الصورة خلسة، ودأبت على التواجد في الخامسة من بعد ظهر كل يوم وأجتمع به، خاصة بعد أن توصله زوجته بالسيارة إلى المقهى، وقد نجحت.

ظلال حضارته

كانت مناسبة هذا الحوار فرصة لي لأبحث وأدقق في حالة كثيراً ما وجدتها في أفواه عدد من المثقفين السوريين والعرب، بل والأجانب، وهي أن هؤلاء كانوا ينفون عن

بلادنا وجود ظلال حضارية فيها، ويحاولون ربط التقدم بمنجزات قام بها الاستعمار بأشكاله القديمة (الانتداب في حالة سورية)، وقد وجدت أن هذه الظلال كانت موجودة ومتوفرة، وتشكل حجماً حضارياً، قد لا يقاس بالحجم الحضاري الغربي، لكنه حجم حضاري ذو شخصية شرقية، تتناسب وظروف البلاد التي بقيت طوال قرون بعيدة عن الحركة، قابعة في الجمود، حتى بدأ عصر النهضة، وفيه تحرك كثيرون، بينهم بسام كردعلي الدمشقي الذي كان من أوائل السوربونيين.

إن بسام كردعلي الذي أتيح له أن يسافر ويتعلم، وفي السوربون، قد اجتهد، في تطوير البلاد، على الطريقة الغربية، فهو رائد من رواد النهضة، خاصة في علمي التاريخ والجغرافية، لكن البلاد لم تكن خلواً من نسائم التطور على الإطلاق، وعن الأساسيات.

إنني أحيي الأستاذ بسام كردعلي، على ريادته في علمي التاريخ والجغرافية.

ملاحظات:

- علمت أن الأستاذ بسام كردعلي كان كريماً جداً مع شقيقه عبد الرزاق الذي ورث عن الأب مثل ما ورث، فقد قدم له طابقاً في بناء العمارة التي بناها في دمشق، دون مقابل.
- كان لأسرة كردعلي أملاك في قرية جسرين في الغوطة" وفي حين كان بسام يتعاطى في أعمال الزراعة، كان شقيقه لا يهتم بذلك.
- قد يكون من الحق القول إن بسام كردعلي كان أول سوري ينال شهادة من "السوربون" في علمي التاريخ والجغرافية من باريس، لكنه ربما كان قد نال آخرون شهادات من السوربون" في علوم أخرى، كميشيل عفلق، وصلاح الدين البيطار وغيرهم، قبله أو بعده بقليل.
- بدا الأستاذ بسام ناشطاً في ذاكرته، لكن سمعه ضعف قليلاً، مثل قدميه.

د. إحسان النص

زهد بالمال من أجل العربية !

لعل أبرز ما في مسيرة الدكتور إحسان النص أنه ضحى بعقد للعمل في المملكة العربية السعودية، من أجل نشر اللغة العربية في الجزائر، عندما قامت حركة التعريب فيها.. بعد الاستقلال.

لم أعرف ذلك إلا منه بعد أن بلغ الرابعة والثمانين، بل لم أكن قد التقيت به قط، لكنني كنت أسمع عن فتوحاته وكتبه، فلما تعرفت عليه، وجدت أنه يعرفني، وسمع عني عندما جاءتني خريجة، حاملة ليسانس في اللغة العربية، ترجوني أن (أشكل) لها نصاً.. لتلقيه في منتدى ما !

حب اللغة العربية

- **أين ولدت يا دكتور؟**
- في حي "القيمرية" في دمشق، أي داخل السور.
- **إنه الحي نفسه الذي ولدت فيه أنا، متى ولدت؟**
- عام ١٩٢١ م.
- **أين تلقيت علومك الأولى؟**
- في مدرسة "السفرجلابية" الخاصة، ثم في مدرسة "الملك الظاهر" الرسمية، ونلت البكالوريا الأولى والثانية منها عام ١٩٤٢ م.
- **مدة طويلة لنيل شهادتي البكالوريا؟**
- عندما انتقلت إلى مدرسة "الملك الظاهر" وضعت في صف أقل مرتين عن الصف الذي كنت وصلت إليه في "السفرجلانية".

- **من كان رفاقك في المدرسة؟**
- كثيرون، أذكر منهم د. شاكر الفحام، والأستاذ عبد الرحمن المارديني مد الله في عمريهما.
- **وأساتذتك؟**
- محمد البزم، جميل السلطان، زكي المحاسني، وجميعهم ارتحلوا.
- **وهؤلاء جعلوا اللغة العربية محببة إليك؟**
- كنت مولعاً بالكتابة منذ الابتدائية، وحبب هؤلاء الأساتذة لغتي إلي، فصرت أكتب. هل تعرف أنني أصدرت مجلات بخط اليد في تلك الفترة الجميلة من حياتي؟

دخل الدكتور إحسان النص مسابقة في الفلسفة، فكان الأول على سورية. وكان من زملائه في الفلسفة عبد الله عبد الدائم، وبديع الكسم وعبد الحميد دركل، ثم انتسب إلى الحقوق، وعندما أعلن عن مسابقة للإيفاد إلى مصر، اشترك فيها وكان الأول.

- **ولماذا مصر؟**
- كانت الحرب العالمية الثانية قائمة، والبعثات حولت من أوروبا إلى مصر، فذهبنا إليها.
- **كيف استقبلتم في مصر؟**
- لأعترف، استقبلنا بشيء من التعالي، كان أستاذنا عبد اللطيف حمزة، يظن أننا دون المصريين في اللغة، وبعد عدة أشهر اعتذر منا ووجدنا أرقى لغوياً ممن يتقنون العربية في مصر.

صديق الشاعر نزار

في هذا الجزء من الحوار، تذكر الدكتور النص أنه عمل بعد البكالوريا رئيساً لقسم الترجمة في وزارة الإعاشة، لكن هذا العمل لم يستمر سوى سنة واحدة، فقد أرسل إلى مصر، بعد المسابقة، ومعه رفيق عمره الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة اليوم.

- **كم كنت تتقاضى وأنت في البعثة؟**

- خمس وثلاثون ليرة سورية لكل موفد، لم تكن تكفي، وساعدنا الأشقاء المصريون، فأدخلونا في بيت الطلبة بلا مقابل.

- **كم كانت فترة الإيفاد؟**

- أربع سنوات، عدت بعدها إلى دمشق حاملاً الليسانس في اللغة العربية.

- **عدت إلى القيمرية؟**

- كلا، إلى مأذنة الشحم، في بيت انتقلنا إليه، وكان قريباً من بيت الشاعر نزار قباني الذي كان صديقي وابن حارتي الجديدة.

- **وبعد الليسانس فكرتم بالدكتوراه؟**

- فكرنا، لكن المرحوم ساطع الحصري رفض، عندئذ عينت أستاذاً للغة في حلب ثم في دمشق، وبقيت عشر سنوات، حتى أقنعت الوزارة بأحقيتنا بالإيفاد، فأوفدنا.

- **إلى أوروبا؟**

- بل إلى مصر.

- **لماذا إلى مصر هذه المرة أيضاً؟**

- كان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ مما يعني أن أوروبا لن تستقبلنا، فذهبنا أنا والدكتور شاكر الفحام وكان المشرف على رسالتينا الأستاذ شوقي ضيف، رحمه الله.

- **ومن كان أساتذتكم؟**

- طه حسين، أحمد أمين، عبد اللطيف حمزة، أمين الخولي.

- **أعلام اللغة في مصر وقتئذٍ .**

- كان هذا من حظنا الحسن.

- **ما هو عنوان رسالتك؟**

- للماجستير أم للدكتوراه؟

- **الاثنتين؟**

- للماجستير كان العنوان "الخطابة في العصر الأموي" وللدكتوراه "العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي".

- **هل أصدرتهما في كتب؟**

- أثناء إقامتي في مصر، طبعت لي دار المعارف رسالة الماجستير.

- **ورسالة الدكتوراه؟**

- طبعتها دار الفكر في سورية، وكان كتاباً كبيراً وهاماً.

مهمة قومية في الجزائر

عندما عاد الدكتور إحسان النص بعد نيله الماجستير ثم الدكتوراه، أصدر عشرة كتب في الأدب العربي وتفرعاته كالعروض والبلاغة، ولجأ إلى طريقة التحليل التي كان قد جاء بها من مصر، وكان قد عين مديراً لثانوية جول جمال، غير أنه نقل بعدها إلى الجامعة السورية، جنباً إلى جنب مع رفيق عمره ودربه الدكتور شاكر الفحام.

لم يكن رئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب سعيد الأفغاني يجامله كثيراً، لكنه عاد إليه، واعتذر منه لأنه شهد من مناقبيته وحبه للغة العربية ولتدريسها ما لم يتوقعه، فاقترب الرجلان من بعضهما البعض، مما كان له أثر كبير على تدريس العربية في الجامعة، وتخريج طلاب جيدين فيها.

في هذه الأثناء كانت الجزائر قد حصلت على استقلالها، ونادى المنادون بتعريب جميع المرافق التي كانت تسير باللغة الفرنسية، بعد استعمار دام أكثر من مائة وثلاثين سنة، وقد أرسل الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي وزير التربية في الجزائر يطلب الدكتور النص للمجيء إليها للإسهام في عملية التعريب التي لم تكن سهلة.

لماذا لم تكن سهلة؟ لماذا؟

كان هناك أناس يرفضون العربية ويؤثرون عليها اللغة الفرنسية، وكان لهم صوت.. لذلك صادفت متاعب ومصاعب جمة في مهمتي القومية التي ذهبت إليها وحدي لكنني لم ألن أو أتراجع.

خرجت طلاباً كثراً، يتقنون اللغة العربية، وكانوا لا يعرفونها.

كتب صدرت

- **حدثني الآن عن مؤلفاتك .**
- أصدرت بعض الكتب.
- **مثل ماذا؟**
- كتاب عن شاعر الرسول "حسان بن ثابت" وكتاب آخر عن الشاعر الجاهلي "زهير بن أبي سلمى".
- **أعرف أن لك كتاباً، عنوانه "الشعر السياسي في العصر الأموي" لكنني لم أطالعه ولم أره .**
- نعم هذه الكتب أصدرتها بعد عودتي من الجزائر.
- **وكتاب لك عنوانه "الشعر العربي في العصر الأموي".**
- نعم يؤسفني أن هذه الكتب جميعها قد نفذ، ويسرني أن أقدم لك نسخاً منها إن وجدت.
- **شكراً لك إن وجدت وإن لم تجد، وعسى أن تعاد طباعتها.**

في عام ١٩٧٩ بعد أن أمضى فترة لا بأس بها أستاذاً ثم عميداً لكلية الآداب في جامعة دمشق، استقال من الأستذة والعمادة وذهب إلى الكويت أستاذاً في قسم اللغة العربية في الجامعة هناك، ثم رئيس قسم، وكان هناك أساتذة من سورية.

- **ألم تصدر في هذه المرحلة كتباً؟**
- بلى، أصدرت كتاب "اختيارات من كتاب الأغاني".

- **أعرف أنه صدر في أجزاء؟**

- صدر في ستة أجزاء ضخمة.

- **كم بقيت في الكويت؟**

- عشر سنوات، كانوا يريدون التمديد لي، لكنني صممت على الانسحاب والتقاعد.

- **متى كان ذلك؟**

- عام ١٩٨٩.

- **قبل سنة واحدة من اجتياح الكويت؟**

- بالضبط !

- **هل كان ذلك نتيجة إحساس، توجس بأن الاجتياح سيتم؟**

- لا أبداً، كنت قد تعبت، وتعرضت لبعض الأمراض فآثرت التقاعد من العمل كله.

القبائل العربية

- **لكنك عدت إلى دمشق، وانتخبت عضواً في مجمع اللغة العربية؟**

- كنت انتخبت قبل ذلك بعشر سنوات، لكنني أخرت استقبالي كل هذه المدة.

- **غدوت عضواً في المجمع؟**

- نعم، وكان الدكتور شاكر الفحام رئيساً للمجمع.

- **هل عملت بعد ذلك؟**

- عملت..

- **مع أنك تقاعدت؟**

- تقاعدت من العمل الوظيفي، لكنني ما أزال أفكر والحمد لله.

- **ماذا عملت؟**

- رحت أعمل رئيساً لقسم الحضارة العربية في الموسوعة العربية لكنني تفرغت بعد ذلك للمجمع، وانتخبت بعد ثلاث سنوا نائباً لرئيس المجمع.

- **نائباً للدكتور شاكر الفحام؟**

- أجل، وكان منوطاً بي الندوات والمؤتمرات التي يعقدها المجمع أو يحضرها.. وهي مهمة ليست سهلة، لكنها ليست مستحيلة.

- **عاد الرفيقان فاجتمعا ثانية .**

- أجل.. إنه رفيق حياتي ودربي ومسيرتي.

- **ألم تصدر كتباً في هذه الفترة؟**

- أصدرت أعظم كتبي وأهمها في رأيي ورأي الذين طالعوه.

- **ما هو؟**

- القبائل العربية، أنسابها وأعلامها.

- **عم يتحدث؟**

- من عنوانه يعرف مضمونه، كتبت عن القبائل العربية وعن الأعلام فيها ولم أترك صغيرة أو كبيرة في القبائل إلا وذكرتها.

- **أي أنك قفزت إلى علم الأنساب؟**

- ليكن هذا، لكني أستطيع أن أقول إنه كتاب فريد لم يوضع مثله.

- **أعرف أن بعض المؤلفين قد كتبوا في علم الأنساب هنا في سورية؟**

- حاول بعضهم، لكنه قصر، وكان بعضهم يريد أن يكتب في أنساب العرب لغاية في نفسه. أما كتابي هذا فهو إضافة إلى أنه فريد من نوعه لم يقصد منه إلا الناحية العلمية، في وقت باتت فيه مثل هذه العلوم.. غريبة ومنسية.

- **ما الذي تعده الآن؟**

- أعددت كتاب "قواعد الإملاء" وأعمل في "تصحيح الأخطاء الشائعة" وما أكثرها.

الشغل الشاغل

صباح كل يوم جمعة ترى الأستاذ الدكتور إحسان النص بتواضعه، ومناقبيته، يجالس في مقهى الشام زملاء قدامى له، كعبد الرحمن مارديني، مرة كل أسبوع يدخل المقهى، وهذه صلته بالعالم الخارجي، إن شغله الشاغل هو اللغة العربية التي نذر نفسه لها، وقدم لها حياته، وضحى بالغالي من أجلها.

قلت للدكتور إحسان النص:

- أعرف شيئاً كثيراً عن تعصب الجزائريين للعروبة والعربية، مرة كنت في الجزائر أحضر مؤتمراً للأدباء العرب، عندما ناقشوا في مدينة وهران "القضية" رأيتهم متحمسين للغة العربية، يرفضون أية لغة سواها، همست في أذن رفيقي المرحوم محي الدين صبحي عن ذلك، فرفع إصبعه وطلب الكلام، وتكلم فقال إن هذه نظرة متعصبة، لأن في معرفة اللغات منفعة للبلاد، وقديماً قيل "تعلم لغة بلاد تأمن جورها" فكأن عش زنابير حط على صاحبي، سبوه وعزلوه، وهرب المرحوم شكري فيصل من جانبه.

قال الدكتور إحسان النص:

- معك ومع المرحوم محي الدين حق، لكن ما فعله الفرنسيون في الجزائر خلال أكثر من مئة وثلاثين سنة جعل الجزائريين يبغضون الفرنسية ولا يقبلون غير العربية، وعلى أية حال كانت لي مهمة في الجزائر، وهي تعريب قسم اللغة في كلية الآداب، فكأنه كان لي أثر في تحويل البلاد إلى عربية، إن لي هذا الشرف.

❖ ❖ ❖

هذا واحد من مشاهير دمشق، ولعل شهرته أوقع في نفسي لأنه من حي القيمرية الذي خرجت منه أنا أيضاً.

محطات

- الدكتور إحسان النص متزوج، وله ثلاثة أبناء، ابنتان وشاب، أما ابنه الرابع، بكره، قد توفاه الله في حادث.
- يحن إلى مجتمع الحارة في القيمرية أو مأذنة الشحم، لكنه يقطن اليوم في حي سكني من أحياء دمشق الراقية.
- وجد نسخة من كتابه "العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي" بصعوبة، فقدمها هدية لصديقه الأستاذ مروان شاهين، الذي قدمها لي لأصور غلافها.
- يقال إن كتابه الذي أصدره عن شاعر الرسول حسان بن ثابت قد نفذت نسخه بعد وقت قصير من إصداره.
- يحضر كل صباح جمعة جلسة لأصدقائه القدامى في فندق الشام وأبرزهم الأستاذ عبد الحميد مارديني.

بشير زهدي

الآثار.. حياتي

لخص الدمشقي خريج السوربون الأستاذ بشير زهدي حياته العملية، بقوله: "الآثار.. حياتي" فلقد أمضى معها أكثر من ٤٠ سنة، وتعمق في معرفة حضارة البلاد عن طريق آثارها. هو متواضع، جم الأدب، يمكن القول إنه مثقف وحضاري بكل ما تعنيه هذه الجملة من معاني، وأذكر أنني حضرت عدداً من محاضراته التي قدمها في المنتديات الثقافية، فوجدته ملماً بموضوعاتها، لا يترك شاردة أو واردة إلا ويأتي عليها.

من هو بشير زهدي، وما هي مسيرة حياته؟

في بيته في الميسات كان هذا اللقاء:

شهادته.. ودراسته..

- **الولادة؟ النشأة؟ الدراسة؟ الشهادات؟**
- ولدت في دمشق (الجسر الأبيض) عام ١٩٢٧ في أسرة شعبية، نشأت من أب يتيم بثني كل معاناته، وجعلني صديقه المطلع على ظروف الحياة وقسوتها.
- درست المرحلة الابتدائية في مدرستي «عرنوس» ثم "هنانو" والدراسة المتوسطة في إعدادية التجارة في "الحريقة" رغبة من والدي أن أكون مثله تاجراً، لكن ميلي كان بعيداً جداً عن الأمور التجارية، وقد أبعدني عن هذا المرفق ما كنت أراه من بعض التجار من جشع وطمع مما كان

يبعدني عن هذا الميدان، وكنت أحلم أن أكون معلماً لأن المعلم هو مثلي الأعلى، وفي الواقع عينت معلماً عام ١٩٤٤-١٩٤٥ في قرية حلبون. في وقت لم تكن فيه مواصلات ميسرة إلى حلبون، وكنت أمشي من منين إلى حلبون على الأقدام في طريق ترابية على ضوء النجوم، ثم عينت معلماً في قرية كفير يابوس على الحدود اللبنانية التي لم تكن تصل إليها المواصلات، فكنت أمشي من قرية جديدة يابوس إلى كفير يبوس، وأخيراً انتقلت إلى قرية أشرفية الوادي.

- ثلاث سنوات في الريف وسعت مداركي وأطلعتني على قيم الإنسانية في الريف، ثم نقلت إلى مدرسة عبد الملك في دمشق، حي القنوات، وخلال هذه الفترة نلت شهادة الدراسة الثانوية وشهادة إجازة الحقوق من جامعة دمشق عام ١٩٥١ فأوفدتني وزارة التربية إلى فرنسا، وتخصصت بالآثار الشرقية القديمة وتاريخ الفن وعلم الجمال وعلم المتاحف، وقد درستها في جامعة السوربون ومعهد اللوفر ومعهد الدراسات العليا، ونلت الشهادات الآتية: ليسانس في الآداب ودبلوم معهد اللوفر ولما عدت إلى سوريا عام ١٩٥٥ عينت أمين متحف حتى عام ١٩٨٠ ثم صرت مديراً للمتحف الوطني بدمشق.

الانضمام..

- **كيف تسنى لك أن تنضم إلى فريق الأثريين؟**

- كما رويت لك. درست الآثار في فرنسا، جامعتي السوربون ومعهد اللوفر أربع سنوات بنجاح، فاطلعت على علم الآثار وعلم المتاحف اطلاعاً أكاديمياً، وفي أرقى المعاهد الاختصاصية، وكان موضوع رسالتي الجامعية: بناء وتنظيم المدن السورية في العصر الهلنستي والروماني.

هنا دخلت صبية جميلة سلمت علي

- **من هي هذه الآنسة؟**

- إنها ابنتي

- **وزوجك؟**
- توفاها الله منذ سنتين، ولقد عانيت من فقدها كثيراً، رحمها الله رحمة واسعة.

مضيت في الحوار، قبل أن أنكأ جرحه.

ما الذي اكتشفته..

- **ما الذي اكتشفته في عالم الآثار في بلادنا؟**
- اكتشفت أن سورية والوطن العربي. غنية بالآثار التي تهيم بها رجال الثقافة في العالم، كما يهتم رجال الاقتصاد بالبترول العربي، ولا تقل هذه الثروة الثقافية عن الثروة الاقتصادية.

إن دراسة علم الآثار وعلم الجمال وتاريخ الفن وسعت آفاق ثقافتي وقمت بإلقاء محاضرات جامعية في بلادي في هذه المواضيع، كما ألفت كتباً عنها (سيأتي ذكرها فيما بعد) تعتبر مراجع علمية للطلاب وللمثقفين.

- **بأية لغة حاضرت؟**
- باللغة العربية في جامعة حلب الخاصة بالعلوم والفنون، وبالطبع في جامعة دمشق التي كنت أستاذاً محاضراً فيها، أما المؤتمرات التي اشتركت فيها فقد أسهمت بإلقاء بحوث باللغة الفرنسية في مواضيع علم الآثار والمتاحف.. والميتولوجيا.

المناصب التي تقلدها

وكان لا بد لي من أن أتعرف على المناصب التي تقلدها، فسألت:

- **ما هي المناصب التي تقلدتها في الآثار؟**
- أمين متحف الآثار الكلاسيكية (من عام ١٩٥٥ حتى عام ١٩٨١) ثم كنت مديراً للمتحف الوطني بدمشق (من عام ١٩٨١ حتى عام ٢٠٠٣

حيث تقاعدت) وكنت أستاذاً محاضراً في جامعة دمشق (من عام ١٩٥٩ حتى عام ٢٠٠٢) حيث ألقيت محاضرات في كلية الآداب بقسميها التاريخ والفلسفة، ومحاضرات في تاريخ العمارة لمدة سنتين في كلية العمارة.

- **ما هي مواضيع محاضراتك في العمارة؟**
- تاريخ العمارة في العصور الوسطى.
- **ومحاضراتك في كلية الفنون الجميلة؟**
- علم الجمال وتاريخ الفن.
- **وفي جامعة حلب الخاصة للعلوم والفنون؟**
- ألقيت محاضرات في تاريخ الفن ومحاضرات في الحضارات والأساطير لمدة سنتين.
- **هل اشتركت في بعثات البحث عن الآثار التي لا تنقطع في بلادنا؟**
- كنت أمثل المديرية العامة للآثار والمتاحف لدى بعثات التنقيب في تل رفعت وتل أوغاريت (رأس شمرا) وتل خويره.
- **ما هو نوع التمثيل الذي كنت تؤديه لدى هذه البعثات؟**
- بناء على توجيهات مديرية الآثار كنت أرافق هذه البعثات الأثرية الفرنسية والإنكليزية والألمانية، وأقوم بكل ما يلزم لتأمين عمل هذه البعثات، مع عمالها السوريين، والاطلاع على نتائج التنقيب الأثري وإرسال ملخص ودراسة عن هذه المكتشفات الأثرية، علماً بأن هذه البعثات تتمتع بالأخلاق العلمية المتميزة.

البعثات موضوعية

وهذه إشارة إلى أن البعثات الأثرية الأجنبية غالباً ما تكون موضوعية، ولا تتدخل في الشؤون الداخلية للقطر الذي تعمل فيه، وهي شهادة مرموقة.

ابتكار الأبجدية..

- ما هي الدلالة التي خرجت منها، بعد هذه الفترة الطويلة التي أمضيتها مع الآثار؟

- أفادني عملي في مديرية الآثار كثيراً، وجعلني أستنتج ما يلي:

أولاً : قدم نشوء الحضارة في سورية منذ نحو مليون سنة.

ثانياً: الاستمرار الحضاري في سورية وتعاقب الحضارات السورية وانفتاح سورية الحضاري عبر العصور.

ثالثاً: التفاعل الحضاري بين سورية وأقطار العالم (حوض البحر المتوسط - إيران - آسيا الوسطى - أوروبا - القارة الإفريقية، وفي عصرنا أمريكا).

رابعاً: إسهام سورية الحضاري مثل ابتكار الأبجدية في أوغاريت - صناعة الفخار وصناعة الزجاج وصناعة الحلي - أضف إلى ذلك الفكر الأخلاقي والجمالي.

بصورة عامة استنتجت أن الثقافة هي التي تجعل أفضل العلاقات بين الأفراد والشعوب، لهذا أنا أفخر بأنني مثقف، وأفخر بأقوال أجدادي القدماء مثل قول المفكر الأوغاريتي الذي يدعونا إلى التسامح واحترام أرباب الآخرين، وقول الشاعر السوري القديم تيليافر (من مدينة جوره) الذي يدعو إلى الأخوة الإنسانية: "لا تظنوني غريباً. كلنا من وطن واحد، هو العالم"

اهتمامات ثقافية..

- أعرف اهتماماتك الثقافية حدثني عنها؟

- أنا مهتم بعلم الجمال الذي أعتبره أجمل العلوم، وكل إنسان بحاجة إلى هذا العلم الذي يجعل علاقاته مع الآخرين جميلة، وقد ألفت كتابين في علم الجمال وألقيت محاضرات عديدة فيه.

وأدركت أن للمتاحف وظائف حضارية واجتماعية وثقافية متميزة، ورأيت أن علم الآثار يجعلنا أكثر إنسانية مما نحن عليه، لأنه يطلعنا على أخبار الأجيال الماضية، فنردد القول المأثور: إن كان الإنسان يفنى فإنه خالد بآثاره ومآثره.

الكتب التي ألفها

ولأنه مختص بعلم الجمال وبالآثار.. فلا بد أن له كتباً عديدة ألفها..

- ما هي كتبك التي أصدرتها حتى الآن، ماذا تنوي أن تصدر في المستقبل؟

- ١٣كتاباً مطبوعاً عناوينها كما يلي:

١- فلسفة الجمال.

٢- علم الفن.

٣- المتاحف.

٤- دمشق وأهميتها العمرانية.

٥- معلولا.

٦- الرصافة: لؤلؤة بادية الشام.

٧- دليل المتحف الوطني.

٨- تاريخ الفن (من أقدم العصور حتى الفن الإسلامي).

٩- تاريخ الفن في عصر النهضة.

١٠- حضارات وأساطير.

١١- الفن السوري في العصر الهلنستي والروماني.

١٢- كتبي دورا في المتحف الوطني.

١٣- الصناعات البدوية السورية.

وهناك أكثر من ١٥٠ بحث علمي، في أرقى المجلات مثل المعرفة والمعلم العربي والرياضة والحياة.

رأيه بالثقافة

ومثقف مثله يحمل في قلبه وعقله رأياً خاصاً في الثقافة السورية.

- ما رأيك بالحركة الثقافية في سورية بشكل عام؟

- إن سورية مهد الحضارات والفكر الإنساني الخالد، مما جعل لسورية قوة متميزة، جعلتها تصمد أمام الغزوات المختلفة. إن كل إنسان مثقف يحترم

سورية ويحبها، وبهذه المناسبة القصة الآتية زار مغترب مع أسرته سورية فكان موضع تكريم الجميع وبعد نهاية الإجازة توجه المغترب مع أسرته إلى المطار همس ابنه في أذن أمه قائلاً: "ليتني ولدت في سورية بلد الحب".

ثقافة الآثار

ويحمل في عقله وقلبه رأياً في ثقافة الآثار..

- **وبحركة الآثار بشكل خاص؟**
- عندما نتحدث عن الآثار أرى من واجبي الأخلاقي أن أعترف بالجميل إلى أولئك المؤسسين، وأخص محمد كرد علي وعبده كحيل ومحمود وهبة والأمير جعفر الحسني والدكتور سليم عادل عبد الحق وزوجته وغيرهم، لأنهم أسسوا دائرة الآثار وطوروها وشيدوا مبنى المتحف الذي يعتبر من أهم متاحف العالم وأغناها بالمجموعات الأثرية السورية، وأصدروا مجلة الحوليات الأثرية التي تعتبر موسوعة متميزة.

حرب منذ ٦ آلاف سنة

كنت قرأت قبل أن أجيء إلى بيت الأستاذ بشير زهدي خبراً عن بعثة أثرية اكتشفت موقعاً على الحدود العراقية عن أول حرب بشرية، وقعت منذ ٦ آلاف سنة، فاهتبلت الفرصة وسألته:

- **قرأت في مجلة ما عن الآثار في سورية أنه عثر على آثار أول حرب بشرية في موقع، قرب الحدود العراقية؟ هل قرأت مثل هذا؟**
- هناك دراسة باللغة الفرنسية عن الحروب القديمة، ويبدو أن الصراع لا ينقطع، وإنني أحلم بذلك اليوم يسود فيه الحب جميع البشر والمجتمعات الإنسانية، وأنا متفائل بأن المجتمع الإنساني حقق معجزات كحقوق الإنسان وغيرها. وسيأتي ذلك اليوم الذي يعيش فيه المجتمع في عصر المحبة والمودة والتعاون منسجماً مع قول الشاعر السوري تيليافر: "كلنا من وطن واحد هو العالم".

الشباب والآثار

- هل تشجع الشباب على الانضمام إلى فرق الأثريين في البلاد؟

- **إنني أشجع الشبان على الانضمام إلى هذه الفرق ودراسة الآثار والتراث الحضاري وذلك ليشعروا بالفخر بالانتماء القومي وتأكيد الهوية الحضارية الإنسانية.**

أيها أغنى..

وخطر لي أن أسأله عن كثرة الآثار في سورية أيها الأغنى، فوجهت إليه السؤال التالي:

- **أيها أغنى في الآثار من الحقب التي مرت بها سورية القديمة، الإسلامية، الحديثة .. ولماذا، وماذا تفضل أنت شخصياً؟**

- إن الحضارات التي ازدهرت في سورية قبل الإسلام لها منجزاتها الأثرية والثقافية المتميزة، ولكن الحضارة العربية الإسلامية تعتبر إحدى الحضارات العالمية الكبرى التي يعترف بها الجميع، ولها منجزاتها العلمية والثقافية، مما يجعل الجميع يحرصون على دراستها.

مجلة المعرفة

- **كلمة أخيرة .. توجهها إلى قراء المعرفة؟**

- أشكر وزارة الثقافة التي أصدرت هذه المجلة الثقافية الرائعة التي يشرفني أن أكون أحد المشتركين بها منذ تأسيسها وأعترف بأني أفدت منها إفادة كبيرة، كما أنني حريص على أن تتابع هذه المجلة رسالتها الثقافية وتعود باستمرار لأن الثقافة مرآة المجتمع وأداة لتطوير المجتمع وتوثيق العلاقات الاجتماعية والودية مع الآخرين.

❖ ❖ ❖

كان حواراً ممتعاً مع مثقف دمشقي من بلادي، متواضع ومنسجم مع موضوعه شغل مناصبه نصف قرن ومن ثم تقاعد، لكن حماسته الأثرية.. تملأ حياته.

محطات

- هو عضو لجنة الفنون التشكيلية ولجنة التاريخ والآثار.
- عضو في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.
- عضو لجنة الايكوم الدولية لمتاحف التاريخ والآثار، ولجنة الايكوم الدولية لمتاحف ومجموعات الزجاج.
- كتب المواد العلمية لأفلام وثائقية للتلفزيون ومؤسسة السينما.
- أسهم في كتابة بحوث للموسوعتين العربية والفلسطينية.
- نال وسام من إيطاليا بدرجة فارس ووسام من فرنسا بدرجة ضابط، ووسام من سورية بدرجة استحقاق من الدرجة الأولى.

أقام ثلاثة معارض لرسومه في المركز الثقافي الفرنسي بدمشق والمركز الثقافي الإسباني في دمشق.

❖ ❖ ❖

دمشقي آخر مشهور في مرفق الآثار. وهو يعد بحق واحداً من مشاهير دمشق في الألفية الثالثة.

نذير نبعة

وسام الاستحقاق الممتاز

في طريقه إلى مصر، التي يذهب إليها كل عام، مرة مرتين، لا لأنه درس فيها، بل لأن زوجته الفنانة "شلبية إبراهيم" قاهرية، يقيم أهلها في القاهرة، وقد تعرف عليها أثناء دراسته وتزوجها، كان يحمل حمولة زائدة عن المسموح به، فلما أراد الموظف مساءلته، قال له: "أنا فنان". قال الموظف: "أين تعمل في الفن؟" خطرت له مجلة "أسامة" فذكرها، فإذا بالموظف كان من قرائها صغيراً. رحب به، وقال له: "أهلاً بفناننا العظيم"

رأيت هذا المشهد بنفسي، عندما كنت ذاهباً إلى القاهرة، أنا الآخر. انتبهنا إلى أننا كنا معاً في "أسامة" فدل الموظف علي..

هذا هو الفنان الدمشقي نذير نبعة المتواضع الذي يقرأ حيوات الناس بالألوان.

أصغر فنان

- **متى ولدت يا نذير وأين؟**
- ولدت عام ١٩٣٨م في منطقة المزة التي شاهدتُها تلحق بدمشق، وقد كانت قرية على تخوم دمشق يوم ولدت.
- **متى شعرت أنك تجيد الرسم؟**
- منذ وقت مبكر. كان الرسم يجذبني إليه، والألوان تتجسد في عيني لوحات قبل أن أرسمها.
- **متى اعترف بك فناناً تشكيلياً؟**
- في وقت مبكر.

- **متى بالضبط؟**
- كان عمري ١٢ سنة، عندما شاركت في أول معرض تقيمه وزارة الآثار والمتاحف السورية. كنت ما أزال في المرحلة الابتدائية.
- **هل تقدمت بلوحاتك في تلك السن وقبلت ؟**
- تقدمت بلوحة واحدة رسمتها بالمائي، فقبلت، وظهر اسمي بين فناني تلك الفترة، وكانوا أكبر مني.
- **تعني أنك كنت أصغر فنان يعرض في معرض سوري .**
- نعم، وكان ذلك عام ١٩٥٢م.

رصد تلك الفترة

يبدو أن هذا العرض المبكر لوحة له قد شجعه على خوض غمار تجربة الفن، كما أن تشجيع أساتذته له حمّسه على ذلك. راح يرسم في مراحل الدراسة الأخرى، (الإعدادية والثانوية، فلما نال البكالورية ذهب إلى القاهرة ليتعلم أسرار الفن التشكيلي ويبحث عن هويته، كما قال، وهناك التقى بطالبة في المعهد الذي التحق به فتزوجها. إنها الفنانة التشكيلية شلبية إبراهيم، التي لا تقل عنه حباً بالفن ودراية، وإنتاجاً، فهما منذ تزوجا سلكا طريقا واحدة.

سألته:

- **إلى أي المدارس تنتمي؟ لقد قرأت أنهم صنفوك واقعياً.**

أجاب:

- أظن أن هناك تأثيراً للمدرسة الانطباعية التي كانت موجودة في لوحات الفنانين السورين بعد الاستقلال.. إن المسألة ليست مفهومة تماماً، لأن الثقافة الفرنسية كانت سائدة، من قبل، ثم جاءت النهضة القومية بعد الاستقلال، فإنتاجي هو ثمرة رصد تلك الفترة، ويبقى أن الفنان هو الذي يخاطب المتلقي بتركيبية أو ببساطة..

طبيعة صامتة

كان الفنان نذير نبعة ينتج باستمرار، منذ كان صغيراً وقبل أن يدرس في مصر، ثم في فرنسا (منذ ١٩٧١م حتى ١٩٧٤م) وقد أقام عدة معارض، كان أخرها معرضه في صالة أتاسي باسم (التجليات). ولقد شاءت الصدف أن أشتري لوحة من رسمه، عندما أقام معرضاً للوحات في المركز الثقافي العربي بدمشق. كانت لوحة أكبر من حجم الكف بقليل. ولقد بهرتني اللوحة ودقتها. كانت باسم "طبيعة صامتة" وفيها رسم الفنان مقطعاً لرمانة حبها أحمر اللون، وإلى جانبها مكحلة مما كانت النساء يستعملنها في الأيام السابقة. لقد أخذت بسحر هذه اللوحة، فطلبت شراءها، ولأن صديقي باعني إياها بثمن قليل مع أنها تساوي الآن الآلاف، وما أزال احتفظ بها مع مجموعتي من اللوحات، مقتنياتي.

البداية

يروي نذير نبعة قصة حياته الأولى مع الألوان:

"ولدت لعائلة متواضعة في بستان من بساتين المزة التي اختفت الآن وأصبحت أحد الأحياء الإسمنتية الجديدة في دمشق.... فقد عاصرت خروج الفرنسيين من قريتي. كطفل في بداية الوعي.... وكان بستان جدتي "أم منصور" هو جنتي الجميلة التي تعلمت فيها عشق الطبيعة. من هذا العشق كانت الدروس الأولى في تربية البصر والبصيرة، وكان بيتها أول مرسم لي.

ويذكر كيف رأى في بيت أستاذ الرسم "ثابت القباني" أول صورة ملونة ومعلقة على الجدار، وعلى صور بعض المعلمين الأوائل، كصلاح الناشف الذي أصبح أستاذه في الابتدائية، ثم تعرف على جاره الفنان الكبير محمود جلال، لصداقته بابنه، وقد سحرته لوحة "الراعي" التي تسمر في مكانه يرنو لها، وشاهد أنابيب الألوان الزيتية فكأنه عثر على كنز.

الإصرار على الرسم

-بعد ذلك وفي مدرسة "حافظ إبراهيم" في المزة نلت الجائزة الثانية في المعرض السنوي للمدرسة، وفي بداية الخمسينات وافقت لجنة المعرض على عرض لوحة لي هي "السكين" ففرحت جداً لأنني كنت أصغر عارض في معرض يقام في المتحف الوطني.

حصلت على الابتدائية التي كانت بطاقة خروج من عالم القرية الريفي إلى دمشق، وفي الإعدادية والثانوية (التجهيز الأولى) تعرفت على أصدقاء وأدباء وأفكار، وفي مرسم المدرسة تعرفت على الفنان "ناظم الجعفري" الذي تعرفت، على يديه استعمال الخامات: القلم الرصاص، أصابع الفحم، الألوان المائية والزيتية، أنواع الورق والقماش، ورحت أتعلم الرسم بشكل علمي، وبدوت مصراً على هذا التعلق بالفن. وتعرفت على الفنان الحلبي فتحي محمد الذي كان يهيئ تمثالاً للضابط (الشهيد عدنان المالكي) والذي منحني صداقة اعتز بها. كانت هذه المرحلة مرحلة التأسيس وفيها تعلقت بالفن، وفيها تكونت لدي القناعة بدراسة الفن، واختياره طريقاً للحياة. وهكذا أتيح لي، بعد حصولي على الثانوية العامة، أن أحصل على منحة لدراسة الفن التشكيلي في القاهرة.

- **متى كان ذلك؟**
- في أواخر الخمسينات. أيام حكم الوحدة والرئيس المرحوم جمال عبد الناصر.
- **أين أقمت في القاهرة؟**
- في حيٍ الدقي.. مع بعض الأصدقاء السوريين.
- **ماذا شكلت لك هذه المرحلة؟**
- كانت بالنسبة لي ولادة ثانية !

الدراسة في القاهرة

كان أساتذة كلية الفنون الجميلة بالقاهرة يأخذون الطلاب إلى الجديد في الفن، وقد تعرف نذير نبعة، وقتئذٍ، على أساتذة كبار، أمثال حسين بيكار وعبد الهادي الجزار، وعبد العزيز درويش وحامد ندا علموا الطلاب أن يتبنوا الروح

التجريبية الخصبة في الفن، التي كانت تربة صالحة للإبداع، وكان من حسن حظ نذير نبعة أنه عاش ذلك الثراء الثقافي الذي شمل جميع الفنون والآداب.

- كانت القاهرة هي الأم التي علمتني أن مسألة الفن والثقافة هي موقف وطريق، قبل أن تكون مهنة.

- **هل تكون لك أصدقاء في القاهرة؟**

- اعترف أن أعمق صداقاتي على مدى العمر ولدت في القاهرة.

- **بعد تخرجك عام ١٩٦٤ أين عملت؟**

- في دير الزور.

- **كيف كانت هذه المدينة؟**

- مدينة غارقة في خصوبة الفرات. وكنت أجد نفسي، في الواقع، بين السماء والأرض، فعرفت التوحد مع الكون وبدأت علاقتي بالأسطورة.

- **لماذا هناك بالذات؟**

- لأن وادي الفرات غني بأساطيره الآتية من الميثولوجيا القديمة، وغني أيضاً بالملاحم والحكايات الآتية من أعماق الصحراء، مما دفعني إلى تجربة استلهام الأساطير والملاحم الفراتية، ورحت أبحث عن طريق التصور والتصوير كيف ترسم صورة الشخصية ومعانيها بالكلمات والجمل، وكيف تعبق المشاهد والأجواء بمضمونها الفكري ومضمونها الجمالي.

- **ماذا رسمت بهذا الاتجاه؟**

- رسمت كثيراً.

- **مثل ماذا؟**

- كاهنة مردوخ. عشتار على سبيل المثال.

- **أظن أن النكسة هبطت عام ١٩٦٧م، فكيف هبطت عليك؟**

- وجدت نفسي مشدوداً لشخصية الفدائي الفلسطيني، كمنقذ من الخيبة والإحباط، مما جعل إنتاجي في تلك الفترة يدور حول هذه الشخصية.

فكانت مجموعة الملصقات الفلسطينية، وأنجزت مجموعة من الرسوم المأخوذة عن شعر الأرض المحتلة، وكانت مستوحاة من قصائد سميح القاسم ومحمود درويش وتوفيق زياد وسالم جبران وراشد حسين، وصنعت الماكيت الأول والرسوم الأولى لمجلة "فلسطين الثورة".

- **أعرف أنك اشتركت معي في تأسيس مجلة" أسامة" للأطفال؟**

- أجل. أصدرتها وزارة الثقافة، وكان فيها كبار الكتاب أمثال زكريا تامر وسعد الله ونوس ونجاة قصاب حسن، وممتاز البحرة وأسماء فيومي وغيرهم..

- **أعرف أنك سافرت إلى باريس في بداية السبعينات؟**

- كانت فرصة للخروج بعد النكسة والمعاناة، وكانت بالنسبة لي مواجهة مع الثقافة الغربية. زرت هناك المتاحف وشاهدت أعمال الفنانين الكبار عن كتب:

- **مثل من؟**

- فان كوخ. ماتيس، ماكس، ونست. سلفادور دالي، فرنسيس بيكون.

- **ماذا كنت تفعل في باريس غير الدراسة؟**

- كنت احتك بالفن والفنانين، واكتب مقالة عن أي معرض أزوره، وقد نشرت هذه المقالات في مجلة "الطليعة" السورية من عام ١٩٧١م إلى عام ١٩٧٤م.

رسام.. لتفهمني..

- **ماذا عنت لك الدراسة في باريس؟**

- كانت الدراسة في باريس، وفي المدرسة الوطنية العليا (بوزار باريس) تعني التواصل مع الآخر "المتلقي". كان التشخيص هاجسي وقد عملت في هذا النوع، ضمن آلية تقنية...

- **هل يمكن أن تشرح لي هذه الآلية؟**

- أبدأ باللون مع عاطفة غامضة، ثم أحاول استنباط التشخيص من الغوص في اللونية المتحركة بحذف الأشياء الأقل أهمية وتأكيد الفكر الأصلية للوحة.

- يبدو أن المسألة تحتاج إلى خبير؟

- هو ذاك. كي تفهم عليك أن تكون رساماً.

الشكل المرئي..

لا تشكل حياة الفنان نذير نبعة مفاجآت. إنها تسير وفق خياره، فهو فنان يعيش لفنه، ويبدع كلما مضى به الزمن.

وغي معرضه الأخير كتبت "منى أتاسي" صاحبة الاتليه. الذي عرض فيه لوحاته: "ماذا أقول عن كل ما مدني به نذير من سير ومعلومات وتفاصيل قيمة ومشوقة عن حكاية الفن التشكيلي في بلدنا. وعن بداياته وما تلاها، وكم بدا لي نبيلا وموضوعياً ودقيقاً في كل مرة أتى فيها على ذكر معلم أو أستاذ أو سيرة فنان أو عمل فني".

وكتب زميله الفنان الياس زيات في "التجليات" وإذا كان التجريد في الفن المعاصر يعني التخلي عن الشكل المرئي عبثاً في موسيقى اللون أو دراما الانفعال، فإن نذير نبعة بقي ينشر الشكل المرئي في لوحته.

الجوائز..

صار نذير نبعة فنان الشكل المرئي.. أستاذاً، يدرس ما تلقاه وما استنبطه، ومثلما كان وفياً لمجتمعه، بادله المجتمع الوفاء، فقال إن منحه جوائز عدة، لعل أهمها وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة في عام ٢٠٠٥م، وقبل ذلك نال دبلوم شرف بينالي القاهرة عام ٢٠٠٤م، وجائزة لجنة التحكيم بينالي القاهرة الدولي عام ١٩٩٥م، وجائزة المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة في باريس ١٩٧٤م، ودبلوم شرف من معرض برتسلاف الدولي في مجال رسوم الأطفال عام ١٩٧٩، ودبلوم معرض لاييزغ الدولي في مجال فن الغرافيك (على كتاب.. أغاني الصغار" أشعار الأستاذ سليمان العيسى، وجائزة تقديرية من بينالي الإسكندرية الدولي عام ١٩٦٨م.

وقد جاء منحه وسام الاستحقاق السوري تتويجاً لعمله الدائب في الفن التشكيلي الذي يعتبر الآن فيه واحداً من أبرز فناني سورية وأبرزهم في دمشق التي ولد فيها وأحبها.

محطات في حياة نذير نبعة

- من معارضه الشخصية معرض (صالة الفن الحديث) عام ١٩٦٥م بدمشق ومعرض (صالة الصيوان) عام ١٩٦٨م بدمشق، ومعرض (غاليري وان) ببيروت عام ١٩٦٩م، ومعرض المركز الثقافي العربي في دمشق عام ١٩٧٩.
- قام بإعداد معرض استعادي في المجتمع الثقافي بأبو ظبي عام ١٩٩٨م.
- شارك بمعرض تجليات كضيف شرف في بينالي القاهرة عام ٢٠٠٤م.
- اشترك بمعارض مشتركة ما بين عامي ١٩٦٤م و٢٠٠٦م في كل من دمشق، وحلب، والقاهرة، وباريس ومدريد ومدينة بولونيا الإيطالية وسان باولو، وموسكو وطوكيو ولايبزغ وبرتسلاف.
- له مشاركات وتجارب في مجال الرسم الصحفي والرسم للأطفال.
- يكتب مقالات في الفن التشكيلي.

د. كمال فوزي الشرابي

دكتور في التاسعة والسبعين!

عندما سرح هذا الدمشقي من عمله في مؤسسة التبغ في دمشق، لم يعرف لماذا سرح، وعندما أعيد إلى عمله بعد عشر سنوات أمضاها في لبنان كان يعرف أنه لولا الرئيس حافظ الأسد لما أعيد.. لهذا يعشق الرئيس الراحل ويجله، ما دام حياً، ولهذا أهداه قصيدته. "سمفونية الإخلاص" التي يقول فيها:

[يا سيدي

لا

للطغاة لا

لن تعمل السيوف في الرقاب والرصاص..

أنت السيد الرؤوم.. والخلاص..]

تزوج الشعر..

في يوم من أيام أيار ٢٠٠٦م، تواعدنا على اللقاء في مقهى "الروضة" بعد أسبوع، ترك فيه عندي عدة دواوين، كان أصدرها، منها ما كتب عليه "للإعارة لمدة أسبوع" ومنها ما أهدانيه. قرأت جميع ما صار عندي فوجدت شعراً وشاعراً بحق. قدرت أن النجاح والانتشار يخضعان للحظوظ، وأن الشرابي شاعر دؤوب، ينظم وينشر ويلقي، فهو قد تزوج الشعر منذ كان في الابتدائية، وجعله قضيته الأولى، حتى لا أقول الوحيدة.

- **متى ولدت. مدّ الله في عمرك؟**

- في دمشق عام ١٩٢٣م

- **كيف بدأت مع الشعر؟**

- منذ كنت في السنة الخامسة من عمري، كان والدي يغريني بحفظ أبيات من الشعر العربي الأصيل، وأذكر أنه كان يمنحني منحاً سخية عندما كنت أسمعه عدة أبيات من الشعر، حفظتها، فتراكم حفظي للشعر شيئاً فشيئاً، حتى حفظت دواوين كاملة، منذ نعومة أظفاري.

- **هل كان والدك شاعراً؟**

- كان محباً للشعر..

- **ماذا كان يعمل؟**

- كان مديراً للمالية في "اللاذقية".

- **هل تذكر لي شيئاً مما حفظته من الشعر العربي؟**

- حفظت لامية العجم للطغرائي، وأبياتاً كثيرة من لامية العرب لابن الوردي، وأبياتاً من الفخر للشاعر العربي الكبير المتنبي، وغيرها.

- **هكذا بدأت ثقافتك؟ وما هو المصدر؟**

- كان لدى والدي مكتبة عامرة، وكنت أقرأ كل يوم كتاباً، قرأت المكتبة كلها.

- **أين درست؟**

- في الكلية العلمية الوطنية. كنت تلميذاً داخلياً، وكان من رفاقي في المدرسة نفسها الشاعر المرحوم نزار قباني. إنه من مواليدي.

المكشوف والشمس

أصدر كمال فوزي الشرابي، وكان في عامه الثالث عشر مجلة سماها "الصرخة" بصفحات متنوعة، فيها يكثر الشعر، وفي العام الذي تلا، أي في سنته الرابعة عشرة بدأ كتابة الشعر، ولكن الشعر الموزون المقفى الذي لم يحد عنه أبداً.

- **هل تذكر أبياتك الأولى؟**

- كتبت قصيدة مطلعها: على ما أذكر:

ردي إلى فؤادي
يا من نسيت ودادي

- **كان شعر غزل؟**
- أجل. بحكم سني وقتئذٍ. كنت في سن المراهقة.
- **أين كنت تنشر؟**
- كنت أرسل نتاجي الشعري إلى مجلة "المكشوف" التي كان صاحبها شيخ الأدباء "فؤاد وحيشي" وقد نشر قصيدتي الأولى، ثم تابعت النشر في "المكشوف" ومجلة "الشمس" اللتين كانتا تصدران في بيروت، وانقطعتا بعد ذلك بمدة.

ديوانه الأول

راح الشرابي يتابع نظم الشعر بالتوازي مع دراسته الابتدائية ثم الثانوية ثم الجامعية حيث نال إجازة في الحقوق من الجامعة السورية، كما كانت تسمى الجامعة الوحيدة في سورية. وعين موظفاً في المؤسسة العامة للتبغ في مدينة اللاذقية، وفيها، تلك المدينة الساحلية الجميلة، قرر مع مجموعة من أصدقائه الأدباء إصدار مجلة شعرية، اختاروني رئيساً لتحريرها..

- **ماذا كان اسمها؟**
- القيثارة. أليس اسماً جميلاً؟
- **كيف كانت؟**
- بدت كأنها امتداد لمجلة "أبولو" التي كان يصدرها في القاهرة أحمد زكي أبو شادي. كانت "القيثارة" تصدر بـ ٦٠ صفحة مرصوصة، وكانت تتناول الشعر وفنوناً جميلة أخرى، وقد سدت فراغاً كبيراً في الساحة الأدبية.
- **متى كان زمن إصدارها؟**
- منذ عام ١٩٤٦م، وحتى نهاية عام ١٩٤٧م، لكنها توقفت لأنني، من ضمن الأسباب المختلفة، نقلت إلى دمشق، فتعذر عليّ نقلها إلى العاصمة..

- **وأكملت رحلتك مع الشعر؟**
- أجل. أصدرت ديواني الشعري الأول عام ١٩٦١م، وكان بعنوان "قبل لا تنتهي" ألم تقرأه؟
- **أين ومن نشره؟**
- صدر في بيروت عن " المكتب التجاري " الذي كان مديره زهير البعلبكي، واستقبل استقبالاً رائعاً، كما كان شعري يستقبل.. ولازال.

الحرية والبنادق

حدثت نكسة في حياة كمال فوزي الشرابي عام ١٩٦٦م عندما سرح من عمله الوظيفي دونما سبب يعرف. فذهب إلى لبنان، وعمل مديراً لمكتب الشاعر اللبناني الكبير سعيد عقل، كما راح يدرس الأدب العربي واللغة والأدب الفرنسيين، وينشر قصائده في الصحف والمجلات التي كانت تصدر في تلك الفترة، وفي عام ١٩٧٤م أصدر ديوانه "الحرية والبنادق" ومن نكسة تسريحه، إلى كارثة نهب بيته في "الحي الجديد "قرب " عين الرمانة"، وجد سبباً إلى الاستنجاد بالرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، خاصة بعد أن بدأت الحرب الأهلية.

- حدثني عن تلك الفترة؟
- كان مما سرق مئات النسخ من ديواني "الحرية والبنادق" الذي أشيد فيه بفلسطين وضرورة تحريرها، مما جعل بعضهم يحقد علي، وينهب بيتي ومتاعي كله. وقتئذ استنجدت بالرئيس الراحل حافظ الأسد الذي لم ينجدني فحسب، بل أيضاً أعادني إلى وظيفتي في دمشق. فأنا أكن له عظيم الاحترام والحب، ما دمت حياً، إنه الرئيس العظيم المنصف.

بدا الشاعر كمال فوزي الشرابي متأثراً بعظيم النجدة التي قدمت له في تلك الفترة، وقد رأيت ملامح من الدموع تغزو عينيه.

- **حدثني عن الجانب الآخر من حياتك؟**
- أي جانب تعني؟

- **أعرف أنك كتبت الزجل وغناه كبار المطربين والمطربات؟**
- أجل: لحن كبار الملحنين الزجل الذي كتبته خصيصاً ليغنى. وقد غُني.
- **من هم الملحنون والمطربون الذين غنوا أشعارك؟**
- من الملحنين محمد محسن، نجيب السراج، إبراهيم جودت، سهيل عرفة، عدنان أبو الشامات، سمير حلمي، ومن المطربين، المطربة نازك، نجيب السراج، فاتن صيداوي، كنانة القصير. المرحومة ربى الجمال. وآخرون..
- **أما زلت تكتب الزجل؟**
- مازلت.
- **لكن المطربين الجدد لا يقصدونك هذه الأيام؟**
- هذا لأن عندي اهتمامات أخرى، في هذه المرحلة.
- **ما هي؟**
- أقوم بترجمة بعض النصوص الأدبية وأنشرها في الصحف، مع بعض المقالات.
- **طيب . هل تعطيني نموذجاً من زجلك؟**
- "مشي معي نعمل سوا مشوار

عند المسا

مشي معي نعمل سوا مشوار

ما بينتسى

- **أعرف أن هذا الزجل لجورج عشي ..؟**
- كلا. إنه لي.
- **هل عندك نموذج آخر لزجلك؟**
- قلبي معك

مطرح ما بدك روح

بازحف وراك لاتبعك

ولو كنت كلي جروح..

- **من غناه؟**
- ما عدت أذكر. تلك الفترة ضاعت في سراديب ذاكرتي.

خمسة دواوين..

- **هل لديك شيء تنشره قريباً؟**

- سأعيد طبع دواويني المطبوعة سابقاً، وأهيئ للطبع خمسة دواوين جديدة.

- **ما هي؟**

- ديوان باسم "جنة العاشقين" وثان باسم "دفتر المحبين" وثالث بعنوان "السمفونية البحرية" ورابع بعنوان: "البياض العاشق والوردة الدمشقية" وخامس "بواكير القول والجمال" وهذا سيضم أعمالي القديمة في فترة المراهقة والشباب. إن دواويني هي أولادي، يا أستاذ عادل.

- **هل لك خصوصيات؟**

- أحب الموسيقى، وأقضي أوقاتي في سماعها، إن كانت هذه الخصوصيات التي تعنيها.

- **هل أنت الآن وحيد؟ أليس لديك أولاد غير دواوينك؟**

- نعم.. لدي.

- **من هم؟**

- تزوجت متأخراً عام ١٩٦٤م، ولم أرزق بأولاد. ابني "هيثم" الذي يعمل مهندساً في باريس، وابنتي التي تزوجت في بيروت، وصرت جداً منها هما ابناي. لكن الطلاق حدث بيني وبين زوجتي الأولى أيضاً، وكنت تزوجت من أم أولادي وكان عمري أربعاً وثلاثين سنة، غير أن زواجي الثاني لم يعطني أولاداً، كما قلت وقد طلقت.

فارس المنتديات

يعتبر كمال فوزي الشرابي الآن سيد المنتديات، فهو يقيم الندوات يقرأ فيها شعره، ويقدم ما يترجمه عن الأدباء والفنانين، وينشر كل ذلك في الصحف والمجلات، وقد جرت معي قصة عن الشاعر، جديرة بأن تروى.

ما لم يقله..

بعد أن لقيته في "الروضة" بعدة أيام، تسنى لي أن أزور بيروت. وبالصدفة، عرفت أن "غسان زكريا" صاحب مجلة "سوراقيا" والمقيم في لندن، حيث يصدرها، موجود في بيروت. زرته في بيته باعتباره واحداً من أصدقائي. وفي مكتبه حمل إليه الفاكس الرسالة التالية:

(أخي ورفيقي الحبيب غسان

تحيا سورية. تهنئتي القلبية لعودة "سوراقيا الغالية". فقد اشتقنا، أنا ورفاقي هنا، إليك وإليها..

لي قصيدتان طيه أرجو نشرهما معاً، وعلى سبيل التفكهة والتسلية، أرفق بكتابي قصيدة عن "حبوب الدنيا" للمرحوم الدكتور وجيه البارودي.

أرسل إليك نسخة من قصيدتيّ المشوهتين المنشورتين في عدد "سوراقيا" ١٠٤٣ تاريخ ٢٢ آب ٢٠٠٥ لإجراء اللازم.

لك أن تبارك لي بحصولي على الدكتوراه مؤخراً في الآدب والترجمة.

أرفع يدي باليمين، ولك محبتي وإعجابي على الدوام "

المخلص

د. كمال فوزي الشرابي..)

استأذنت الصديق غسان بنسخة من هذه الرسالة، لأنني وجدتها ضرورية لحواري مع الشاعر الكبير. لماذا؟ لأنها تلقي أضواء على حياته، لست أدري لماذا لم يقلها، أو لأنني أنا شخصياً قصرت في سؤاله عنها، وهي أولاً: كونه حزبياً فهو سوري قومي اجتماعي، وقد أكد ذلك لي الصديق غسان، كما تؤكده عبارة "تحيا سورية" التي استهل بها الرسالة، وثانياً أنه يستخدم صلاته الشخصية في نشر إنتاجه، وليس في هذا مذمة، فالشاعر والقاص والأديب يحتاجون إلى وسائل نشر ينشرون فيها. والأمر الثالث برمه وضيقه من الأخطاء التي ترتكب بحق قصائده، وهذه تحسب له، فهو يريد أن يتعرف القرّاء على قصائده خلواً من الأخطاء، والأمر الرابع أنه يرسل قصيدة لشاعر آخر "على سبيل التفكهة والتسلية ". والخامس، وهذا هو الأهم، هو أنه أصبح دكتوراً في الآدب والترجمة، وهو ما لم يقله لي، وعرفته عن طريق الصدفة !

شعر عمودي

والقصيدتان اللتان أرسلهما إلى غسان جميلتان، وهما من الشعر العمودي الذي يلتزم به شاعرنا، ولهما وزن وقافية وموسيقى، في وقت غزانا فيه الشعر الطلق المرسل غير المفهوم وغير الموزون، وصار تقريباً الشعر الوحيد الموجود في الساحة الأدبية للأسف.

والقصيدة الثانية مرسلة "إلى صديقي نزار قباني" بمناسبة ثماني سنوات مضت على رحيله (ولد نزار قباني في ٢١ آذار ١٩٢٣ فهو من لداته لكنه توفي في ٣٠ نيسان ١٩٩٨م)، وفيها يقول: وقد أذن لي غسان بنشرها:

لو عدت حياً ما تراك تقولُ
وعراقنا في داره مقتول
والغرب في لبنان يسرح سيداً
أتباعه سرب الذئاب يجول
متعصبون، يحللون بحقدهم
ما حرم القرآن والإنجيل

❖ ❖ ❖

لا خير في غرب تصهين كله
ما فيه إلا تابع وذليل
ما " سايكس بيكو " سوى فخ لنا،
لهلاكنا نصبته إسرائيل

❖ ❖ ❖

أنزار! لا تصرخ فقد مات الألى
كانوا البواسل والزمان ميل
أين الأباة؟ سدى تجود بآهة
إن الأباة بشرقنا لقليل

❖ ❖ ❖

أترى العروبة تنحني في ذلها
أترى يضيء ليلنا قنديل؟
إن لم توحدنا السيوف فإننا
صوت يضيع في الزمان ذليل..

دكتور في التاسعة والسبعين..

هذا هو الدكتور الشاعر كمال فوزي الشرابي، ناذراً نفسه للشعر وللأدب والترجمة، ولعلي أول من يقرن اسمه بلقب دكتور، وهو الذي نال هذه الشهادة العلمية في وقت متأخر، فقد بلغ التاسعة والسبعين من عمره، مدَّ الله له فيه، ومتعنا بقصائده وأدبياته وبدواوينه الخمسة وإنا لمنتظرون.

لقطات من حياة الشاعر د. شرابي

- أراني بعض صوره التي يبدو فيها في قمة الوسامة كما هي حاله في سن التاسعة والسبعين.
- كمال فوزي الشرابي.. ملتزم بمواعيده بالدقيقة، بل بالثانية.
- عندما بدأت أوجه إليه الأسئلة، راح يملي عليّ الأجوبة، كأنه أستاذ وأنا تلميذ، فلما أبديت له أن لي أسلوبي في هذه الحوارات امتثل.
- معه قائمة بأسماء زملائه وأصدقائه الأدباء، يدعوهم بنفسه على أرقام هواتفهم لحضور أمسياته.
- له كتاب شعري اشترك فيه مع عدد من الشعراء.
- غالباً ما يمضي بضعة شهور في السنة في بيروت بضيافة ابنته المتزوجة هناك.

سهيل عرفة

عصامي.. موسيقياً

في محل صغير لتصليح الراديويات بدمشق، كان سهيل عرفة[1] يهيئ نفسه ليصبح موسيقياً لامعاً. كان عوده معه، في المحل والبيت، وأينما ذهب وحل، ومن محله في السنجقدار بدمشق: انتقل إلى مهنة التلحين. فصار أمام تحديات جديدة. لا شك أنه اجتازها وتجاوزها باقتدار، ليصبح اسماً مرموقاً في عالم التلحين، لا في سورية فحسب، بل في الأقطار العربية الأخرى.. رحلة موسيقية كبرى.. حطت به في مطلع الألفية الثالثة على رصيد من الألحان يشكل كماً كبيراً.. بالنسبة لموسيقي دمشقي من سورية عصامي: اسمه سهيل عرفة ابن حي الشاغور الدمشقي.

في مقهى الروضة بدمشق كان هذا الحوار الذي لا تنقصه الصراحة. (٢٠ تشرين الثاني ٢٠٠٦م).

النشأة والمسيرة

- **حدثني أول الأمر عن نشأتك الحياتية، منذ الطفولة وحتى اليوم؟**
- ولدت عام ١٩٣٥م في حي "الشاغور" بدمشق، من أسرة متوسطة الحال.
- **كل الناس كانوا متوسطي الحال.**
- الآن صار هناك غني وفقير. كانت أسرتي مدنية ومحافظة جداً، وكان الراديو حديثاً في دمشق، وكنا من أول من جلبوا جهاز راديو إلى بيوتهم، وكان ممنوعاً فتحه إلا على نشرة الأخبار والقرآن الكريم والأناشيد الدينية. وكنا نحتفل

(١) صدر مرسوم جمهوري بمنحه وسام الاستحقاق أواخر عام ٢٠٠٧ م.

بالطقوس الدينية، كالمولد النبوي الشريف، وليلة القدر، وتحديداً ليلة الجمعة عندما كان والدي يصطحبني إلى جامع أمية الكبير حيث الابتهالات الدينية. وكانت هذه الابتهالات تشدني وأنا صغير. وربما اكتشفت نفسي فنياً وموسيقياً منذ تلك الفترة. وعملت حتى أجمع ثمن راديو خاص بي وكانت أسرتي تحبذ أن أعمل "في كار" لضمان مستقبلي بالإضافة إلى الدراسة.

من ساعدوني..

- **كيف اهتديت إلى مهنة تقربك من عالم الموسيقى؟**
- جربت العمل في مهن كثيرة، وأخيراً ثبت في مهنة صيانة وتصليح أجهزة الراديو حيث هذه المهنة تقربني من ميلي إلى الموسيقى، وقد فتحت محلاً خاصاً لهذه المهنة ومن حسن حظي أنني فتحته مقابل مجلة "الدنيا" في شارع السنجقدار.
- صاحبها المرحوم عبد الغني العطري.
- كان له الفضل في تعرفي على الأدباء والصحفيين والفنانين في بداية الخمسينيات! حيث كان لهم الفضل في توجيهي، وتقديمي للإذاعة.

عصامي موسيقياً..

- **إذاً أنت عصامي موسيقياً؟**
- لم يكن في ذلك الوقت أي معهد للموسيقى.
- **من هو أستاذك الأول في الموسيقى؟**
- سامي المرادني رحمه الله، ثم الأستاذ ميشيل عوض، أستاذي في الموسيقى الشرقية، ثم الأستاذ مطيع الحصري في مبادئ الموسيقى الغربية.. ولا أنسى الأساتذة الكبار مثل محي السعود، وعدنان قريش وأمير البزق المرحوم محمد عبد الكريم.
- **إذاً.. أنت وجدت نفسك موسيقياً في سن الشباب، فما هو الحدث الذي أوصلك إلى الإذاعة؟**

- ذهبت لتصليح آلة تسجيل عند الأستاذ عبد العزيز خياط، والد أمين خياط - كانت آلات التسجيل حديثة - فتعرفت في بيته على عدد من الفنانين الكبار، كنجيب السراج ورفيق شكري وعدنان قريش ومحمد عبد الكريم، وفتحت لي هذه الزيارة آفاقاً لم أكن أحلم بها. إذ سمع الفنانون صوتي - كنت أقلد فريد الأطرش - فشجعوني، وقدموني إلى برامج الإذاعة. وكان أول لحن لي الذي سجلته أيام حدوث الوحدة بين سورية ومصر.. بصوت المرحوم فهد بلان.

- **ما هو عنوان الأغنية؟**

- عنوانها "يا بطل الأحرار" التي كتبها راشد الشيخ.

- **بعد ذلك؟**

- أخذ بيدي الشاعر الكبير عمر حلبي حيث استمر تعاوني معه حتى الآن. وكانت ثمرة هذا اللقاء مجموعة من الأغاني للأفلام السينمائية، منها أغنية "يا طيرة طيري" للفنانة المصرية شادية و"بالأمس كانت" لفهد بلان و"فوق النخل" للشحرورة صباح و"يا مال الشام" لصباح فخري.

مؤلفو الأغاني..

- **هل تعاونت مع شعراء أغنية غير عمر حلبي؟**

- تعاونت مع الجيل الثاني، بعده..

- **مثل من؟**

- مثل فوزي المغربي وعيسى أيوب وأحمد قنوع وحسين حمزة.

- **بمناسبة ذكرك لعيسى أيوب. ما هو دورك كموسيقي في منظمة الطلائع؟**

- كنت في هذه المنظمة عضواً في لجنة تحكيم مهرجانات الطلائع وما أزال.

- **ألم تسهم في نشاطاتها؟**

- افتتاحيات المهرجانات السنوية لمنظمة الطلائع.. كانت من ألحاني، وكلمات عيسى أيوب. وكان للمنظمة فضل، بحيث تعلمنا أنا وعيسى أيوب كيف نخاطب الطفل في الأغنية الخاصة به، وقد نلنا جوائز عديدة في أكثر المهرجانات العربية والعالمية.

- **مثل أي جوائز؟**
- جائزة ذهبية في مهرجان النقود الذهبية الذي يقام سنوياً في إيطاليا، عن أغنية "غنوا معنا يا أطفال العالم" أداء هالة الصباغ التي كانت طفلة وكان ذلك عام ١٩٩٩م، وكانت الدورة رقم ٤١ لهذا المهرجان.
- **ما هي الجوائز الأخرى التي أحرزتها؟**
- في مهرجانات الإذاعة والتلفزيون في مصر عن أغنية "اصغوا لنا يا أيها الكبار" الأداء شهد برمدا.

الأعمال الدرامية..

- **أنت لحنت عدداً من الأعمال الموسيقية لمسلسلات تلفزيونية منها مسلسل لي بعنوان "هذا الرجل في خطر" فما هي هذه المسلسلات؟**
- مسلسل "هذا الرجل في خطر" ومسلسل "أبو كامل" في جزئيه، ومسلسل "دولاب" في جزئيه، ومسلسل "أيام شامية". ومسلسل "وضاح اليمن" وأعتقد أنه لك.
- **نعم هو و"هذا الرجل في خطر" و"الزاحفون".**
- وغيرها من المسلسلات.. أنت كتبت كثيراً للتلفزيون.
- **ما هو أخر عمل كموسيقى تصويرية للمسلسلات التي أعددتها؟**
- مسلسل "حكايا الليل والنهار" للكاتب الراحل محمد الماغوط، وكان ذلك عام ٢٠٠٦، وهو من إخراج علاء الدين كوكش.

المخرجون..

- **من هم المخرجون الذين تعاملت معهم؟**
- علاء كوكش، غسان جبري، بسام الملا، مأمون البني، طلحة حمدي، وغيرهم..
- **على نطاق المسلسلات عرفنا. ما هي أعمالك للسينما؟**

- أعمال كثيرة، منها للقطاع الخاص، ومنها للقطاع العام. في القطاع الخاص الذي كان مزدهراً في أول السبعينات حيث كان الإنتاج مشتركاً بين سورية ومصر ولبنان، وقد لحنت لهذا القطاع كثيراً من الألحان، وخاصة للنجوم العرب، منها أغنية "عالبساطة" لصباح، وأغنيات لسميرة توفيق وشادية وطروب وفهد بلان ونيلي وشريفة فاضل ولبلبة وغيرهم..

كتابة موسيقية

- كتبت موسيقى أفلام كثيرة ومنها الروائية ومنها التسجيلية، وما هي هذه الأفلام.

- فيلم "الفهد" إخراج نبيل المالح، وفيلم "المغامرة" عن نص للراحل سعد الله ونوس. وإخراج المرحوم محمد شاهين. وفيلم "القتل عن طريق التسلسل" وفيلم "السيد التقدمي" وفيلم "المصيدة" للمخرج وديع يوسف. ومن الأفلام التسجيلية فيلم "شهادة الأطفال الفلسطيني" وفيلم " نحن بخير" وهي أفلام نالت جوائز في موسكو وبرلين.

- لمن هذه الأفلام؟

- الفيلم الأول إخراج قيس الزبيدي والثاني لفيصل الياسري، وكلاهما عراقي مقيم في سورية.

- الأفلام الروائية، ألم تنل جوائز أيضاً؟

- نعم جوائز عديدة.

- أعددت ألحاناً كثيرة للوطن، فهلا عددتها لي؟

- أبرزها "من قاسيون أطل يا وطني" للشاعر اليمني عباس الديلمي، و"يا بلادي خذي شاربي" لعيسى أيوب و"بلدي الشام وأهلي الشام" للشاعر حسين حمزة.. وغيرها كثير.

- أنت الآن وجه أسرة فنية، فهل تحدثني عن ذلك!

- ثلاث بنات وشاب هو عادل أخر العنقود. فدوى الكبيرة سيدة منزل وسمر التي هي فنانة وزوجها الفنان المطرب عبد الرزاق محمد، وأمل وزوجها الفنان عبد المنعم عمايري.

- **لا شك أن أمل قد تجاوزت المحلية، وأنا اعتبرها فنانة شاملة، فما رأيك؟**

- لكل مجتهد نصيب، وأمل قدرت على تنمية مواهبها الفنية بالمتابعة والعلم والاجتهاد؟

الحركة الموسيقية في سورية..

- **ما هو رأيك بالحركة الموسيقية في سورية؟**

- قياساً على الحركة الدرامية أقول بكل صدق إن الحركة الموسيقية متواضعة جداً، وأمل أن لا ننظر إلى النشاط الذي تقوم به دار الأوبرا، فإنه نشاط لا يمثلنا التمثيل الصحيح، ولا يمثل بيئتنا وتاريخنا الموسيقي، وإن كنت شخصياً أعتز بهذا النشاط الذي تقوم به الأوبرا..

- **ألا يعني لك أن فرقة سيمفونية قد وجدت طريقها للذيوع والانتشار في سورية؟**

- لا شك أن هذا مما نفخر به، أسوة بالبلاد العربية، ولكن نحن نحتاج إلى موسيقى معبرة عنا وعن تقاليدنا، ومستمدة من تراثنا الأصيل.

التكريم..

- **أعرف أنك كرمت في مهرجان الرواد العرب في الجامعة العربية عام ١٩٩٩م؟**

- نعم، وقد منحت لقب موسيقار.

- **وفي المجمع العربي للموسيقى في دورته السادسة عشرة في دمشق عام ٢٠٠٠م؟**

- نعم.

- **ومهرجان كبار النجوم في لبنان عام ٢٠٠١م؟**
- نعم.
- **وفي مهرجان السينما العالمي في دمشق؟**
- نعم ٢٠٠١م.

مناصبه..

توظف سهيل عرفة في وزارة الإعلام - الإذاعة والتلفزيون كرئيس فرقة موسيقية بمرسوم من السيد الرئيس برتبة فنان ممتاز عام ١٩٧٤م، وهو عضو في جمعية باريس لحقوق المؤلفين والملحنين، وعضو في لجنة تصنيف المستويات للفنانين في هيئة الإذاعة والتلفزيون ونقابة الفنانين، وهو مصنف في إذاعة دمشق والإذاعات العربية برتبة فنان ممتاز كمؤلف موسيقي وملحن.

- **أعرف أنك كلفت بإدارة مهرجان الأغنية السورية في دورته التاسعة عام ٢٠٠٣م.**
- نعم.

أعمال بالآلاف..

عدد أغاني سهيل عرفة لغاية ٢٠٠١ م الموزعة في أكثر الإذاعات العربية والأجنبية ١٢٥٠ أغنية، وعدد المسلسلات التي كتب موسيقاها التصويرية ٦٦مسلسلاً، وعدد الأفلام ٤٠ فيلماً، وعدد المسرحيات ٢٠ مسرحية، وعدد الاسطوانات "صوفيات من دمشق القديمة - جزء أول وجزء ثانٍ، وأنغام من الريف السوري. وأهم المسرحيات التي شارك فيها، سهرة أبي خليل القباني، "السعد" "أنت اللي قتلت الوحش"، "المهرج" "أيام سلمون" "ليلة ما بتتعوض".

❖ ❖ ❖

- هذا الفنان العصامي الدمشقي يستحق أن نرفع القبعة له، لأنه بالهواية والموهبة والدأب والحركة، نشأت لديه ملكة موسيقية، استغلها، فإذا به يرتفع؟ إلى الصف الأول من الموسيقيين لا في سورية فحسب بل في العالم العربي..!

د. قتيبة الشهابي

هاوٍ بزّ المحترفين !

عندي اهتمام بالمأثورات الشعبية. منها نداءات الباعة على سبيل المثال، وقد جمعت منها، غير أنني وجدت من يهتم بها ومن خصها بكتاب، فاتجهت إليه، ورحت أقرأ ما يكتب، وقد أبهجني أنه يستعين بالصورة على الكتابة أو العكس، فهو فنان بكل معنى الكلمة، وقد سار على منهجه هذا حتى صار عنده أكثر من ٢٠كتاباً، والبقية قادمة.

إنه الدكتور قتيبة الشهابي، الدمشقي القح، الهاوي الذي بزّ المحترفين، فهاتفته وأرسلت إليه أسئلة أجاب عنها في أقل من يوم واحد، وأرسلها إليّ، قبل أن يذهب إلى المستشفى.

كيف هذا الاهتمام؟

- **لاحظنا اهتمامك بالتراث . فكيف وجد هذا الاهتمام . ومتى؟**

- أمّا كيف وجد هذا الاهتمام بالتراث ومتى؟ فالجواب عسير بعض الشيء، لأنه يرتبط بفطرة الإنسان وبيئته وتكوين طفولته، ولا أعرف على وجه التحديد متى بدأت، لكنها ارتبطت مع التصوير الفوتوغرافي. وأذكر جيداً أنها بالنسبة لي جاءت بعد فوزي بيانصيب جائزته آلة للتصوير من نوع (كوداك بوكس) - وكنت في العاشرة من عمري - وهكذا بدأت عندي هذه الهواية. فرحت ألتقط صوراً لكل شيء.

أما بدايات اهتمامي بالتراث فأذكر بشكل ضبابي أنه بدأ بعد مشاهدتي لأول بطاقة بريدية (كرت بوستال) لدمشق في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي، حينها برقت في مخيلتي العلاقة بين الصورة والكاميرا والتراث الإنساني، فبدأت أبحث عن هذه الصور، في دمشق، وفي سورية، ومن خلال أسفاري الكثيرة إلى خارج القطر بين الشرق والغرب. حتى تجمّع لدي عدد كبير جداً من تلك الصور الوثائقية صنفتها ضمن ألبومات للحفاظ عليها. وقد اكتشفت من خلالها كم كانت دمشق وغيرها من المدن السورية عمرانياً وتراثياً في غاية الجمال. وانعكس هذا الاهتمام التراثي بأن أصبحت أرسم لوحات زيتية عن دمشق القديمة، وكان أن أقمت عام ١٩٨٥ أول معرض لي ضمّ أعمالي الفوتوغرافية والزيتية لدمشق القديمة، وكان برعاية السيدة الفاضلة الدكتورة نجاح العطّار وزيرة الثقافة آنذاك. وهنا أود التوقف عند هذا المعرض حيث قلت يوم افتتاحه للسيدة الوزيرة بأنني أملك عدداً كبيراً من الصور الوثائقية لدمشق، فكان جوابها: ضعها في كتاب يتحدث عن حقبتها وستنشره الوزارة. وهكذا ظهر للوجود أول كتاب لي بعنوان (دمشق تاريخ وصور) تلاه ١٥كتاباً آخراً حول معالم دمشق.

متسع من الوقت

أنت كطبيب أسنان ناجح، هل وجدت متسعاً من الوقت للقيام بمهام هوايتك؟

- الوقت تكيّفه حسب ما تراه مناسباً، كنت في الصبح أشارك في التدريس بكلية طب الأسنان - جامعة دمشق -، وبعض الظهر في عيادتي، عدا يومي الخميس والجمعة فهما لمؤلفاتي.

الاهتمامات الحقة

- **ما هي اهتماماتك على وجه التحديد؟**

- الكتاب، الكاميرا، الصورة، اللوحة الزيتية.

جزءان مكملان

- **هل الكتابة استعانت بالصورة في نتاجك أم العكس وأيهما أهم بالنسبة إليك، الصورة أم الكتابة؟**

- الصورة والكتابة بالنسبة لي جزءان يكملان بعضهما البعض. وأنا أستعين في كتاباتي بالصورة إن وجدت، فالصورة هي الصدق، لا يمكنها أن تغالط الواقع أو الحقيقة. أمّا الكتابة فمعرّضة للمغالطات حسب الظروف التي يعيشها الكاتب وكذلك وجهة نظره، أو الظروف التي تلزمه في بعض الأحيان على اتخاذ موقف معيّن يخالف وجهة نظره.

وهناك سبب آخر لاهتمامي بالصورة، فالله يسامح مؤرخينا القدامى، من ابن عساكر إلى ابن طولون مروراً بابن عبد الهادي وابن شدّاد وغيرهم، لم يكلّف أحد منهم نفسه بوضع ولو مخطط أو رسم أو خارطة أو حتى (كروكي) للمواضع التي وصفوها في دمشق وأرباضها وفي كثير من الأحيان كان وصفهم مبهماً خصوصاً حين يقولون: المسجد الفلاني فوق حارة كذا، والسقاية الفلانية بحي المصلبة، وهكذا دواليك. إذن لوفروا علينا كثيراً من الجهد والبحث.

كتب الشهابي

- ما هي الكتب التي أصدرتها؟ هل تعطينا نبذة عن كل منها. موجزة؟
- أعتقد أن عناوين كل كتاب ينضح بما فيه، وهذه الكتب هي:

المؤلفات العلمية المنشورة

١- معجم مصطلحات طب الأسنان (إنكليزي- عربي)، منشورات مكتبة لبنان ١٩٨٧.

٢- المعجم الطبي للجيب (إنكليزي عربي)، الطبعة١ مؤسسة الوحدة بدمشق١٩٦٤، الطبعة٢-٣ منشورات مكتبة لبنان ١٩٨٣و ١٩٨٧.

٣- أربعة كتب جامعية تُدرّس في كلية طب الأسنان بجامعة دمشق، ثلاثة منها في علم (مداواة الأسنان)، والرابع في المصطلحات الطبية الإنكليزية، منشورات جامعة دمشق.

المؤلفات التاريخية والأثرية والتراثية المنشورة

١- دمشق تاريخ وصور، الطبعة الأولى منشورات وزارة الثقافة،١٩٨٦ الطبعة٢ منشورات مؤسسة النوري بدمشق١٩٩٠.

٢- هنا بدأت الحضارة (سورية تاريخ وصور)، منشورات دار الأبجدية بدمشق ١٩٨٨.

٣- أسواق دمشق القديمة ومشيّداتها التاريخية، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٠.

٤- مآذن دمشق (تاريخ وطراز)، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٣.

٥- معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٥.

٦- مشيّدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٦.

٧- معالم دمشق التاريخية (بالمشاركة مع الباحث أحمد إيبش)، وزارة الثقافة ١٩٩٦.

٨- أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٦.

٩- زخارف العمارة الإسلامية في دمشق، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٧.

١٠- النقوش الكتابية في أوابد دمشق، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٧.

١١- دمشق الشام في نصوص الرحّالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين (من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة)، بالمشاركة مع الباحث أحمد إيبش، وزارة الثقافة ١٩٩٨.

١٢- طريف النداء في دمشق الفيحاء (جزءان)، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٩.

١٣- صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٩.

١٤- معجم دمشق التاريخي (ثلاثة أجزاء)، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٩.

١٥- الطيران ورواده في التاريخ الإسلامي، منشورات وزارة الثقافة١٩٩٩.

١٦- نقود الشام، منشورات وزارة الثقافة ٢٠٠١.

١٧- عباقرة وأباطرة من بلاد الشام (في العصور اليونانية والبيزنطية والرومانية)، منشورات دار المساعدة السورية، ٢٠٠٤.

١٨- أديرة وكنائس دمشق وريفها (بالمشاركة مع الأب الدكتور متري هاجي أثناسيو)، دمشق ٢٠٠٥.

١٩- أضرحة آل البيت والمقامات الشريفة في سورية (بالعربية والفارسية)، منشورات وزارة السياحة ٢٠٠٥.

٢٠- معجم المواقع الأثرية في سورية، منشورات وزارة الثقافة٢٠٠٦.

٢١- تأريخ ما أهمله التاريخ(دار قتيبة) ٢٠٠٦.

مخطوطات جاهز للطباعة

١- ساحة المرجة بين الأمس واليوم.

٢- التصوير عن قُرْب (Close-VP Photography)

٣- معجم التصوير الفوتوغرافي، إنكليزي- عربي.

٤- الأعلام والشعارات والرنوك في الوطن العربي (تاريخها وتطوّرها ومدلولاتها ومعاني ألوانها).

مخطوطات قيد الإنجاز (٢مؤلفان)

١- تراجم الأعلام في أحياء دمشق الشام.

٢- معجم الأسماء التاريخية للمدن والقرى والمواقع (في الوطن العربي والإسلامي).

إحياء التراث

- **دعوتك إلى إحياء التراث . وبحثك عنه الملحوظ في كتبك . ينبآن عن أصالة فيك . تريد أن تعممها. فهل هذا قصدك من الكتابة والتصوير؟**

- أستاذ عادل، اسمح لي مشكوراً أن أوضح نقطة في منتهى الأهمية: التراث مقياس حضارة الأمم، وأصالة تاريخها، وعنوان رقيّها. فأمة بلا تراث تصبح أمّة (كاوبوي) بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فلا شرف ولا رادع ولا ضمير ولا أخلاق. ولدينا من هذه القيم الشيء الكثير مما نفاخر به ونعتزّ.

- **أنت من أسرة عريقة في نسبها فهل كان لهذا النسب الكبير صلة أو دافع لانكبابك على موضوعاتك؟**

- ليس الفتى من يقول كان أبي. فما فكرّت يوماً بنسبي. لأنني واحد من مواطني هذا البلد. لي ما لهم وعليّ ما عليهم.

جديده...

- **ما هو الجديد في إنتاجك؟ أم أنك أوصلت الرسالة كاملة؟**

- طالما أن رئتايّ تتنفسان، فلن أكفّ عن العطاء حتى وأنا اليوم على فراش المرض والمعالجة، وأعمل حالياً بكل مخزوني وطاقتي في هيئة تحرير مجلة "دليل السائح" التي تصدرها "دار المساعدة السورية" وهي مجلة تعنى بالترويج السياحي لسورية.

غير أن ما يؤلمني هو نفس ما آلم الكاتب الأمريكيّ (مارك توين) فقال وهو على فراش الموت: "ما أكثر ما كنت أريد أن أصنع وما أقلّ ما صنعت".

- **لماذا تركت مهنة الطب؟ ألتتفرغ لهوايتك؟ أم أن هناك أسباباً أخرى؟**

- لم أترك مهنة الطب لأتفرغ لهوايتي، فقط أجيب كما أجاب عن هذا السؤال الفنان المعروف (روبنس) وكان سفيراً لبلاده: هل يلهو سيدي السفير بالرسم؟ فأجاب: لا ولكنني ألهو بالسفارة.

السيرة الذاتية...

- **هل يمكن أن تلخص لنا سيرتك الحياتية منذ الصغر حتى الآن؟**

- السيرة الذاتية لحياتي هي:

- من مواليد دمشق ١٩٣٤.

- المؤهل العلمي: دكتور في جراحة الأسنان - جامعة دمشق.

- دراسات عليا في طب الأسنان في لندن بإنكلترة.

- شهادة اختصاص في مداواة الأسنان.

- عضو الهيئة التعليمية في كلية طب الأسنان بجامعة دمشق، قسم مداواة الأسنان، خلال السنوات ١٩٦٣-١٩٩٤م (حالياً متقاعد).

- أستاذ سابق للتشريح الفني في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق في مطلع الستينات.

- عضو نقابة الفنون الجميلة بدمشق.

- عضو اتحاد الفنانين التشكيليين العرب.

- تخصص في لندن بالتصوير الضوئي (الفوتوغرافي) العلمي والمجهري والفني إضافة إلى مداواة الأسنان المحافظة.

- أقام عدّة معارض تشكيلية وضوئية علمية وفنية، داخل القطر وخارجه.

- باحث في التراث التاريخي والأثري لمدينة دمشق وسورية والتاريخ العربي الإسلامي.
- "١٧" كتاب من مؤلفاته موجودة في مكتبة "الكونغرس" في أمريكا.
- عضو لجنة (تسميات الشوارع في مدينة دمشق) بمحافظة دمشق بالمشاركة مع الأستاذ هاني المبارك. وضع فكرة ونصوص اللوحات الشارحة لكل اسم وتم تنفيذها في شوارع دمشق أواخر عام ١٩٩٩.
- شغل منصب (مستشار وزير السياحة) منذ ١/٨/٢٠٠٠-٢٠٠٣.
- خبير ثقافي في وزارة السياحة ٢٠٠٥.
- عضو هيئة تحرير مجلة (دليل السائح) الصادرة عن دار المساعدة السورية بدمشق.

❖ ❖ ❖

قدمت له الأسئلة يوم ٩ تشرين ثاني، أرسلتها مع جاره في دمر الفنان جورج عشي، فسهر في صباح اليوم التالي من الساعة الرابعة حتى الثامنة، وكتب الأجوبة، وطبعها بالكمبيوتر، وأخرج "سي. دي" لها وأرسلها من جديد مع جاره جورج، فعددت ذلك إنجازاً دالاً على همته التي حملته إلى جميع هذه المؤلفات. وبعد أن اطمأن إلى أنها وصلت.. ذهب إلى المستشفى ليأخذ جرعته من الدواء.. شفاء الله.

أليس هذا دليلاً على قوة الإرادة؟

❖ ❖ ❖

دمشقي.. أرفع له قبعتي احتراماً لأفعاله الثقافية الكبرى، والفنية، ولقوة إرادته الكبيرة.

حسام تحسين بك

دمشقي حتى العظم !

لو أنك سألته عن سور دمشق القديم، وكم حجر بقي فيه، لأحصاها لك، حجراً حجراً، لأنه يحب دمشق حتى العظم. دخلت دمشق الشام في دمه، كأنه عطر ياسمينها، ومنذ صغره، نذر نفسه لتراثها، ولم يبخل على حبه هذا بموهبته، فألف لها ولحن، وعندما مثل، اختار دور حارس دمشقي في مجتمع حارة من الحارات الدمشقية. إنه الفنان الكبير حسام تحسين بك، ابن دمشق، ومن عائلة عريقة فيها، وها هو يحتفل مع سكانها الملايين باختفالية (دمشق عاصمة ثقافية عربية).

بهذه المناسبة اخترنا أن نحاور ابن دمشق البار..

منذ فجر التاريخ

سألناه عن مولده ونشأته ودراسته، فأجاب:

- ولدت، أنا الدمشقي، منذ فجر التاريخ، وبدءاً من عام ١٩٤١ درجت في حي "سيدي عامود" (الحريقة) ودرست في مدارس تلك المنطقة، لكنني، في الحق، كنت أهيم بدمشق حباً، وكنت أجول في أزقتها، أدرس عمارتها وبيوتها المتعانقة، وسحنات الناس فيها، تلك هي دراستي التي حددت مصيري ومستقبلي، ولولا هذه الدراسة لما استطعت أن أكتب وألحن وأمثل.

يا خالي.. وناتالي..

وتزاحمت في ذهني عشرات الألحان التي قدمها حسام تحسين بك، فتركت بصمات في عالم التلحين المحلي، ومنها "ناتالي" و "يا خالي" التي تغنيها أصالة نصري والتي كتب كلماتها بنفسه، وغيرها فسألته:

- **كيف ظهرت موهبة التلحين عندك؟**

فأجاب:

تراث دمشق الموسيقي..

- منذ كنت صغيراً كنت مولعاً بتبديل كلمات الأغاني التي كانت سائدة في وقتها. وأحيانا أبدل ألحان الأغاني التي اشتهرت في وقتها، وكنت اعتبر ذلك تسلية إلى أن أحسست برغبة في تعلم آلة العود، وكان عمري في ذلك الوقت حوالي ثلاثة عشر عاماً، ولكن أهلي لم يهتموا بطلبي وربطوا تعلم العود، في الملاهي الليلية كمستقبل، وكان المفهوم في ذلك الوقت هكذا. بعدها وجدت نفسي أكتب الأغاني وألحن كنوع من إرضاء الذات، والعب الرياضة، وكان الجمباز أهمها، وبالإضافة لذلك كنت صياداً مثابراً إلى أن انتسبت إلى فرقة أمية وبطريق الصدفة، وكان ذلك سنة ١٩٦٤ تحت إشراف مدرب من جورجيا وسرعان ما تفوقت بين المتفوقين في تلك الفرقة.

وتنفس كمن يعب شيئاً من هواء دمشق، وأضاف:

- وقتئذ، رحت أفتش عن تراث دمشق الموسيقي والغنائي، فاهتديت إلى هذا التراث.

- **مثل ماذا؟**

- "زقصة ستي" الفلكلورية مثلاً، وبعض الأغاني القديمة.

مع دريد لحام

- **هل أفادك عملك في فرقة زنوبيا في الكشف عن هذا التراث؟**
- أنا إلى الآن يشدني أي بناء قديم ويخلق عندي إحساساً غريباً فأرى وأتخيل أشخاصه، وأغرق في حياتهم اليومية وتتشكل عندي صور كثيرة، فما بالك لو رأيت بناءً قديماً أو أثاراً حولي وأنا ابن دمشق المولع بها وبناسها وحكاياها، تشدني وبقوة إلى حبها. وهذا ما كرس عندي حب قراها ومصايفها التي تعبئ ذاكرتي وأحاسيسي منذ كنت صغيرا فقد كان لي وقت لا بأس به بالإقامة في تلك المصايف والقرى فترى أفراحها ومباهجها. هذا ما ركز فيّ ولعي وحبي لها. فعكسته صوراً جميلة على المسارح سواء في فرقة أمية أو فرقة التلفزيون أو بفرقة زنوبيا. حتى في فرقتي الخاصة والتي رافقت مسيرة أعمال الأستاذ دريد لحام.

التمثيل.. التمثيل

لقد كان حسام تحسين بك عنصراً أساسياً في مسرحيات دريد ونهاد، وكان يغذي الجانب الموسيقي والاستعراضي فيها، إلى جانب التمثيل الذي دلف إليه في وقت متأخر. فسألته:

العفوية..

- **جئت إلى التمثيل بالإضافة إلى موهبة التلحين، فهل كان مجيئك بدافع موهبة أخرى . أم أن التلحين سبق موهبة التمثيل؟**
- كما قلت لك يا أستاذي المحترم أول ما ظهر كتابة الكلمات أولاً و التلحين ومن ثم وجدت نفسي ممثلاً بطريق الصدفة وأنا الآن أمارس كتابة المسلسلات، كل ذلك أجده سهلاً جداً، وتأتي في كياني وخيالي بشكل عفوي ودون جهد. عندي من الخواطر والأفكار الكثير. وأنا اترك حركتي وتفكيري تقاد بشكل عفوي ودون تخطيط، وأنا بصراحة لا اعرف كيف وصلت إلى

ما أنا فيه فلقد كان كله عفويا ودون تخطيط له فلقد كان بيد الصدفة والقدر. أحب كل ما هو قديم بجذوره وربما هذا ما ساعدني كما أني أميل كثيرا وأحب الديكور وخاصة الشرقي منه وأظن أني ابرع فيه لو مارسته كمهنة. والأهم أنني أحب دمشق، فهي معلمتي الحقيقية !

البيوت المتعانقة..

وسألته:

- **على ذكر دمشق، ما علاقتك الحقيقية بدمشق، تراثاً ومدينة وأحياءً قديمة وعمراناً .. الخ؟**
- أنا من مواليد دمشق كما ذكرت ومن أبناء أحيائها وبيوتها. أي كل نبضة في تحمل الشوق والحنان إلى أبواب بيوتها وزوايا حاراتها، ياسمينها، وردها، ليمونها، والكباد والنارنج تملأ بيوتها. أنا لا أزال أعيش ذكريات دفء وحنان البيوت المتعانقة التي تحمل كثيراً من الحكايات فرحاً وحزناً ونضالاً، تحمل حكايا سكانها الشرفاء والمتمسكين بقيم طاهرة نبيلة، أنا لا أزال أذكر سمان الحارة والخضرجي واللحام والخباز والعلاقة الطيبة بينهم وبين أهل الحي الذين هم على الأغلب منه، وحارس الحارة وكان اسمه أبو حسن في منطقة الحريقة. الحارة كلها تعيش حكايات بعضها البعض. لا أزال أجوب الحارات القديمة والذكريات تلفني مع كل باب وكل زاوية. أنا ابنها الذي يحن وليس له القدرة على إعادتها إلا من خلال الذاكرة.

أغنية مرتجلة

ولأن حسام تحسين بك كان عنصراً من عناصر مسلسل "باب الحارة"، الذي قدم في رمضان (مثل دور حارس الباب)، فقد عنّ لي أن أسأله، تحديداً، عن الأغنية التي ارتجلها في المسلسل، وخاطب فيها الباب الذي يحرسه، فأجاب:

حوار مع المخرج

- طلب مني المخرج أن أغني أثناء جلوسي بالليل وقال أي شيء مع القمر مع الليل.. أي شيء فقط غن قليلاً..

قلت له أنا حارس كبير في السن وليس لي لا حكايات عشق ولا غرام. أنا أنام في النهار وأصحو في الليل. وأجلس أمام هذا الباب فماذا أقول؟

قال: أي شيء..

قلت: سوف أغني لهذا الباب طالما هو الوحيد الذي يجالسني في الليل..

قال: كما تريد..

قلت مرتجلاً هذه الكلمات، بدندنة لحن بسيط..

مخاطباً الباب غناء:

نيالك يا باب أنت من خشب..

كل الناس بترافق ناس..

كل الناس الها صحاب..

مو عجيبة.. مو غريبة.. أنا رفيقي باب

بسهر أنا وياه.. منسهر على نوم الناس

بسهر أنا وياه.. بالليل حراس

لو صار شي على الناس.. عليي العتب

نيالك يا باب.. انت من خشب..

لاحظت أنه يرتجل كلمات هذه الأغنية ارتجالاً فسألته:

- **هل من عادتك أن ترتجل كلمات الأغاني وألحانها؟**

وأجاب:

- كثيراً ما فعلت.

- أعطني مثالاً.

- سأعطيك مثالين، في مسلسل "ليالي الصالحية" ارتجلت الكلمات واللحن وها أنذا في مسلسل "باب الحارة" إنه دور يلائمني، ويحرك موهبتي لهذا استجبت وارتجلت، والارتجال في الفن ذروة من ذراه !

والواقع أن الفنانين الذين يرتجلون باتوا قلة، ولم يبق منهم إلا حسام تحسين بك، بعد أن توفي رحمه الله سلامة الأغواني وعبد الله المدرس وغيرهما ممن كانوا يرتجلون، على طريقة الزجالين وفرقهم، الذين يتبارون في ارتجالات أمام الجمهور.

طرفة حدثت

وسألته أن يروي لي طرفة حدثت له في دمشق، بعد أن روى لي ذكريات مضحكة عن رحلته إلى الصين مع فرقة أمية، فهو خفيف الظل، وحديثه مملوء بالنكات، فقال:

- في أحد المطاعم التي يغني بها أحد المغنيين، حكا لي المغني أنه في أحد الأيام دخلت أنا إلى المطعم فحياني ورددت له التحية، وجلست إلى طاولة وكان يبادلني التحية وأبادله، ولما انتهى من وصلته قدم إلى الطاولة ولم يجدني، فسأل صاحب المطعم أين ذهب الأستاذ حسام، قال له هذا الرجل يشبهه وليس هو. فقال المغني وكيف رد التحية وجاملني طيلة الوصلة؟ قال له صاحب المطعم لأنه يشبهه كثيراً بحيث لا تفرقهم. قال لي المغني: والآن أسأل أنت الأستاذ حسام أم ذلك الرجل الآخر؟ فقلت له أنا حسام، قال: أكيد؟ قلت: نعم أكيد.. قال: عجيب ما عم صدق.

دمشق عاصمة ثقافية

قلت أخيره: **يحتفلون بدمشق عاصمة للثقافة العربية هذا العام، فماذا تقول بهذه المناسبة؟**

- ليس غريباً على دمشق أن تكون بصدارة التاريخ وصدارة الثقافة، فهي أقدم عاصمة في التاريخ، ولها من السمعة في العالم الكثير. ولطالما تطلع إليها

الشرق والغرب. ولطالما كانت من أهم نقاط العبور التجارية وملتقى الثقافة العامة. ولها من الحكايات على كل الأصعدة من حروب وفتوحات. مثلاً قبر صلاح الدين الأيوبي الشهير. فيجب أن تكون هذه المدينة نجمة براقة في عيون سكان الأرض في كل المعمورة لما لها من أهمية تاريخية خطتها أقدام المؤرخين. فالمؤرخين تسابقوا في وصفها مبهورين.

وأردف:

- إنني أعلم أن عام ٢٠٠٨ م هو عام دمشق عاصمة ثقافة.
- **هل ستفاجئنا بشيء بهذه المناسبة؟**
- قد أفعل، قد أرتجل لحناً أو كلمات. من يدري؟

المتليك

- **جاءت في إحدى أغانيك كلمة تراثية (متاليك) جمع متليك فهل تصر على تضمين أغنياتك مثل هذه الكلمات التراثية؟**
- المتليك كان جزءاً من عملة ضعيفة القوة الشرائية، وكان يستعمل قبل القرش، ومن ضعفه شاع في دمشق المثل القائل " فلان لا يساوي متليك " وبما أن مسلسل أيام شامية يرصد زمناً كان فيه المتليك متداولاً وكان له أغنية فقد استعملتها وأديتها في ذلك المسلسل، وبما أني أحب التراث والفلكلور فلقد سبق وضمنت بعض الأغاني التي كتبتها ولحنتها بعض الكلمات الفلكلورية مثل (لو لولو) والتي لاقت نجاحاً كبيراً.

شجرة عائلة..

على ذكر المتليك والعملة القديمة، قدرت أن حسام تحسين بك من أسرة دمشقية عريقة، وككل الأسر الدمشقية الأصيلة، خيل إلي أن هناك شجرة عائلة، كما يسمونها، تسلسل الأجداد والآباء والأبناء، فسألته:

- **هل لديك شجرة عائلة، إلى أي حد يمتد وجودك في دمشق؟**

- من سوء حظي أني لا أملك تلك الشجرة، ولكن على قبورنا أسماء للجدود فمثلاً عن الشواهد موجود اسمي باعتبار أننا نسمي على أسماء الآباء والجدود، ولكن ورد الاسم كالتالي: حسام الدين يكنكشهرلي. وهذه الكنية أتت من تركيا وكان جدي حاكم لبلد في تركيا اسمها (بنيشهر) وكان لقبه باشا. أرسلت الدولة العثمانية ابنه إلى دمشق وكان اسمه تحسين بك، أعطوه لقب البيك، وكان يشغل منصب (متصرف مالي تابعة له دمشق وحلب وأنطاكية ومرسين) فبقيت كنيتنا على اسمه.

فعدا الشواهد في المقبرة يأتي الاسم أكثر من مرة ككنية (يكنكشهرلي) ومرة (تحسين بك) وأنا دمشقي عتيق باعتبار جدي خلق هنا وأبي ومعشوقتي الشام وترابها وناسها.

وأردف:

وأنا أريد أن أنوه أن عمي الفنان الرسام سعيد تحسين بك والذي له لوحات مشهورة جداً وموزعة في بعض متاحف العالم مثل: ضرب البرلمان، صلاح الدين الأيوبي، اليرموك.. الخ.

واستدرك:

وبإذن الله سوف أقوم بكتابة مسلسل يرصد زمناً معيناً للشام وأهلها يتضمن عدة قصص وأحداث مثيرة لا يعرفها أحد سواي.

❖ ❖ ❖

كانت بداية احتفالنا بـ "دمشق عاصمة ثقافية عربية" هذا اللقاء مع الفنان الممتاز حسام تحسين بك، الذي لا يحسن، في الواقع، تسويق نفسه، فليكن حوارنا معه تسويقاً له في هذه الاحتفالية التي تفوح برائحة الياسمين

الدمشقي الذي قال عنه البدري في كتابه قبل ٨٠ سنة: " كنت إذا دخلت دمشق لم تشم فيها سوى رائحة الياسمين " !!

الفنان حسام تحسين بك

- دمشقي حتى العظم.
- فنان يمتاز بارتجال أغانيه وألحانه.
- ساهم مع دريد لحام في إنشاء فرقته المسرحية.
- ارتجل أغنية الباب في مسلسل " باب الحارة ".
- عمه الرسام الشهير سعيد تحسين بك.
- أخذ ملامح شخصياته وأغانيه من سحن وكلمات رجال الحارة الدمشقية التي ولد وعاش فيها.
- يعكف الآن على كتابة مسلسل عن الحارة الدمشقية.

منى واصف

أنا أمثل - يعني - أنا أحيا !

نشأت بيني وبين السيدة الممثلة الكبيرة منى واصف صداقة جميلة امتدت أكثر من نصف قرن، بدت فيها طموحاً مجتهدة، ومنذ أن رأيتها تسير في ردهة جريدة "الوحدة" عام ١٩٥٩، وعلى رأسها كتاب، تدريباً لها على القيام بمهمة عارضة أزياء، وحتى ربيع عام ٢٠٠٧ مرت بمراحل، وتطورت، وصارت أكثر الفنانات شهرة في العالم العربي، لكنها ظلت كما هي متواضعة محبة للناس، غيورة على كار الفن الذي قالت لي فيه: أنا أمثل، يعني، أنا أحيا.

أضواء على منى: في هذا الحوار الجديد.

النشأة..

سألتها عن:

- **المولد والنشأة والدراسة؟**

- ولدت في مدينة دمشق عام ١٩٤٢، لأم مسيحية من قرية حب نمرة وتقع في وادي النضارة، وأب تعود جذوره إلى أكراد الموصل من أبيه وأكراد دمشق من أمه فهو سلالة عائلة جلميران وشمدين آغا. ولدت وترعرعت في شارع العابد (حارة شرف) التي تطل على البرلمان (مجلس الشعب الآن) وبقيت فيه حتى سن السابعة، وعندما وقع الطلاق بين أمي وأبي انتقلنا إلى الشعلان الذي يطل بشكل من الأشكال على المدينة التي بغرب مجلس الشعب من الناحية الثانية، وبقيت في هذا الحي حتى تزوجت من الأستاذ المرحوم محمد شاهين عام ١٩٦٣. وبهذا أكون قد قضيت كل طفولتي

ومراهقتي وشبابي وأيضاً أهم ما مر بي في حياتي أي عملي في مسرح الحمراء ومسرح القباني ومديرية المسارح والموسيقى وكلها تقع في هذا المحيط بمعنى أنني تقريباً معظم الأيام والسنين كنت أمشي على الأرصفة التي كنت أحلم وأنا أسير عليها أنني سأكون يوماً ما شيئاً مهماً وربما هذا ساعدني أيضاً في خلق شخصيتي لأنني لم أنس يوماً من أنا. كل ما هو حولي يذكرني بطفولتي ومراهقتي وشبابي وكهولتي، بعد السابعة تربيت في كنف والدتي وعمي زوج أمي. درست الابتدائية في مدرسة الفيحاء والإعدادية في التجهيز الرابعة حتى وصلت إلى الكفاءة التي رسبت فيها مرتين بكفاءة وفي مادة الرياضيات بالتحديد للأسف الشديد.

الانعطافة الكبرى

- **ما هي الانعطافة الكبرى في حياتك الفنية؟**

- إذا قلت لك إن هذه الانعطافة كانت بفيلم الرسالة أكون قد ظلمت أجمل سنوات العمر. المسرح العسكري، ندوة الفكر والفن، مسرح الفنون الدرامية التابعة لوزارة الإعلام، المسرح القومي الذي أديت فيهم وتعلمت منه كل شيء بدءاً بالنطق السليم للغة العربية الفصحى وانتهاء باكتشافي كنوز الأدب العالمي والعربي واكتشافي أيضاً روعة النقاش والغوص في تفاصيل الشخصيات التي كنت ألعبها ورغم ذلك سأعترف بأن فيلم الرسالة الذي جاء بعد أربعة عشر عاماً من عملي في المسرح والتلفزيون والسينما والإذاعة الذي أكسبني شهرة كان جواز مروري وشهرتي في العالم العربي فقد أتاح لي أن أقدم أهم الأعمال التلفزيونية التي أنتجها تلفزيون الأردن ودبي بشكل خاص ومن ثم شركة الشرق اللبنانية ومن بعدها قطر وأبو ظبي واليمن.

كانت قد قدمت إلى بيتي، واستقبلتها زوجتي التي تلقت إملاءها للأجوبة عن الأسئلة التي وجهت لها قبل حوالي شهر.

وكان السؤال التالي، هو السؤال الثاني:

دور هند ـ في الرسالة

- ماذا كان شعورك عندما مثلت دور هند ـ في فيلم الرسالة من إخراج المرحوم مصطفى العقاد؟

- لا شك أن فيلم الرسالة كان معهداً آخر لي بعد المسرح تعلمت منه التعامل مع التقنيات المتطورة والوقوف لمدة سنة كاملة مع رموز الفن في العالم وكان معهداً لأتعلم منه التواضع ورأيت كيف يكون الكبار وكنت كلما رأيتهم ازدادوا عطاء وازدادوا تواضعاً، شعرت وأنا أمثل دور هند بأنني هي وعندما شاهدت ايرين باباس التي لعبت دور هند في النسخة الإنكليزية. وقد كنت معجبة بها جداً لمسيرتها الفنية والحياتية فقد كانت مناضلة ومعروفة بموقفها تجاه حكم العسكر في اليونان، عندما رأيتها لأول مرة أصابني الذعر (طبعاً لم يشعر بهذا أحد غيري) وقلت في نفسي إن لم أنجح سأتعلم ولم لا؟ وأيضاً لم أبح بهذا القول لأحد، فقد ارتسمت على وجهي ملامح القسوة وعزمت ومثلت ونجحت. الشيء الملفت أن العاملين في الفيلم كلهم تقريباً من حملة الأوسكارات ومن أول مشهد شعرت بأنهم احترموا أدائي وعندما قال هاري كريغ (كاتب سيناريو الفيلم) هذه هند فضحك العقاد وبكيت أنا.

أهم أدواري

- هل تعرفين عدد الأدوار السينمائية والتلفزيونية والمسرحية التي قمت بها؟ وما هي أهمها في السينما والمسرح والتلفزيون؟

- السينمائية ثلاثين فيلماً، المسرحية أيضاً ثلاثين، ولكن بالنسبة للأعمال التلفزيونية بصراحة فهي كثيرة ربما لا أستطيع حصرها. بالنسبة للسينما طبعاً الرسالة والأفلام الأربعة المأخوذة من أعمال الكاتب الكبير حنا مينة (اليازرلي) إخراج قيس الزبيدي، (بقايا صور) إخراج نبيل المالح، (الشمس في يوم غائم) إخراج محمد شاهين، (مائة وجه ليوم واحد) إخراج كريستيان غازي، (الاتجاه المعاكس) إخراج مروان حداد.

أهم الأعمال المسرحية: (تاجر البندقية) إخراج الدكتور رفيق الصبان وقد لعبت دور الدوقة يورشيا، (الخجول في القصر) إخراج الدكتور رفيق الصبان في دور الدوقة سيرافين، (موتى بلا قبور) إخراج علي عقلة عرسان دور لوسي، (دون جوان) إخراج أسعد فضة لعبت دور دونا الفيرا، (الزير سالم) إخراج الدكتور رفيق الصبان بدور الملكة الجليلة، (المدنسة) إخراج علي عقلة عرسان دور الأم، (المأساة المتفائلة) إخراج علي عقلة عرسان دور المفوضة، (حكاية حب) للدكتور رفيق الصبان لعبت الأميرة مهمنة، (أديب الملك) إخراج علي عقلة عرسان لعبت دور الملكة جو كاست، (المفتش العام) إخراج الدكتور شريف شاكر لعبت زوجة رئيس البلدية، (السعد) إخراج أسعد فضة لعبت فيها دور الزوجة، (حرم معالي الوزير) إخراج أسعد فضة وقد لعبت دور الزوجة جيفكا.

وفي التلفزيون: (أسعد الوراق) إخراج علاء الدين كوكش دور منيرة، (زيناتي خليفة) في دور الأميرة سعدى إخراج هاني الروماني، (دليلة والزيبق) إخراج شكيب غنام دور دليلة، (الخنساء) إخراج صلاح أبو هنود، (ساري) إخراج علاء الدين كوكش دور الأم، (عصي الدمع) إخراج حاتم علي، (صعاليك ولكن شعراء) إخراج محمد الهندي دور عنيزة أم الشنفرى وأخت تأبط شراً، (حكاية شهرزاد الأخيرة) إخراج شوقي الماجري دور الملكة أم شهريار، (الطريق إلى كابول) إخراج محمد عزيزية دور الأم، (زمن الحب) إخراج انطوان ريمي دور الممثلة منى، (أرحل وحيداً) إخراج انطوان ريمي دور الزوجة، (عقبة بن نافع) إخراج ممدوح مراد دور الكاهنة، (جواهر) إخراج نجدة انزور الشيخة أم حمد، (ليالي الصاللحية) إخراج بسام الملا دور أم المخرز، (الخشخاش) لبسام الملا دور الزوجة، (شبكة العنكبوت) إخراج مأمون البني دور الأم، (فسحة سماوية) إخراج سيف الدين سبيعي دور أم فواز، (الذئاب) إخراج علاء الدين كوكش دور الملكة، (هجرة القلوب إلى القلوب) إخراج هيثم حقي دور هلالة، (بكرى أحلى) إخراج محمد شيخ نجيب دور الأم.

الذاكرة..

لا شك أن ذاكرة السيدة منى قد خانتها، فكما خانتها في معرفة مخرج (سر النوار)، نسيت تماماً اشتراكها في مسلسل تلفزيوني كنت كتبته وافتتح به تلفزيون اليمن الأعمال الدرامية، هو (وضاح اليمن) الذي أخرجه علاء الدين كوكش، ومثلت فيه دور أم البنين زوج الخليفة عبد الملك بن مروان، ولكن ماذا تتذكر وحياتها معجونة عجناً بالنصوص المسرحية والتلفزيونية، ومن قبل الإذاعة التي قامت ببطولتها.

وسألتها:

عمل تتمنى لعب دور فيه

- **ما هو العمل الذي تتمنين أن تلعبيه؟**
- أحب أن أمثل دور مارثا في مسرحية من يخاف فرجينا دولون للكاتب ادوار ألولبي لأنني عندما لعبت هذا الدور في التلفزيون كنت صغيرة جداً، وتجربتي كانت ضحلة، الآن اعتقد أنني أستطيع أن ألعبه بإتقان أكثر لأنه يحتاج إلى ممثلة من طراز مختلف فيه الكثير من الجنون، كثير من القسوة، وكثير من الحنان فهو ألم المرأة العاقر.

أي مخرج، أي ممثل..؟

- **من هو المخرج الذي ارتحت له ومن هو الممثل الذي شعرت أنه كفؤ لك؟**
- أنا عملت مع مخرجين كثر في المسرح والسينما والتلفزيون، لذلك من الصعب أن أحدد ولكن هناك مخرجين ارتبطت نجاحاتي بهم بكل المقاييس: المسرحية (رفيق الصبان) (علي عقلة عرسان) و (أسعد فضة)، في التلفزيون طبعاً (علاء الدين كوكش) في البداية، ولكنني لا أستطيع أن أنسى (صلاح أبو هنود) و (انطوان ريمي) و (هيثم حقي) و (بسام الملا) وأيضاً تجربتي مع (حاتم علي) و (محمد شيخ نجيب) و (سيف السبيعي) و (مثى صبح).

أما بالنسبة للممثل الذي شعرت بأنه كفؤ لي فهذه مسألة لا أحب أن أتكلم فيها فكل من وقفت أمامهم رائع.

- **ما رأيك بالحركة الدرامية في سورية وماذا ينقصها؟**

- الحركة الدرامية في سورية أصبحت متميزة جداً في الوطن العربي وخاصة الدراما التلفزيونية فوجود المعهد والشركات الخاصة جعل منها بحراً من العطاء فلماذا يجب أن يكون هناك دائماً شيء ينقصها. عندما يكون هناك نجاح معترف فيه. ربما ينقصها أنها تقدمت أكثر مما كنا نحن نحلم نحن كجيل. لقد كنا نريد أن نكون شيئاً متميزاً ومتمرداً في الوقت نفسه. لم نكن نتصور أبداً أننا سنشكل يوماً ذعراً للآخرين ومثار إعجاب واحترام واعتراف بهذا الشكل.

المرحوم محمد شاهين

- **هل أثر فيك زوجك الفنان المرحوم محمد شاهين أم أنت التي أثرت فيه؟**

- محمد شاهين هذا الضابط السوري الجميل الصوت القوي ذو النبرات الواضحة والحازمة، علمني الانضباط فلقد كان مديري في المسرح العسكري وهو برتبة ملازم أول وفي نفس الوقت هو مخرج أول مسرحية لي وكانت (الفطر الأخضر) وبها افتتح المسرح العسكري افتتاحاً رسمياً. عندما قال لي إقرأي هذه الجملة وكانت بالعامية. قرأتها وسألته بسذاجة ماذا أفعل بيدي فضحك ونظر إلي طويلاً، لقد رآني محمد شاهين قبل أن يراني أحد آخر في الوسط الفني، فتاة طويلة نحيلة خجولة هشة، تلفظ الطاء - تاء تشبهاً بطبقة تحلم أن تصل إليها فاحتواني، ورأيت في عينيه نظرة حنان سرعان ما تحولت على مر السنين إلى دهشة، كنت كلما قدمت عملاً ونجحت فيه، وكلما قرأت كتاباً ناقشت فيه، وكلما اعترف بي مخرج آخر عملت معه من جديد أرى الدهشة في عينيه. لم يعترف بي زوجي كطاقة خلاقة إلا بعد أن اعترف بي كل العاملين في الوسط الفني، ولم يكن يتصور أنني سأصبح

هكذا، وكنت أنا حريصة دائماً على أن أرى هذه الدهشة في عينيه لأنها مقياس نجاحي وأظن أنه حتى الآن يرمقني بهذه النظرة، لم يكن يتصور أبداً أنني سأكون معه كما كنت في أواخر أيامه، كان ينظر إلي تلك النظرة وكأنه لم يكن يتصور قط أنني سأكون بجانبه أترك كل شيء لأكون معه. والآن عندما أذهب لزيارة قبره أحمل معي آلة التسجيل وصورة مريم من (القرآن الكريم) لأسمعه إياها فهو يحبها كثيراً وأعتقد جازمة أنني أرى نفس النظرة ونفس الدهشة. وبصراحة أنا أحب أن أثير دهشته حتى ولو هناك فهي نبراسي بأنني ما زلت أمثل أي أحيا.

أمام أنطوني كوين

- **صرت نجمة عالمية ووقفت أمام انطوني كوين فماذا أعطاك هذا الوقوف، وهل أكسبك ثقة بنفسك وثقة بأن الفنان السورية، أو الفنانة السورية، لا يقل عن الأفذاذ من الفنانين إذا توفر لهم المناخ الجيد؟**
- أنا لم أقف أمام انطوني كوين ممثلة، لقد وقفت أمام عبد الله غيث في النسخة العربية، السيدة إيرين باباس هي التي وقفت أمامه، ولكنني عشت مع هذا الفنان لمدة سنة كاملة، أحببته كإنسان كما كنت أحبه كفنان وربما أكثر فهناك بعض الفنانين إذا شاهدتهم تكرههم. كوين لم يكن كذلك، فهو متواضع، لبق، دبلوماسي، لا يثرثر، كان ينحت ويرسم، وكثيراً ما كنت ألاحقه بنظراتي إن كان يمثل أو كان يتكلم، لقد أحببته جداً وأعتقد أنه بادلني هذا الشعور فقد تكلم عني في صحيفة دير شبيكل الألمانية كلاماً جميلاً ما زلت أحتفظ به، الفنان السوري فنان معطاء، إذا توفر له المناخ الجيد حلق، وما يحصل الآن هو أكبر برهان.

توضيح..

الواقع أنني قصدت بهذا السؤال لا التمثيل مع انطوني كوين، بل وقوفها لمدة سنة كاملة أمام ممثل كبير، وهو يؤدي دوره.

لن أكتب مذكرات..

- سمعت أنك بصدد كتابة مذكراتك فهل هذا صحيح؟

- أعوذ بالله أين سمعت هذا؟ لقد سألوني فقط وأجبتهم لا أبداً، لم أفكر ولن أفكر ولن أكتب. وسأقول لك لماذا لقد قرأت مذكرات (مارلون براندو)، (غريتا غاربو)، وحياة (اندريا غاندي) و (مذكرات ايوث بياف) وأيضاً مذكرات (أمينة رزق) (مريم فخر الدين) وشاهدت مسلسل أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وسعاد حسني وفيلمي عبد الناصر. ما قرأته وما شاهدته يختلف جداً جداً ما بين الأجانب والعرب. هناك شيء دائماً في سيرنا أو مذكراتنا أو ما يكتب عنا له علاقة برقابة مشروطة من الورثة، ويجب أن تكون هذه السير العربية من الفنانين ومن السياسيين لها علاقة بالكمال فلا أخطاء ولا فسق ولا حب غير مشروع، لا كراهية ولا لا لا.. إلى آخره.

يعني أكذب وتجمل بينما عندما تقرأ مذكرات عن حياة الآخرين (الأجانب) نجد شيئاً آخر نجد الحياة بكل ما فيها وبكل ما نتعرض له في عملنا من نجاح وفشل وحب وكراهية. إذاً لذلك لن أكتب مذكراتي أولاً حتى لا أكذب. وثانياً لأنني أعتقد، أن من يكتب مذكراته، يجب أن يكون لديه شيء، يهديه للآخرين. أنا ليس عندي شيء أهديه، أنا عشت حياتي كما أريد واخترت قدري واختارني لكي أمكون ممثلة فقط.

الوحدة..

وكان سؤالي الأخير:

- ألا تشعرين بالوحدة وأنت أرملة؟

وأجابت:

- أنا أشعر بالوحدة طوال عمري. والفنان والشاعر والروائي والرسام والنحات والسياسي فهم في لحظة المجد وحيدون وفي لحظة الفشل كذلك، مهما أحاط بك الناس، ففي تلك اللحظة بالذات لا أحد هناك. هي لحظة تمر عليك كالدهر تكون وحدك مطلق وحدك لذلك أنا أفهم معنى الوحدة النبيلة وأحبها. وأظن أن من يقرأ لا يكون وحيداً ومن يحب السفر لا يكون وحيداً ومن يحب الشمس والقمر والليل لا يكون وحيداً.

◆ ◆ ◆

كانت هذه منى واصف، ألمع نجمة في سماء الدراما السورية إن لم نقل العربية، فإلى قمم أخرى.

نادية الغزي

محاماة وكتب ووصفات شعبية

ابنة رئيس وزراء دمشقي سابق، ذات وجه جميل، أرستقراطي الملامح، وأداء صوتي متميز، لفتت أنظار الناس جميعاً، وفيهم الرئيس جمال عبد الناصر عندما أطلت من التلفزيون السوري في بواكيره في أول الستينات، في برنامجها التلفزيوني الشيق، الذي كان باسم "البيت السعيد"، إنها السيدة نادية سعيد الغزي، المحامية، وصاحبة الكتب الهامة ذات الخصوصية والفرادة، فيما بعد، والدمشقية أباً عن جد.

لقاء بعد ٤٠ سنة

عندما التقيتها بعد زمن مديد، أي بعد أكثر من أربعين سنة أو أكثر في حفل مؤسسة الـ S.O.S الخيرية، حيتني كأنني لم أرها قبل أربع وعشرين ساعة فقط، قلت: "يسعدني أن التقي بك"، قالت: "في التلفزيون.. لا"، قلت: "بل في مجلة المعرفة" فقالت بالحرف الواحد، وبتواضعها الجم: "أنا تحت تصرفك".

نشأت السيدة نادية الغزي في أسرة أرستقراطية، كان ربها المحامي الأستاذ سعيد الغزي رئيساً لوزراء سورية، ومع ذلك لم يكن يأبى على نفسه أن يحمل محفظة المحاماة، ويتدرج على قدميه إلى قصر العدل، بعد أن يترك رئاسة الوزارة، أسرة جبلت على التواضع وحب الخير للناس، وهكذا نشأ ولداه غازي ونادية على هذا الخلق العالي.

- **كيف عملت في التلفزيون؟**

- بحكم القرابة مع المدير المؤسس د. صباح قباني الذي عرض علي العمل، لكنني بعد موافقة والدي الذي كان واسع الأفق، وموافقة زوجي المرحوم نزار بقدونس المحامي الذي حولني إلى أبي.

- **كنت متزوجة؟**

- حديثاً.

- **لماذا اخترت لهذا البرنامج التلفزيوني "البيت السعيد"؟**

- لتفاني في العمل، لصدقي، لعفويتي، للشخصية التي أملكها، هبة من الله تعالى على الدخول إلى قلوب الناس، لأنني أتحدث من قلبي، كل هذا ما يمكن تسميته بالطلة.

- **لم تذكري الشكل الحسن.**

- الشكل آخر ما يفكر به.!

نسيت أن أقول لك لثقافتي أيضاً، لقد قرأت إلياذة هوميروس (٣٠٠٠ بيت من الشعر) ولم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة.

لماذا هجرت التلفزيون؟

كان لا بد من أن أوجه لها سؤالاً ترددت كثيراً في توجيهه:

- **لماذا تركت التلفزيون إذاً؟**

قالت، وبدا عليها سحابة حزن صغيرة:

- تركته لسبب خاص.

- **ما هو؟**

- اعذرني، كل ما أقوله إن كرامتي الشخصية قد تأثرت، وقد آليت على نفسي ألا أعود أبداً للتلفزيون.

نادية المحامية - الكاتبة

انصرفت نادية الغزي إلى العمل في المحاماة، إن في مكتب والدها، أو في مكتب زوجها، وقد توزع وقتها بين مهنة المحاماة وهواية الكتابة، وهي تعترف أن التلفزيون أفادها إذ عرفها على مشاكل الناس عن طريق رسائلهم، وبذلك دخلت المجتمع الميداني الحقيقي فراحت تكتب القصص، وفي رأسها هاجس واحد: إنصاف المرأة.

- **ما هي الكتب التي أصدرتها في هذه المرحلة؟**

- سأجمل لك ما أصدرت دون تحديد مراحل.

- **ما تريدين.**

- كان هدفي وما يزال الجهاد في سبيل المرأة لإعلاء كلمتها، وقد أدى هذا الهدف إلى تفاهم مع الاتحاد النسائي في النشر أو في إعداد القوانين الخاصة بالأحوال الشخصية، وبضوء هذا الهدف أصدرت الكتب التالية: أولاً: كتاب "اضطهاد المرأة عبر العصور"، ثانياً: كتاب "هديل" وهو كتاب رسائل ترسلها فتاة إلى العالم.

- **ما هو هذا الكتاب؟**

- كان نوعاً من وضع النقاط على الحروف بالنسبة لأسرتنا العربية السورية، وقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً واسعاً، ثالثاً: كتاب ثلاثي "العبور إلى الشر" و"قضايا خاصة جداً" و"هن" وفيه قصص عن مجرمات وضحايا أخذت من ملفات القضاء.

- **أهذه هي الكتب الخاصة بالمرأة؟**

- هناك المزيد، ثمة رواية تتعلق بالمرأة أيضاً.

- **ما اسمها؟**

- شروال برهوم.

- **أي عنوان هذا؟**

- الرواية تتحدث عن الحرب العالمية الأولى والمجاعات التي حدثت في سورية ولبنان من خلال حب وانتظار رجل لم يعد لأنه قضى في الحرب.

- **أعرف أن لديك كتاباً بعنوان غريب "حكايا صلصالية لنساء ميتات"، فهل تحدثيني عنه؟**

- هو كتاب يتحدث عن جرائم وأحداث لنساء عشن في المنطقة قبل الميلاد.

مصادر موثقة

تعتمد السيدة نادية الغزي على مصادر موثقة في العودة إلى التاريخ، أثناء كتابتها هذا النوع من الكتب، وفي كتابها "حكايا صلصالية لنساء ميتات" على مصادر من حضارة مدينة ماري، والحضارة الفرعونية، وحضارة إيبلا، وخاصة فيما يتعلق بجرائم الاغتصاب أو قانون حمورابي، وحروب توت عنخ أمون وحروب الجيش المصري، وقد تعتمد على ترجمة من اللغة الفرنسية، لكن الوثائق المأخوذة لا تزيد عن أسطر، في حين أن للخيال القصصي بصمة واضحة.

- **أهذا كل شيء؟**

- لا.. هناك أشياء وأشياء أخرى..

- **مثل ماذا؟**

- مثل المحاضرات والأبحاث التي ألقيها وأكبتها، وقد نشرت أو ألقيتها عن المرأة كمحامية.

- **هل تضربين لي مثلاً على محاضرة لك؟**

- "عمل المرأة في التاريخ"، "ثلاث نساء حلبيات".

- **وغيرهما؟**

- إنني أكتب في "طبيبك" المجلة القديمة الجديدة، وفيها أنشر وصفات طبية بشكل قصصي، وهذا جديد في الصحافة.

- **هذا مثير للاهتمام.**

- إن هذا الاهتمام مرده إلى عنايتي بالتراث الشعبي.

- **أعرف أن لك كتباً في هذا الشأن؟**

- أجل كتب عديدة، هذا وجه آخر من اهتمامي الذي تعهدته وتمنيته.

- **ما هي الكتب؟**

- كتاب تراث بعنوان "من بساتين بلاد الشام" وهو يتحدث عن الفاكهة الشامية، تسعة أنواع من الفاكهة الشامية يتحدث عنها الكتاب فلاحة وزراعة وشعراً ونثراً وصيدلة.

- **على ماذا اعتمدت في كتابته من مصادر؟**

- على مصادر عربية.

كتاب من عالم الطير

- **ماذا كتبت أيضاً؟**

- كتاب "عالم الطير بين القزويني والعالم الحديث" غير أن هذا الكتاب لم يتسن له النشر.

- **لماذا؟**

- لكثرة صوره.

- **تكاليفه كبيرة؟**

- جداً، فلم ينشر.

- **وماذا أيضاً؟**

- موسوعة "حضارة الطعام في بلاد الرافدين وبلاد الشام"، وهذه مؤلفة من أربعة مجلدات، يضاف إليها مجلد خامس يتضمن الفهارس، وقد أصدرته دار الفكر بدمشق.

- **ما هي خصوصية هذا الكتاب؟**

- أعرض فيه تاريخ انتقال الطعام إلى بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين، عبر الغزوات والحضارات.

- **والمطبخ السوري؟**

- بالإضافة إليه، طبعاً.

هاتف خلوي

أثناء هذا الحوار الساخن عن الطعام وعالم الطير والفاكهة رن جرس هاتف السيدة نادية الغزي - ألو، من؟ أهلاً وسهلاً - سأوافيكم إلى هناك - صحيح؟ - الحمد لله على السلامة.

أغلقت الهاتف وابتسمت، بدا على وجهي وفي عيني علامات استفهام، لماذا ابتسمت بعد هذا الحديث الشيفرة.

وحدها تكلمت

كنا نتحدث عن سيدة وصفت لها وصفة شعبية، ومن وصفاتي التي اعتدت أن أصفها، إن في مجلة "طبيبك" أو لأصدقائي، تقول صديقتي التي كلمتني أن السيدة المريضة بركبتها استخدمت وصفتي فشفيت، والحمد لله، لهذا ابتسمت وأنا أشكر الله.

- **وما هي الوصفة؟**

- في منتهى البساطة، كانت ركبتها تؤلمها، وبناء على وصفتي لفتها بقطعة "قمردين" لعدة أيام، فإذا بالألم يزول والحمد لله.

قلت مبتسماً:

- **نفعنا الله ببركتك، يا ست نادية**

ابتسمت، إنها تأخذ العلاج الشعبي مأخذ الجد، وتمارسه وتصفه، لأنها مؤمنة بالطب الشعبي، أي بالعلاج الشعبي.

سهر مصاب بالاكتئاب

- **ما هو جديدك؟**

- "هذيان هر مصاب بالاكتئاب"

- **هل هذا عنوان؟**

- أجل عنوان كتابي الذي سيصدر خلال أيام قليلة (اليوم هو ٢٥ أيلول ٢٠٠٥).

- **وماذا تقولين على لسان الهر؟**

- إنها قصة، شبه رواية، لكنني أسقط كلام الهر، هل أقول لك؟ على الرغم من البساطة الظاهرة في الكتاب فإنه يغلب عليه الطابع الفلسفي، إنني أرجو من قرائه أن يتعمقوا فيه بتجاوز البساطة الظاهرة.. إلى العمق المنشود.

- **هل هناك جديد أيضاً؟**

- إنني أحضر لثلاثة كتب جديدة.

- **ثلاثة كتب مرة واحدة؟**

- سأنشرها بالتوالي.

- **ما هي؟**

- كتاب "تاريخ العطر والطيب"، وهو يخص الروائح الذكية في التاريخ.

- **والثاني؟**

- كتاب عن "الحلي" الحلي التي كانت تستخدم في المنطقة.

- **والكتاب الثالث؟**

- كتاب عن "طرق التجمل القديمة عند المرأة الشرقية".

- **هل هناك قديم وجديد في موضوع التجميل؟**

- نعم، كيف كانت المرأة الشرقية تتجمل؟ أليس هذا مثيراً؟

أنت لا تتجملين؟!

هنا أبديت ملاحظة هامة، قلت إنك ستنشرين كتاباً عن التجميل، مع أنك لا تتجملين، ليس هناك أحمر أو أبيض على وجهها، ليس الآن لكنني منذ عرفتها لم ألاحظ أية مسحة تجميل كأنها لم تعتد على هذا النوع من الزينة، فابتسمت وقالت لي:

- عندما كنت عازبة، مرة، وضعت أحمر شفاه، على شفتي، فإذا بالمرحوم والدي يدخل، فابتسم وأنبني، وكان قليلاً ما يؤنبني، قائلاً: "شو هاد.. يا ناديا؟ تبدين مثل القطة الآكلة أولادها"، وكان ذلك يوم، لم أعد أضع أحمر على شفتي، لا يعني هذا أن إيماني معدوم بالجمال والتجميل، لكنه يعني أنني لا أتجمل إلا في المناسبات، والناس عرفوني بهذه السحنة، فلماذا أصبغها بالأحمر والأبيض.

نظرت إلى وجه السيدة نادية الغزي فلم أر تغصنات أو تجعدات، كان الزمن قد مر عليها لكنه لم يترك أثراً كبيراً على وجهها، وخطر لي أن أسألها السؤال الذي يخشى الناس توجيهه إلى المرأة عادة، لكنني تجرأت وسألت:

- **عذراً لسؤالي، كم هو عمرك الآن؟**

قالت:

- أنا في العقد الذي يراوح بين الستين والسبعين.

أردت أن أعرف أكثر، غالتني: لا لتغيير الحديث، وإنما كنوع من المجاملة.

- كانت معك زوجتك في حفلة الـ S.O.S وتبدو بصحة جيدة و..

قاطعتها كمن فهم قصدها، وكنت أمزح:

- **عمرها الآن فوق الثلاثين !!**

فقالت على الفور: وهي ترد على المزحة بمزحة مماثلة:

- أنا أكبرها بسنة واحدة.

ثم أردفت معيدة إلى الحديث موضوع التجميل، فقالت إنها لا تهتم بنفسها كثيراً وإنما أهتم بغيري.. بالآخرين، وإذا ما تجملت ونظرت في المرآة.. أعتبر نفسي لست أنا !!

محطات

- بدأت السيدة نادية الغزي الدخول في معترك الحياة عندما تخرجت من كلية الحقوق، وأمضت حياتها تبذل للآخرين كل ما تستطيع، فهي غيرية جداً.
- كانت متزوجة من المحامي المرحوم نزار بقدونس، وأنجبت منه ثلاث بنات تزوجن جميعاً، اثنتان تعيشان مغتربتين، والثالثة في دمشق.
- لها أخ واحد هو السيد غازي الغزي، وكان لها أخ آخر توفاه الله.
- تمد يدها إلى أعمال الخير أينما وجدتها.
- بعض كتبها نفذ من الأسواق.
- كتابها "من بساتين بلاد الشام" طبع بالألوان وصور بعضه الدكتور صباح قباني، فجاء جميلاً متقناً.

د. برهان العابد

همه إسعاد الآخرين !

دمشقي من مواليد حي الميدان، أتقن الفرنسية والإنكليزية، ويعرف اللغة الصينية، كان أول طبيب تخدير وإنعاش في سورية، وله مؤلفات، فكه، يحبه أصدقاؤه، ولد قبل الثورة السورية، وصار وطنياً بوهجها.

عرفته المنتديات الثقافية صديقاً دائماً، ومساهماً مكابراً وله حكمة يؤمن بها، وهي رغبته الملحة في إسعاد الآخرين.

ويسعدني أن أجري هذا الحوار معه، هو الدمشقي الذي يحمل بحق اسم "مثقف دمشقي" في احتفالية دمشق بكونها عاصمة للثقافة العربية هذا العام.

- **يلفت النظر أنك طبيب ومع ذلك فأنت مؤلف ومثقف، فما هي دوافعك إلى هذه الهواية؟**

- تلاحظ فئة من المهتمين بتطور بلدنا ظاهرة انتشار الأمية الثقافية بين جمهور الأطباء، ولا تستثني منهم إلا قلة مثقفة تؤمن بالطب رسالة لا تجارة، بعيدة عن سلوك أصحاف الحرف والدكاكين.

كنت أطمح أن أنتسب إلى هذه الفئة التي تعي شرف ونبل مهنتها وتشعر بالمسؤولية التي تقع على عاتقها تجاه مجتمع ينظر إليها نظرة تمييز واحترام. وأعلم أن العلم والثقافة يرفعان من أقدار الناس مما دفعني لسلوك سبلها والسعي لامتلاك أدواتها، فأدمنت مطالعة الكتب وعاشرت أهل العلم والمعرفة وأقمت علاقات دافئة مع الناس وعشت في إطار القين التي يحترمها المجتمع، آملاً أن ترقى بي ثقافتي المتعددة الجذور إلى مرتبة النخبة المتميزة في المجتمع الذي يصف الأطباء بالأمية الثقافية.

- **المولد والنشأة والدراسة؟**

- ولدت في حي الميدان بدمشق قبل الثورة السورية الكبرى بثلاث سنوات في بيت يضم الجد والجدة والآباء والأمهات والأعمام والعمات والأولاد والأحفاد، يتجاوز عددهم الثلاثين نفراً، متزوج من السيدة صباحت العجلاني ولنا أربع بنات متزوجات وعشرة أحفاد من الذكور والإناث.

بدأ وعيي بأجواء الثورة عندما انتقلنا إلى حي المهاجرين بعد إحراق بيتنا ونهبه من قبل الفرنسيين حيث مكثنا ما يزيد على السنتين عدنا بعدها إلى حي الميدان ودخلت كتاب الشيخ المصري في جامع الغواص ريثما بلغت سن السابعة وسجلت بمدرسة الحي الرسمية التي كان اسمها أنموذج الميدان الأميرية للذكور. أذكر من أساتذتها الأستاذ جميل سلطان والشيخ بهجت البيطار وإبراهيم بيك حبي والأستاذ عبد الوهاب أبو السعود. بقيت في تلك المدرسة إلى أن نلت شهادة التحصيل الابتدائي (السرتفيكا) وانتقلت إلى مدرسة الفرير ماريست بالجسر الأبيض. وهناك بدأت مرحلة دراسية في غاية الصعوبة لأن جميع المواد تدرس باللغة الفرنسية التي كان نصيبي منها متواضعاً جداً، مما تطلب مني بذل جهد كبير إلى أن وصلت لغتي الفرنسية إلى المستوى الذي جنبني مصيبة الرسوب في أي سنة من سنوات دراستي الثانوية.

ثم دخلت كلية الطب وتخرجت منها عام ١٩٥٠ وعينت معيداً عام ١٩٥١، ثم أوفدت عام ١٩٥٥ إلى الولايات المتحدة للتخصص بالتخدير والإنعاش والحصول على المؤهل العلمي حيث درست في أحد مستشفيات جامعة ويسترن ريزيرف في كليفلاند أوهايو، ثم تدرجت في سلم ارتقاء الهيئة التدريسية الجامعية إلى أن انتخبت عام ١٩٧١ أستاذاً لكرسي التخدير والإنعاش.

- **ما هي المؤلفات الطبية والثقافية التي ألفتها أوجزها حسب تسلسل صدورها؟**

- عندما عدت من الولايات المتحدة بعد نيل المؤهل العلمي عام ١٩٥٨ أعدت النظر بالأمالي التي كنت أعددتها لطلاب الطب والصيدلة وطب الأسنان قبل سفري، فوجدتها خالية من كثير من الموضوعات المستجدة التي لم تكن

معروفة في بداية الخمسينات. لذلك عزمت على إعداد كتب ومراجع جديدة تتألف من سبعة كتب وكتيب واحد، أكثرها مدرسية جامعية وهي:

١- مبادئ الإسعافات الأولية لطلاب الصيدلة، بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ أديب العطار، طبع بمطبعة جامعة دمشق عام ١٩٦٧.

٢- التخدير لطلاب الطب، وهو ترجمة حرفية لكتاب إنكليزي يدرس في جامعة أكسفورد. طبع في مطبعة جامعة دمشق عام ١٩٦٨.

٣- الموجز في التخدير والإنعاش، وهو كتاب أمريكي يدرس في جامعة نيويورك، طبع أكثر من مرة من قبل مطبعة جامعة دمشق ودار الكتاب بين أعوام ١٩٧١ و ١٩٩٠.

٤- دليل الإسعافات الأولية، وهو ترجمة عن كتاب إنكليزي بتكليف من منظمة الصحة العالمية، طبع في مكتبة لبنان ناشرون عام ١٩٩٥.

٥- التخدير في مستشفى المنطقة، ترجمة عن الإنكليزية بتكليف من منظمة الصحة العالمية أيضاً، طبع من قبل المركز الثقافي العربي للوثائق والمطبوعات الصحية بالكويت (بدون تاريخ).

٦- محاضرات في تاريخ الطب (تأليفاً)، بمشاركة الدكتور فريد حداد والدكتور سلمان قطايه، المطبعة الجديدة، دمشق ١٩٨٥.

٧- مختارات من تاريخ الطب، (تأليفاً)، منشورات جامعة دمشق ١٩٨٩، أعيد طبعه ١٩٩٠.

٨- الإسعاف العاجل في حوادث الطرق، بمشاركة الدكتور طه الجاسر، وهو كتيب صغير صدر عن مؤسسة اشموند ليردال بالنروج وترجم إلى أكثر من ٢٠ لغة وكلفنا بترجمته إلى العربية. وهو يدرس للمتطوعين في الصليب والهلال الأحمر.

- **ما هو الموضوع الذي شغلت فبذلت له جهدك الثقافي؟**

- من أوائل الموضوعات التي استحوذت على الكثير من وقتي وجهدي كان تاريخ الحروب الصليبية، فقد أدمنت قراءة جميع الكتب المطولة التي أرخت لتلك الحروب، باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية. كما كتبت أبحاثاً

تناولت مختلف أوجه تلك الحروب وأهم ما جرى فيها من حوادث في أيام الحرب والسلم. وقد نشر معظم تلك الأبحاث في المجلات المختصة والكتب الجامعية، كما ألقيت بعضاً منها في النوادي والمراكز الثقافية.

أما بعد إحالتي على التقاعد حيث تفرغت للمطالعة بشكل واسع، فقد اجتذبني موضوع تأثير اللغة العربية على غيرها من اللغات، فعكفت على نبش المراجع التي تبحث هذا الموضوع فتبين لي أن أكثر اللغات الأفريقية وجدت في اللغة العربية معيناً لا ينضب من المفردات التي أخذتها إلى لغتها. وخصوصاً لغات الهوسا واليوروبا والفولاني والولوف والإيبو والسواحلية وكثير غيرها من اللغات التي يتكلمها الملايين في القارة السمراء. كما نقلت اللغات الأوروبية المهمة الآلاف من الكلمات العربية إلى لغاتها كالإسبانية والبرتغالية والإنكليزية التي أحصى فيليب حتى خمسة آلاف كلمة عربية دخلت قواميسها، ولا أقول شيئاً عما دخل الفرنسية والألمانية وهي تعد بالمئات.

- **ما هي الأعمال التي تشغلك أو تصنف بها وتضيفها إلى رصيدك؟**

- أقوم بترجمة بعض الكتب والمقالات والأبحاث العلمية نظراً لاعتقادي بأن الترجمة هي سبيلنا للخروج من التخلف الثقافي والعلمي الذي نعيشه، فقد قامت الحضارة العربية الإسلامية في أوائل عهدها على الترجمة التي بدأها الأمير خالد بن يزيد الذي استعان بعلماء من مدرسة الإسكندرية وتابع رسالته خلفاء العصر العباسي الأول: المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم، فقد كلفوا تراجمة من النساطرة واليعاقبة والسريان والروم والصابئة والمجوس بترجمة كتب من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها. وأرسل الخلفاء المسلمون المتنورون البعثات لجلب الكتب من أنحاء المعمورة شراء واستنساخاً وغنائم حرب وفدية أسرى. لذلك لا بد من السير على خطى أجدادنا وتقليدهم لأن الترجمة هي الطريق إلى الإبداع.

- **ما هي أهم اهتماماتك الجديدة بعد إحالتك إلى التقاعد؟**

- إنني أركز اهتمامي الآن على موضوع صياغة المصطلحات الطبية وتعريبها، فقد انتخبت مؤخراً عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية، الأمر الذي جعلني أتابع موضوعاً بدأته عام ١٩٦٠ حين أوفدتني الجامعة إلى مصر أنا وصديقي العلامة الدكتور هيثم الخياط للمشاركة في لجنة تعريب الطب في الإقليم الجنوبي وصياغة المصطلحات وقد توقفت عندما وقع الانفصال. ولم يتوقف اهتمامي بهذا الموضوع طوال وجودي في الكلية لأن اختصاص التخدير جديد علينا وهو بحاجة ماسة لتعريب مصطلحاته الأجنبية. فكانت لي فيه محاولات متواضعة في صياغة بعض المصطلحات وتوظيف كلمات بعضها الأخر عثرت عليها في معاجمنا القديمة.

- **أرى أنك تتواجد في الندوات والمحاضرات الثقافية مستمعاً فهل شاركت مشاركة عملية في مثل هذه الندوات؟ وهل حاضرت في موضوع طبي أو ثقافي؟ وما هو؟**

- منذ تعيين بكلية الطب، أي منذ خمسة وخمسين عاماً إلى الآن لم أنقطع عن المشاركة في النشاطات العلمية والثقافية، فقد حضرت وحاضرت في كثير من الأماكن التي يحاضر فيها الناس كمكتبة الأسد والمراكز الثقافية وأسابيع العلم ونقابة الأطباء والنادي العربي وفي أماكن أخرى كثيرة في دمشق وحلب وحمص واللاذقية وفي الكويت ومصر وتونس والسودان ولبنان واليونان وأمريكا. وتحدثت من راديو لندن أكثر من مرة وأجريت مقابلة مع تلفزيون باريس القناة الخامسة، وتلفزيون دبي، وأدخلت جامعة برينستون في الولايات المتحدة الأمريكية مقابلة لي في برنامج لها اسمه: "عندما كان العالم يتكلم العربية". كما كتبت عشرة موضوعات للموسوعة العربية ترجمت فيها لبعض أساتذتنا القدامى إضافة إلى كبار الأطباء العرب كالرازي والزهراوي وغيرهم. وإنني بصدد جمع كل إنتاجي العلمي سواء في التخدير أو تاريخ الطب أو البحوث المتعلقة بالإسعاف وغيرها، وهي لا تقل عن ثلاثين إلى أربعين مقالة ومحاضرة وبحث وحديث بغية إخراجها بكتاب يتضمن سيرتي الذاتية ومسيرة عملي في الجامعة.

- كيف تتابع تطورات الاختصاص الذي كنت أول رائد فيه؟

- منذ تخرجي من جامعة ويسترن ريزيرف في أمريكا نادراً ما فاتني حضور مؤتمر عالمي أو إقليمي مهم، فكانت هذه المؤتمرات توفر لي سبل نقل كل ما يستجد في اختصاص التخدير وهو كثير جداً، إضافة إلى المنح الدراسية التي كنت أحصل عليها عن طريق الجامعة، فقد أتتني منحة إنكليزية لمدة ستة أشهر عام ١٩٦٤ قضيتها في أشهر المراكز الطبية وتعلمت خلالها طرق التبريد والتخدير في عمليات القلب المفتوح التي كانت جديدة في ذلك الحين. كما دعيت لإتباع دورة في الصين عام ١٩٧٦ لمدة ثلاثة أشهر، درست خلالها في جامعة نانجين الطب التقليدي الصيني وأهم فرع فيه وهو الوخز بالإبر. كما جاءتني منحة من منظمة الصحة العالمية لمدة ثلاثة أسابيع قضيتها في داندي في اسكتلندا باتباع ندوة لدراسة أحدث الطرق لتدريس الأعداد الكبيرة من الطلاب واستعمال وسائل الإيضاح الحديثة التي تسهل ذلك. وفي عام ١٩٨٤ أوفدت إلى باريس لمدة ثلاثة أشهر لدراسة طرق تنظيم الإسعاف العاجل في المدن الكبرى. إن هذه المنح فتحت أمامي أوسع الآفاق وعرفتني على أهم رواد التخدير والإسعاف والإنعاش، فقد أصبح التخدير يضم العناية المركزة وطب ما قبل المستشفى وطب الكوارث ومعالجة الألم وغيرها.

- ما هي أهم نشاطاتك الاجتماعية؟

- كنت من أنشط أعضاء الندوة الثقافية عندما كنت طالباً في الجامعة، حتى تخرجت عام ١٩٥٠.

- في ستينات القرن الماضي تأسست جمعية طبية في دمشق، اسمها الجمعية الطبية العربية، انتخبت أميناً لسرها.

- انتخبت لمجلس نقابة الأطباء أكثر من مرة خلال الستينات.

- أسست عام ١٩٦٤ جمعية الأطباء المخدرين وانتخبت رئيساً لها حتى تسعينات القرن الماضي.

- كنت عضواً في جمعية أصدقاء دمشق وانتخبت نائباً لرئيسها مرتين وثلاث مرات عضواً في مجلس إدارتها.
- كنت عضواً في جمعية الهلال الأحمر في الأربعينات ولا أزال حتى الآن.
- انتخبت عضواً في مجلس إدارة جمعية حماية الأسرة النسائية ثلاث دورات.
- انتخبت رئيساً لرابطة جمعيات الأطباء المخدرين العرب في دورة عام ١٩٩٣ - ١٩٩٦ في تونس.
- انتخبت عضواً في مجلس إدارة قدامى الأطباء ولا أزال.
- أقيمت لي حفلات تكريم شخصية من قبل جهات كثيرة أذكر منها:
- قسم التخدير في كلية الطب بمناسبة إحالتي على التقاعد.
- كرمني مجلس الاختصاصات الطبية.
- كرمتني جمعية الأطباء الأمريكية السورية.
- كما أقيمت حفلات كثيرة كنت فيها من جملة المكرمين أقامتها وزارة الصحة، وزارة التعليم العالي، كلية الطب ونقابة الأطباء وطلاب صف ١٩٦٧، وغيرهم.

- **ما هي اللغات التي تعرفها؟**
- أتقن الفرنسية التي تعلمتها بمدرسة الفيرير ماريست، كما درست الإنكليزية عندما أوفدت إلى أمريكا للتخصص في التخدير والإنعاش حيث قضيت ثلاث سنوات، كما أنني أرطن بالصينية الـ (بوتون خوا) وأقرؤها إذا كتبت بشكلها المسمى (Pinyin) أي بالأحرف اللاتينية وأحفظ منها مئات الكلمات وعشرات الجمل اللازمة في المناسبات. كما ألم بالتركية والإيطالية والألمانية.
- **ما هي الحكمة التي تؤمن بها وتجعلها نبراساً لك؟**
- هي قول سانت أوغوستان: لا تتم سعادتي إلا بسعادة الآخرين.

❖ ❖ ❖

واحد آخر من مشاهير دمشق، ضننت ألا تضمه دفتا هذا الكتاب.

الأب الياس زحلاوي

الوحدة الوطنية في شخص

أكثر من مواطن اقترح عليّ أن أستضيف الأب الياس زحلاوي لأحاوره، بينهم رئيس تحرير مجلة "المعرفة" الدكتور علي القيم، فسعيت إليه، لكنه كان في وضع صعب، أخته مريضة، وهو يلازمها في مستشفاها من الثامنة صباحاً حتى العاشرة ليلاً، مع ذلك استقبل دعوتي للحوار بإيجابية مشهودة، فكان هذا الحوار الذي أوصاني أن يؤخذ بنصه كاملاً.

إن الأب الياس.. هو الوحدة الوطنية متجسدة في دمشقي رجل دين. وهذه أجوبته تدل على ذلك، وعلى ثقافته العالية:

- **أعرف أنك منفتح، من موقعك الكنسي، على العروبة والإسلام فهل تروي على قرّاء «المعرفة» ملابسات هذا الموضوع؟**

- دعني أصارحك باستغرابي لطرح مثل هذا السؤال. فأية غرابة في انفتاح رجل كنيسة على العروبة والإسلام؟ قد يكون لك - وربما لكثيرين!- ما يبرر هذا الاستغراب. إلا أن الحقيقة التي لازمتني العمر كله، منذ أبعد ذكريات الطفولة، جعلتني أعيش هذا الانفتاح على أنه أمر طبيعي، لازم أحاسيسي وحياتي، تلازم الرؤية للعين والتنفس للرئة، ثم تَفتّح، بمرور الزمن وتراكم الخبرات الروحية، والتحصيل العلمي والثقافي، مفهوماً كلياً تغلغل في ثقافتي وفكري وعملي وكتابتي وصلاتي، ونظرتي إلى التاريخ والحياة.

فأنا أعي الإسلام، منذ طفولتي الأولى في حي القصاع القديم المتداخل مع الغوطة، صداقات عاشها أهلي وأقربائي مع جيران الحارة: «أبو محمد» الطيان، و«أم وحيد».. كما أعيه ألعاباً نغيب خلالها، أحياناً في بساتين «أبو

حمـزة» و«أبـو علـي»، مـع أبنائهمـا وبناتهمـا وأحفادهمـا، وكأننـا أولاد أسـرة واحدة، أولاد يعرفون حتى اليوم نشوة اللقاء والمودة والخدمة المتبادلة.

وعرفت الإسلام أيضاً في بيت أهلي، عمـلاً ومن ثم صـداقة بـين عـدد من الفتيات المسلمات والمسيحيات، يعملن في ورشة الخياطة التي كانت أختي الكبـرى، علـى صغر سنها، تـديرها كل يـوم في بيتنـا الـصغير والمتواضـع، وكأنها أسرة واحدة، ولو لساعات..

أما العروبة، فقد عرفتها أيضاً طفـلاً، مـن خـلال المظاهـرات التـي كانت تجوب شوارعنا، تندد بالأجنبي، والتي مازالت بعض شعاراتها، إذ أتـذكر، تترجّـع أصـداؤها، بـل كلماتهـا، إلـى اليـوم، في أذنـي وأعمـاقي.. وعرفت العروبة أيضاً وخصوصاً في مدرسـة الطفولـة، حيث كـانوا يـصرّون علـى تعليمنا أن سورية تتألف من أربع دويلات، يطلب إلينا أن نذكرهـا بمـدنها الرئيـسة: دمـشق، حلـب، اللاذقيـة، الـسويداء، فيمـا كـان يـروى لنـا خـارج المدرسة أن هناك من قاتل ويقاتل لإنقاذ سورية مما يراد لها من تمزيق، وللإبقاء على وحدة ما تبقى منها..

ولكم أشكر الله أنه وضع، من حيث لا أدري، هذه الأسس في أعماقي، فجـاء مـا بنـي فوقهـا في مـا بعـد، خـلال دراسـتي الإعداديـة والثانويـة في لبنـان، وخلال دراستي الفلسفية واللاهوتيـة في القـدس، متكـاملاً مـع هـذا المدماك الطفولي الطبيعي، ومحرضاً قوياً لمختلف منطلقات تفكيري والتزاماتي، ومـا أجيـز لنفـسي أن أسـميه، بكل تواضـع، بعـض إبـداعاتي الكنـسية والأدبيـة والمسرحية والموسيقية.. وبعض أحلى صداقاتي إلى اليوم..

- **شـاركت حمـزة شـكور في حفـل (مـشترك) مـسيحيِ- إسـلامي، في بطريركيـة الروم الكاثوليك. هل يمكن أن تروي لنا هذه القصة؟ ولماذا هذا الحفل؟**

- لا يحتـاج المـرء إلـى علـم كثيـر كـي يعـرف أن النـاس - كـل النـاس!- حـوّلـوا الله، عبـر تـاريخهم الطويل، إلـى «بعبـع» يغـذون بـه أحقـادهم، وكثيـراً مـا يبررون به ما قام ويقوم بينهم من شكوك وانقسامات، بـل وحـروب غبيـة داميـة.. وكنـت كثيـراً مـا أتـساءل: أمـا مـن سـبيل إلـى التوجـه إليـه، هـو

الحقيقـة الوحيـدة التـي يعتـرف بهـا الجميـع، والتـي لا قبلهـا ولا بعـدها حقيقـة، في صـلاة مـشتركة، وفي تـرنيم مـشترك، يـذكرانا بمـا لـه علينـا جميعاً من طاعة حقيقية وتقديس عملي، وبما يترتب بالتالي علينا حيال بعضنا البعض، أياً كنا وأنى كنا، من احترام وتكريم، بل ومحبة؟ وكان مـا جرف ويجرف جميع المجتمعات، قديماً وحديثاً، شرقاً وغرباً، مـن غليـان دينـي، بل وتطاول على الفكر والحياة، يثير حزني ومخـاوفي، ويحفـز لـديّ الرغبة في القيام بمبادرة ما على هذا الـصعيد، مهمـا كانـت عـصية علـى إدراك البعض، ولاسيما من يعتلون بعض المناصب! فكان ما راهنـت عليـه من أجل الإسهام، ولو بنزر يسير جداً في إنقـاذ بـلادي العربيـة ممـا يعـدّ لهـا ومما يتهددها في الداخل، هو أحد أهم دوافعي لإنشاء جوقـة الفـرح. فقد شئت هذه الجوقة جسراً بين الإنسان والله، الإنسان المسيحي أولاً، ثم الإنسان المسيحي والمسلم، ثم الإنـسان العربـي وغيـر العربـي.. ولـذا، كنت قد طلبت من الفنان الكبير وديع الصافي، لحظة لقائي الأول بـه، أن يـضع لنـا ألحانـاً شـرقية صـرفة، بعيـداً عـن أي نمـط موسـيقي كنـسي، لتأخـذ طريقهـا إلـى آذان وقلـوب الكثيـرين، مـن مـسيحيين ومـسلمين.. وهكـذا كـان.. ولمـا كنـا في الجوقـة قـد قطعنـا شـوطاً بهـذه الأناشـيد الجديدة، لا بأس به، وفقني الله بصديق جمعني بالأستاذ حمزة شكور.. فوجدنا قلبينا متناغمين بالروح ذاتها، ومدفوعين بالحب نفسه. وسرعان مـا قررنـا عمـلاً مـشتركاً، وشـئنا لـه أن يكون ذا رمزيـة دينيـة وإنـسانية كبيـرة. فاقترحـت علـى رئيـسي الكنـسي آنـذاك أن نقـيم أمـسية دينيـة مشتركة في باحة كنيستنا الكبـرى في حـارة الزيتـون. وحـدّدنا تاريخـاً لهـا في آخر أيلول المشؤوم من عـام ٢٠٠١. وأتـيح لـي أن أهمـس في أذن أحـد المسؤولين في وزارة الخارجيـة كـي يـدعو الـسيد وزيـر الخارجيـة آنـذاك، الأسـتاذ فـاروق الـشرع، مـع الـسيد خـافيير سـولانا والترويكـا الأوروبيـة، التي صـادفت زيارتهـا لدمـشق تـاريخ إقامتنـا هـذه الأمـسية. وهكـذا كـان. فاستمعوا إلينا مدة عشرين دقيقة تماماً.. إلا أن مـا سـمعت مـن مراسـل التلفزيون البلجيكي، الـسيد جوزيـف مارتـان، يـوجز علـى أكمـل وجـه، في

نظري، ما حملوه في أعماقهم من يقين وسؤال. فقد قال بالفرنسية ما ترجمته بالحرف الواحد:

«كان على برلوسكوني، بدل أن يشتم الحضارة العربية والعالم الإسلامي، أن يأتي إلى هنا، ليردم هوة جهله !»

- **نعرف أنك أسست فرقة كورال ما هي قصة هذه الفرقة؟**

- جميلة هي قصة جوقة الفرح. فقد بدأت في أمسية قدمت فيها جوقة أطفال فرنسيين، على مسرح سينما الزهراء بدمشق، في مطلع الستينيات، أمسية غنائية ولّدت لدي رغبة ترجمتها سؤالاً: ما يمنع أطفالنا من أداء ما أدى هؤلاء الأطفال الفرنسيون، ولكن في باريس ونيويورك وروما وسواها من مدن الغرب؟

وفي عام ١٩٧٧، عُيّنت كاهن رعية في كنيسة جديدة، هي كنيسة سيدة دمشق، في حي القصور.

فسارعت إلى مدرسة الرعاية الخاصة، وشرحت للراهبة المسؤولة مسعاي، فأذنت لي بتفحص أصوات عدد كبير من أطفال تتراوح أعمارهم بين ٤و ٦سنوات، على أن يكونوا قاطنين في جوار الكنيسة، كي أجنبهم مخاطر الطرقات. وشئتهم من جميع الطوائف المسيحية، كي تكون جوقة وحدوية.

وكتبت لذويهم رسالة أطلعتهم فيها على رغبتي في إحداث جوقة أطفال تحيي الطقوس الكنسية، فاستجاب لندائي خمس وخمسون عائلة. وبدأت التدريبات على الفور: ساعتان في الأسبوع. وفي ليلة ميلاد عام ١٩٧٧، رنم الأطفال فأبكوا الناس.. وتواصل التدريب. وبعد عام واحد. كان لنا معهم فرقة فلكلورية أتقنت في آن واحد إنشاد موشحات صعبة مثل «اسق العطاش» و«ملا الكاسات» على إيقاع رقصة السماح. وقدمنا حفلاً أدهش الناس، خلال ثلاثة أيام في «قاعة السواعد» قاعة كنيسة سيدة دمشق. وعندها، حاولت طرق باب جديد: فكتبت عدداً لا يستهان به من الرسائل إلى العائلات الإسلامية المجاورة للكنيسة، أعرض عليها فيها ضم أطفالهم إلى الفرقة الفولكلورية، يحدوني الأمل بأن تكون لنا،

بعد سنوات قليلة، فرقة فولكلورية وطنية، تمثل شرائح المجتمع كلها. إلا أني لم أتلق أي جواب!

وتابعت الجوقة الكنسية مسيرتها. وأخذت تجتذب إليها مزيداً من الأطفال والفتيان والفتيات من مختلف الأعمار. وكنت أشرف على تدريبها بنفسي، إلى أن أصبت عام ١٩٨٧ بما أرغمني على التوقف عن التدريب، فعمدت إلى اختيار من يقوم بتدريب الجوقات الثلاث التي باتت «جوقة الفرح» تتألف منها.

وبذلك ظهرت مواهب جديدة لم ترضَ بما كانت عليه من علم وصوت، بل وسعت معارفها الموسيقية وعمّقتها في نطاق الموسيقى الشرقية والغربية على السواء، وسعت لإتقان العزف على عدد من الآلات. ثم استعنا بخبير روسي في مجال التدريب الصوتي، كما في مجال انتقاء وتدريب قادة جدد للجوقات كلها.

في هذه الأثناء، كنا قد اجتزنا عقبة ما كان لجوقة قبلنا أن تجتازها، عنيت بذلك الخروج من جدران الكنيسة إلى العالم الواسع. و لم يكن الأمر سهلاً، كما قد يبدو. فالتقليد الكنسي يعتبر الجوقة قائمة حصراً على خدمة الطقوس الكنسية. من ناحية أخرى، كان الأهل يرتاحون لوجود أبنائهم وبناتهم في الكنيسة، أما أن تكون الجوقة مجالاً لأداء موسيقي، ولو ديني، خارج الكنيسة. فذلك كان، في حدوده الدنيا، أمراً غير مألوف في نظر الكثيرين. فواجهتنا مقاومة شديدة، وإن ضيقة، ولكن في نطاق نخبة متدينة متعلمة ومثقفة. إلا أن أصحابها لم يلبثوا أن تراجعوا عنها، لاسيما بعد إصرار أولادهم على العودة إلى الجوقة. واكتشفوا ما ارتكبوا من خطأ، عندما سمعوا الجوقات في مختلف المناسبات تحيي أمسيات، دينية وفنية ووطنية، راقية، وتقدم فيها للناس هذا النمط الجماعي الجديد من الغناء والموسيقى، وتشحن من يؤديها من أطفال وشبان وشابات، بثقة متحفزة وفرح عارم، الكل في جوع إليه، وخصوصاً بنظرة جديدة إلى ذواتهم وإلى الحياة!

- يقال إن فرقتك جابت أوروبا وأميركا وأستراليا . وقدمت نموذجاً من التلاحم الوطني في سورية . فمتى كانت الرحلة ، وكيف تمت، وما هي آثارها؟

- اسمح لي أولاً بإلغاء كلمة «فرقتك» من سؤالك، لأني لم أحلم يوماً بشيء لي، وإلا لما كنت اخترت الكهنوت منهجاً لحياتي، وترجمة لإيماني وحبي: أن أكون مؤسس «جوقة الفرح»، فهذا أمر معروف، إلا أن الجوقة عمل جماعي، اشترك في إنشائه الأطفال والشبان والشابات، والأهل والمستمعون والمشجعون والنقّاد، والفنانون الكبار من أمثال وديع الصافي وزكي ناصيف، والمؤسسات الإعلامية في سورية، كما اشترك فيه خصوصاً مناخ الاستقرار والتآخي والتلاحم الوطني في سورية.

وقد شئت، وشئنا في «جوقة الفرح» أن نكون جسراً بين الناس، داخل سورية والوطن، وأن نكون أيضاً جسراً بين سورية والوطن العربي من جهة، وسائر البلدان، ولاسيما بلدان الغرب الظالم والمسيطر، من جهة ثانية.

هذه الرغبات كلها، دفعتنا في وقت مبكر للقيام بجولة إلى إيطاليا وفرنسا دامت عشرين يوماً، في صيف عام ١٩٨٢، مع خمسين شاباً وشابة. وتبين لنا أنّا كنا بحاجة لإعداد أنفسنا على نحو أفضل.

ولم نعاود المحاولة إلا عام ١٩٩٥. غير أننا كنا قد أعددنا لهذه الجولة إعداداً جيداً جداً. وكانت قد نشأت ظروف دينية جديدة بين سورية والعالم، بسبب «ظاهرة الصوفانية» التي سآتي على ذكرها في الإجابة على السؤال الخامس، فتحت لنا باباً واسعاً من التعارف والتآخي الدينيين، ما كان لأحد أن يحلم به. وقامت الجولة بمئة وخمسة منشدين. واستغرقت ثلاثة وعشرين يوماً، قدمنا خلالها في فرنسا وهولندا وألمانيا، واحداً وعشرين حفلاً -هذا الرقم لا يصدق!- دينياً وفنياً، بما فيه الحفل في معهد العالم العربي بباريس. وفي كل مكان كنا ننشد بالعربية، فيما الترجمة بيد الحضور. وفي كل مكان دون استثناء، كان الجمهور يصفق وقوفاً. وفي أمكنة كثيرة، استقبلنا في البيوت ضيوفاً، لاسيما في فرنسا وهولندا. وحدهما كانا غائبين: الحضور الرسمي العربي والإعلام العربي. ووحدها إذاعة مونته كارلو استضافتنا ساعة

كاملة. بالطبع مثل هذا الغياب المزدوج سبب غياباً آخر على الساحة العامة وقلّص كثيراً التأثير المتوقع لمثل هذه الجولة. إلا أن أكثر ما أساء إلينا، هو تقاعس المشتركين في الجولة عن متابعة الاتصال مع من استضافوهم في بيوتهم في بساطة ومحبة، وكأني بالعطالة العربية الموروثة عادت فتغلبت على أهم نتائج هذا الإنجاز.

ثمة نقطة هامة، هي تمويل هذه الرحلة المكلفة جداً.

مصادر التمويل ثلاثة فقط:

مساهمة شخصية من كل مشترك بلغت عشرين ألف ليرة سورية لا غير.

مساهمة من بعض الأصدقاء العرب، من مسيحيين ومسلمين، داخل سورية وخارجها.

المساهمة الكبرى جاءت من شاب لبناني، فلسطيني الأصل، دمشقي المولد، وضع في تكتم تام، في تصرفي مبلغاً أعدت إليه منه بعد عودتنا، عشرين ألف دولار، وكان قد قدم كل ذلك ضمن شرطين اثنين: الأول أن نخبر الأوروبيين بما يجري في حي الصوفانية، من حدث ديني خارق، يجمع المسيحيين والمسلمين جنباً إلى جنب في صلاة ومحبة، والثاني، أن ترافق المجانية المطلقة جميع حفلاتنا.

ودعني أضيف أن هذه المجانية أتاحت لي في مطلع كل حفل ولقاء، مجالاً من الحرية التامة، بل القاسية، في كلامي بشأن العلاقات بين الشرق والغرب.

وعلى الرغم من جميع هذه السلبيات، نظمت رحلة ثانية في صيف عام١٩٩٦، إلى فرنسا وبلجيكا، شارك فيها (١٣٦) شاباً وفتاة، دون الجوقة السابقة سناً. فقدمنا خلال خمسة وعشرين يوماً، عشرين حفلاً دينياً وفنياً، لاقت كلها إقبالاً وترحيباً لا يقلان عما لاقته الجوقة السابقة. وقد استقبلت هي أيضا في بعض المدن الفرنسية، في البيوت، في فرح ومحبة. إلا أننا واجهنا في هذه الجولة أيضاً غياب السفارات العربية والإعلام العربي. أما الإعلام الغربي، فلا يفاجئني غيابه البتة في كلا الجولتين، لأنه بكليته خاضع للهيمنة الصهيونية.

أما تمويل هذه الرحلة، فكان له مصدران لا غير:

الأول: مساهمة شخصية من كل مشترك بقيمة (٢٥٠٠٠) ل.س

الثاني: الشاب اللبناني إياه، وضمن الشرطين السابقين إياهما!

بعد ذلك، عبثاً حاولنا تنظيم رحلات إلى كندا والولايات المتحدة، حيث كنت أجد حماساً نارياً في حضوري، لا يعتم أن يتلاشى بعد غيابي. ولكم كانت رغبتي شديدة ببناء جسور مع هذين البلدين!

إلا أننا استطعنا أن نبني جسراً آخر مع أبعد قارة هي استراليا، بفضل مساعي أسقف سوري فيها، هو المطران عصام درويش. وقامت الرحلة في شهر نيسان من عام ٢٠٠٤م، بخمسة وخمسين شاباً وفتاة على نفقتهم الخاصة، على أن تكون الإقامة والمواصلات من شأن الأسقف واللجنة المنظمة. وقد دامت الرحلة عشرين يوماً، زرنا خلالها مدينتي سدني وملبورن فقط، وقدمنا حفلات كثيرة، وكما في الجولتين السابقتين، كانت حفلاتنا كلها غير مأجورة. وقد أتاحت لي هذه المجانية مخاطبة جميع من التقيناهم آنذاك في حرية ومحبة.

وكادت أن تقوم في العام نفسه رحلة قوامها مئة طفل، إلى عواصم أوروبة الكبرى: باريس ومدريد وروما وبروكسيل، ضمن برنامج مذهل بغناه وتنوعه. قلت: كادت أن تقوم، لأننا لم نجد سوى «اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة» تضع في تصرفنا (١٠٠٠٠٠) دولار في حال قيام الرحلة، في حين أننا لم نجد لدى من طرقنا أبوابهم، من يقدم لنا ما تبقى من نفقات، وهي (٢١٠٠٠٠) دولار لا غير!

أيعقل أن يجهض مثل هذا القدر من المال، مثل هذا القدر من الطموح الديني والفني والقومي، المشروع والضروري؟

- **علمت أن وديع الصافي، المطرب اللبناني المشهور، صديقك، وأنه رتّل مع فرقتك في بعض الحفلات. هل يمكن أن تذكر لنا هذه الواقعة؟**

- سؤالك عن وديع الصافي يثير سؤالاً كبيراً: من كان بوسعه أن يأتينا بمثل هذا العملاق المسمّى وديع الصافي؟ دعني أقولها بملء فمي: إننا مدينون في جوقة الفرح للسيدة العذراء، سيدة الصوفانية، التي جمعتنا به في بيتها في آخر يوم من عام١٩٨٤. جاء ليكّرم الأيقونة التي انسكب منها الزيت لسنوات طويلة، ويكرم البيت الذي تحوّل حتى اليوم إلى مزار يأتيه الناس من شتى أرجاء الأرض، للتبرك والصلاة. منذ ذلك اليوم، بدأنا مع وديع الصافي مشواراً يحسدنا عليه الكثيرون، في مجانية مطلقة، في فرح، في محبة وفي عطاء دائم. وقد توّجَنا هذا المشوار بحفلة استثنائية أقيمت في كنيسة سيدة دمشق، مسَاء ١٩٨٨/١٢/٤، أنشد فيها وديع الصافي ورافقه في الإنشاد مئة شاب وفتاة. وقد أثارت هذه الحفلة عاصفة من الاعتراضات في الكنيسة، إلا أنها أقيمت، وصورها التلفزيون العربي السوري، وأعاد بثها مرات ومرات، وحضرها العديد من المثقفين، من مسلمين ومسيحيين. فكانت بداية لمسيرة طويلة ومتشعبة، قادتنا إلى سورية ولبنان في مناسبات كثيرة، وكان وديع الصافي فيها كلها، هو هو، تألقاً في العطاء، وسعة في الإيمان، وطباعاً في المحبة. وقد مهد لنا بحضوره الاستثنائي وألحانه المتميزة الجديدة، ولوج القلوب والبيوت العربية، والتطلع إلى بناء الجسور مع العالم غير العربي.

- **لماذا سميت فرقتك «جوقة الفرح» ..؟**

- إن اسم «جوقة الفرح» برنامج قائم بذاته. إنه وجه من وجوه التحدي الذي يشكل عشقي الأكبر في هذه الحياة. فهل من شيء أجمل من أن تعلن الفرح والرجاء في زمن الياس والانهزام العربيين؟

ودعني أضيف بأن اختيار هذا الاسم جاء نتيجة مشاورات طويلة ومتكررة بين أفراد الجوقة، بما فيهم الأطفال، وأهلهم، والمسؤولون فيها.

- **عددت لك حوالي ٢٠كتاباً، منها اثنان بالفرنسية، فهل أنت مؤلف؟ وما نوع مؤلفاتك؟ وهل ستصدر بعد كتابك الأخير «أمن أجل فلسطين وحدها»؟ كتباً أخرى؟**

- أجل، كتبت. والكلمة بالنسبة إلي رسالة. وإلا فالصمت أولى. وكتبت باللغتين اللتين أتقنهما: العربية والفرنسية. كتبت لأقول شيئاً ما. كتبت لأقول إيماني كعربي وككاهن عربي. أقول إيماني بالله، بالإنسان، بالحياة، بالحق، بالعدل، بالحب، بالحرية، بالكرامة، بضرورة التحدي، بضرورة رفض التردي.. كتبت لأقول غضبي في وجه الكذب والازدواجية والظلم والسرقة والهروب.. وما أوسع الأبواب يطرقها الإنسان، إذ يريد أن يقول حقيقة ما، في حرية، وصدق.. وكتبت مسرحاً، صوّرت عام١٩٧١م، كاهناً يقاوم في القدس الساكنة في عمقي، وتابعت كتابة المسرح ونجحت، والدليل على ذلك أن إحدى مسرحياتي، «وجبة الأباطرة»، لم يؤذن حتى اليوم بعرضها، وهي من عام١٩٨٥م! وترجمت للمسرح -لأن المسرح من أنجح أدوات التغيير في المجتمع- يوم تعذرت عليّ، لأسباب صحية، متابعة التدريس في المعهد العالي للفنون المسرحية.. وفي مطلع السبعينيات ترجمت للعنف بتكليف من وزارة الثقافة.. وكتبت خصوصاً في الشأن الفلسطيني، وهو هاجسي الأكبر.. ومن أجل فلسطين، كتبت رسائل احتجاج ومطالبة، مفتوحة وشخصية، إلى العديد من المسؤولين في العالم، وعلى رأسهم البابا الراحل يوحنا بولس الثاني، والرئيس شيراك والرؤساء كارتر وريغان وبوش، وبعض المسؤولين في كنائس الغرب. وكتبت بالفرنسية أيضاً كتابين طُبِعا في باريس منذ عام١٩٩١، حول «ظاهرة الصوفانية»، التي أشرت إليها قليلاً في إجابتي على السؤال الرابع.. بالطبع مازال لدي الكثير أقوله، إن أتاح لي الله ذلك. فالكلمة هي ذات الإنسان، وما أعظم ما يستودع الله في ذات الإنسان، إذا أحب!

- ليكن سؤالي الأخير عن مولدك ونشأتك ودراستك، وكيف اتجهت إلى الالتحاق بالكنيسة؟ هل هو تصميم منك، أم من الأسرة، أم إلهام رباني؟

- فلأختصر: مولدي كان في حارة بستان الصليب التي أُزيلت في السبعينيات، امتداداً لشارع بغداد في اتجاه سوق الهال الجديد، في حي القصاع. وفي هذا الحي المطل آنذاك على الغوطة، نشأت طفلاً شديد المراس، يحب الطبيعة واللعب المنظم، ويهوى كرة القدم بجراب من قماش، والغناء، ويهب كتب الدرس من الاهتمام ما يؤهله لأن يكون بين الأوائل. وأتيح لي أن أواصل دراستي الإعدادية والثانوية في لبنان، في دير القديسة حنة، في بلدة رياق، حيث أفعمت بحب يسوع والإنسان معاً والمطالعة والسباحة والرياضة. ثم انتقلت إلى القدس مدينة يسوع، حيث عشقته وعشقت فلسطين، وحيث اكتشفت علىَ نحو مفجع، منذ ذلك الحين، وخلال سنوات طويلة من الدراسة والمطالعة والتجوال في جبال القدس وجوارها، اكتشفت المأساة الفلسطينية، وما تشكله من مقياس نهائي لقيام العرب والعروبة، أو زوالهما..

وخلال دراستي في القدس ما بين عامي١٩٥٢ و١٩٥٩م، أمضيت عام ١٩٥٥-١٩٥٦م الدراسي، في فرنسا، في دراسة نفسية وفي خبرة إنسانية، قررت في أثرهما اختيار الكهنوت سبيل حياة لي في الشرق العربي، كي أكون حراً في خدمتي لله والإنسان معاً، ولذلك شئت كهنوتي متبتلاً. وما كان لأحد أن يضغط علي في هذا الاختيار، بل العكس هو الذي حصل. إلا أن حبي ليسوع والإنسان كان الأقوى، وهذا الحب بعينه هو الذي قادني ويقودني كل يوم وحتى اللحظة، إلى الإنسان، كل إنسان، في حب واحترام وفرح. وإني اليوم، على ما أنا عليه من سن متقدمة، أشعرني كما لو كنت في أول يوم. فالطريق إلى الله تمتد أبداً، ولا تعرف نهاية. وهي هي الطريق إلى الإنسان!

فؤاد حبش

١٢ موسوعة رياضية !

مدّ الله في عمره، فهو من مواليد دمشق في العشرية الثانية من القرن الماضي، لكن لأنه رياضي يمارس الرياضة حتى اليوم، تشعر أنه في شرخ الشباب، ومن فضائله أنه صار بطلاً في عدة رياضات، إلا أن بطولته كانت في إنشائه ١٢ موسوعة رياضة سورية، حتى الآن طبعت بانفاق من الموسوعة العربية الكبرى، وبمساعدة ألمانية. فكانت خلاصة تجربة الرياضة في بلادنا خلال قرن من الزمان، وفي دمشق بخاصة.

عام ١٩٢٣

إن فؤاد حبش، مع أنه بطل ومؤرشف للرياضة.. رجل موسوعي في اختصاصه.. ويسعدني أن يكون أول رياضي ألقاه في لقاءاتي وحواراتي في هذا الكتاب.

قلت له، عندما التقيته في بيت أخيه نزار حبش، الوسيم، الذي هو شاب في السبعين:

- **حدثني عن ولادتك، ونشأتك، ودراستك !**
- من مواليد دمشق عام ١٩٢٣ وتابعت دراستي في الكلية العلمية الوطنية وفي معهد اللاييك بعد ذلك.

نلت شهادة البكالوريا السورية عام ١٩٤٦ والتحقت بالمعهد العالي للتربية البدنية بالقاهرة عام ١٩٤٧م وتخرجت عام ١٩٥٠، والشهادة التي حصلت عليها هي بإمضاء وزير المعارف العمومية في مصر في ذلك الوقت (طه حسين) !

جميع الألعاب..

وأحببت أن أدخل في موضوع اختصاصه فسألته:

- **ما هي المراحل البطولية التي حققتها؟. وفي أي رياضات؟**
- مارست الرياضات على اختلاف أنواعها وبدأت بالكرة الطائرة والجري والوثب منذ نشأتي في الكلية العلمية الوطنية ثم كرة السلة والسباحة وكرة القدم والعفرة في المدرسة !

أكبر أرشيف رياضي..

- وتولعت بجمع الأرشيف وصور الأبطال وسيرتهم منذ أن كنت لاعباً في الثانوي ثم تدرجت بجمع المعلومات. وهي هواية بدأت بها عام ١٩٤٥ أي منذ حوالي ٦٠ عاماً وأصبحت صاحب أكبر أرشيف رياضي وموسوعي خلال هذه السنوات الطويلة في الوطن العربي.

وبدأت بالكتابة في الصحف والمجلات منذ عام ١٩٥١ بعد تخرجي من المعهد العالي للتربية البدنية وحتى هذا التاريخ. ولم أتسلم مركزاً قيادياً في الرياضة إلا عندما أصبحت مختصاً في الرياضة، وكان أول مركز رياضي تسلمته عام ١٩٥٢ رئيساً للاتحاد السوري لألعاب القوى عام ١٩٥٢.

وتابعت مسيرتي كقائد رياضي بعد ذلك فأصبحت مفتشاً للتربية البدنية في وزارة المعارف لمدة ١٢ عاماً من عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٦٢ وعضواً في اللجنة الأولمبية السورية في أول تشكيل لها في سورية عام ١٩٥٣ ولفترات متقطعة وطويلة دامت حتى عام ١٩٩٤ م.

وتسلمت رئاسة الاتحاد السوري لألعاب القوى لفترة تزيد عن ٢٥ عاماً وبفترات متقطعة، ثم رئيساً لاتحاد التنس (كرة المضرب) لفترة ٥ سنوات ثم رئيساً لاتحاد كرة السلة السوري لفترة ٨ سنوات من ١٩٥٨ وحتى ١٩٦٥م.

وأثناء الوحدة مع مصر أصبحت عضواً في اللجنة الأولمبية للجمهورية العربية المتحدة ونائباً لرئيس الاتحاد العربي لكرة السلة ونائباً لرئيس الاتحاد العربي للسلة.

حكم في مختلف الألعاب..

وسألته:

- **والتحكيم، ألم تعمل حكماً، وأنت تعرف كل هذه الرياضات؟**

- برعت في التحكيم لمختلف الألعاب وأصبحت في وقت من الأوقات حكماً دولياً في ٥ ألعاب معترف عليها من قبل الاتحادات الدولية المعنية وهي حكم دولي بكرة السلة وحكم دولي في الكرة الطائرة ومحاضراً دولياً، وحكماً دولياً في ألعاب القوى والتنس (كرة المضرب) والسباحة وهي مهمة شاقة ونادرة الحدوث في أي دولة عربية وإتقان التحكيم فيها على مستويات دولية رفيعة !

مراحل البطولة

- **ما هي مراحل البطولة التي حققتها؟**

- كثيرة: كنت عضواً في منتخب سورية لكرة السلة منذ عام ١٩٤٦ وحتى عام ١٩٥٥ ومثلت سورية في دورة المتوسط الأولى للإسكندرية عام ١٩٥١ ثم في الدورة العربية الأولى في الإسكندرية عام ١٩٥٣ وفي دورة المتوسط الثانية في برشلونة بإسبانيا عام ١٩٥٥ ولعبت دولياً في ١٢ مباراة دولية خلال هذه الفترة، كما كنت عضواً في منتخب سورية للسلة عام ١٩٤٩ ولعبنا في بطولة أوروبا لكرة السلة في ذلك العام والتي جرت في القاهرة.

وفي كرة المضرب حيث مثلت سورية في عدة لقاءات دولية في القاهرة ولبنان وموسكو وأحرزت بطولة دمشق لسنوات عديدة بلغت حوالي ٢٠ سنة من عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٧٠، وأحرزت بطولة سورية للفردي ٥ مرات في الفترة من ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٧٠، وبطولة سورية في زوجي الرجال حوالي ٧ مرات بصحبة عصام انكليزي ٣ مرات وموفق حافظ ٤ مرات.

وعندما كنت طالباً في معهد التربية البدنية في القاهرة برعت كلاعب وبطل في العديد من الألعاب ومثلت المعهد في بطولة المعاهد العليا في

مصر في ٨ لعبات رياضية مختلفة واللاعب الوحيد الذي شهده المعهد في تاريخه الذي يمثل المعهد في ٨ ألعاب رياضية مختلفة هي: كرة القدم واليد والسلة والطاولة والمضرب، وألعاب القوى.

كرة المضرب

- أحببت ومارست كرة المضرب (التنس)، فما هي أحوالها في سورية؟

- بدأت عام ١٩٤٢ وفي عام ١٩٤٦ فزت ببطولة نادي بردى وفي عان ١٩٤٩ أصبحت بطلاً لدمشق وزاولت هذه اللعبة حتى عام ١٩٧٠ ثم اعتزلت اللعب في البطولات وأصبحت أزاولها ولكن بصورة جدّية وكل يوم حوالي ٤ ساعات لعب حتى عام ١٩٨٨ أي ما يقارب من ٤٥ سنة كاملة بسبب عملية جراحية في العينين.

أما فيما يتعلق بأحوالها في سورية أعتقد أن هذه اللعبة بالذات تحتاج إلى ملاعب عديدة لتخريج أبطال، فمثلاً في مصر يوجد في النادي الأهلي حوالي ١٦ ملعباً، وفي ملعب التوفيقية حوالي ١٥ أو ١٦ ملعباً وفي نادي الجزيرة يوجد حوالي ٢١ ملعباً مع ملعب ومدرج رئيسي يتسع ل- ٥ آلاف متفرج، وهكذا في جميع الأندية القاهرية لا يقل وجود أي نادٍ لا يوجد فيه من ١٥ ملعباً وجميعها رملية ممتازة أو أكثر.

وإذا أحصينا الملاعب الموجودة بدمشق حالياً فإنها لا تتعدى الملاعب العشرة أو أكثر بقليل ربما، مقارنة مع سنوات الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي فهي قليلة حالياً وبإحصاء دقيق في ذلك العهد كان يوجد في الملعب البلدي لوحده ١١ ملعباً للتنس رملياً وملعب مع مدرجات يتسع لألفي شخص!

فكيف نريد أن نقول بأن هذه اللعبة قد تقدمت أو أحوالها أفضل من الأول أو أفضل من غير بلدان عربية؟!

الموسوعة الرياضية

كان كل ما أريد أن أصل إليه هو الموسوعة الرياضية التي ألفها، معتمداً على أرشيفه وعلى معلومات استغرقت منه طويلاً حتى جمعها.

سألته:

- **اختاروك لتأليف موسوعة رياضية، أعلم أنها صدرت، وقد أهديتني نسخة منها مؤلفة من جزئين ضخمين، فحدثني عنها بالتفصيل؟**

- كلفت من قبل الموسوعة العربية الكبرى بإعداد مواضيع رياضية تخص الحركة الأولمبية الدولية وما هي شعاراتها وأهدافها، وكذلك الدورات الأولمبية وأين أقيمت منذ نشأتها، واللجان الأولمبية في البلدان العربية ومتى أنشأن وتأسست وكذلك الدورات الرياضية العربية والدورات الرياضية الإقليمية والقارية، والرياضة العربية بصورة عامة في كل بلد عربي وغيرها من المواضيع الدولية والأولمبية وقد نشرت في الأعداد الأولى من الموسوعة العربية الكبرى. وسينشر الباقي في الأعداد التي ستصدر لاحقاً.

إن الحديث عنها يطول، فأرجوك أن تعود إليها.

خبير رياضي

- **منحت خبرتك الرياضية لبلادك سورية، ثم منحتها للعرب، فتعاقدت مع السعودية لتقدم لها خبرتك، وقد عرفت أنهم يتمسكون بك هناك على الرغم من بلوغك سن التقاعد منذ زمن؟**

- عملت في الحركة الرياضية السورية لاعباً وبطلاً ثم قيادياً وخبيراً لمدة حوالي ٤٠ سنة كاملة وفي مجالات مختلفة، ثم تعاقدت مع الاتحاد السعودي لألعاب القوى في الرياض كخبير ومستشار لرئيس الاتحاد السعودي لألعاب القوى الأمير نواف بن محمد بن عبد الله آل سعود من عام ١٩٩٢ وحتى هذا التاريخ، وطالما أنني أتمتع بصحة جيدة والحمد لله رغم بلوغي سن التقاعد منذ فترة طويلة !

كما أعمل في الاتحاد العربي لألعاب القوى في الرياض المقر الدائم للاتحاد العربي كمدير فني للاتحاد، الذي ساهمت في تأسيسه للاتحاد السوري لألعاب القوى من عام ١٩٧٥م.

صحافي رياضي

- **أعرف أنك ما زلت تزاول مهنة الصحافة، مهنتنا المشتركة؟**

ضحك وقال:

- كنت مديراً لتحرير مجلة " البطل العربي " التي يصدرها الاتحاد منذ عام ١٩٧٩، وقد صدر منها حتى الآن ٦٤ عدداً متميزاً، وهي توزع مجاناً على جميع الاتحادات العربية لألعاب القوى.

بالأسرة الرياضية السورية

وسألته:

- **ما هو رأيك في مستقبل الرياضة في سورية وفي الإنجاز العظيم الذي حققه السباح السوري "معلا" في السباحة بين قارتي أوروبا وآسيا؟**

- الرياضة تتقدم، والإنجاز عظيم وواسع.

- **وعلاقتك بالأسرة الرياضية في سورية؟ وفي الاتحاد الرياضي العام؟**

أجاب:

- علاقتي بالأسرة الرياضية في سورية وبالاتحاد الرياضي العام جيدة ومتميزة وجلهم أي القياديون الذين تولوا المراكز القيادية في الاتحاد الرياضي هم من زملائي القدامى أو من تلاميذي وأشكرهم جليل الشكر لأنهم يكنون كل محبة لي ويقدرون العمل أو الأعمال الرياضية التي قمت بها في الماضي والحاضر.

جديدة في الرياضة

وكان لا بد لي من أن أوجه إليه السؤال التالي:

- **ما هو جديدك في عالم التأليف الرياضي؟ ما هي الكتب التي صدرت لك، بالإضافة إلى الموسوعة المذكورة؟**

وأجاب:

- بصفتي عضواً في الاتحاد الدولي للإحصائيين في ألعاب القوى منذ عام ١٩٧٩ فقد قمت بتأليف أكثر من ١٢ موسوعة في مجال الأرقام القياسية العالمية والقارية والعربية صدرت جميعها باللغة الأجنبية (إنكليزي وفرنسي) وصدرت جميعها في ألمانيا بالشراكة مع عدد من الزملاء في الاتحاد الدولي للإحصائيين وبيعت في جميع البلدان للقارات الخمس لأنها موسوعات نادرة تنشر الأرقام القياسية للجنسين في ألعاب القوى لجميع دول العالم بدون استثناء وعددها ٢١٢ دولة.

أما الكتب والمجلات، فقد شاركت مجلة "الصقر" القطرية في كتابة هذه المواضيع الرياضية المختلفة منذ تأسيسها عام ١٩٧٨ وحتى هذا التاريخ، ومديراً لتحرير مجلة "البطل العربي" كما ذكرت وأنا أشرف على تحريرها وإعدادها وطباعتها وتصدر في دمشق وهي فصلية وتوزع على جميع البلدان العربية.

إضافة إلى ذلك فقد كلفني الاتحاد الرياضي العام في عام ١٩٩٠ لأرشفة وتأريخ الحركة الرياضية في سورية وقد قمت بنفسي ولمدة أكثر من عشر سنوات بالتجوال بسيارتي على جميع محافظات القطر لجمع المعلومات والوثائق والصور من أصحابي الرياضيين القدامى، وساعدني وأمدني بالعون رئيس الاتحاد الرياضي في ذلك الوقت الزميل والصديق الأستاذ سميح مدلل وكذلك السيدة هدى قرفول رئيسة المكتب الإعلامي في الاتحاد الرياضي، وقمنا بإصدار الجزء الأول من تاريخ الحركة الرياضية في سورية من عام ١٩٠٥ وحتى فجر الاستقلال عام ١٩٦٤. كما أصدرنا الجزء الثاني من تاريخ الرياضة في سورية ويتضمن سيرة حياة الرواد الرياضيون الأوائل

في سورية ومن جميع المحافظات، ونحن الآن وبمساعدة لجنة الأرشفة الرياضية في الاتحاد الرياضي التي يشرفني أن أكون رئيسها، نقوم بأرشفة وتأريخ الحركة الرياضية في سورية من عام ١٩٤٦ وحتى عام ١٩٧١ العام الذي شهد ولادة منظمة الاتحاد الرياضي العام، ثم بعد ذلك أرشفة الحركة الرياضية من عام ١٩٧١ وحتى نهاية القرن العشرين، أي نستكمل بذلك تدوين الحركة الرياضية في سورية خلال قرن من الزمن.

- **كيف نجعل من سورية بلداً متقدماً في الرياضة؟**

- أعتذر عن هذا الجواب لأنه حلقة مفرغة ويحتاج إلى شرح موسع وكبير لا مجال لذكره في هذه الآونة..

❖ ❖ ❖

لقد أمتعني، بشكل خاص أن يكون فؤاد حبش صاحب ١٢ موسوعة في الرياضة، وصاحب أكبر أرشيف شخصي للرياضة السورية والعربية.

إنه بطل لا في الألعاب التي مارسها فقط بل في كتابة وأرشفة الموضوعات الرياضية أيضاً.

فؤاد حبش: ملاحظات

- من أسرة دمشقية خالصة.
- مارس جميع الألعاب.
- كان بطلاً في كرة المضرب "التنس"، وهو حكم دولي.
- متزوج، وله ابن وبنتان.
- عمره الآن ٨٥ سنة، ما زال يمارس حياته العملية والرياضية.
- تبوأ مناصب كثيرة بجده واجتهاده.
- عمل موسوعات رياضية لصالح اللجنة الأولمبية الدولية.
- صاحب أكبر أرشيف رياضي في سورية.
- له ١٢ موسوعة رياضية، محلية، إقليمية ودولية.

محمد محسن

لحن لجميع المطربين العرب

من غيره من ملحني سورية لحن لجميع مطربي ومطربات العالم العربي؟ إنه محمد محسن (الناشف)[1] الذي تعلم النوتة الموسيقية، بعد أن نبغ في التلحين، وأبدع ألحاناً غنتها فيروز وصباح ووردة وهاني شاكر ووديع الصافي.. وكثير من أفذاذ الغناء في الوطن العربي. إنه الدمشقي فارس الأغنية العربية.

كم يسرني أن ألتقي به وهو في الخامسة والثمانين من عمره.. لأسجل هذه الوثيقة عن حياته وعشقه للفن.

حبه للموسيقى..

سألته:

- **المولد، والنشأة والدراسة؟**

- ولدت عام ١٩٢٢، ونشأت في "باب الجابية" بدمشق، ضمن أسرة مؤلفة من أب وأم وأخوة هم صلاح وموفق وهشام وعصام وعرفان ومروان، وأخت واحدة. وقد درست الابتدائية في مدرسة بحي القيمرية، والإعدادية بمدرسة صلاح الدين والسباهية حتى نلت شهادة البروفيه.

- **لماذا انقطعت عن الدراسة؟**

- لا شيء سوى حبي للموسيقى.

---

(١) توفي في صيف عام ٢٠٠٧ م رحمه الله .

كانت شهادة البروفيه كافية في تلك الفترة ليوصف حاملها بأنه متعلم، لكنه لم يترك الدراسة كرهاً في العلم، بل حباً في الموسيقى والتلحين وهياماً بهما إلى حد العشق.

- **هل هناك صدفة وراء اتجاهك إلى الموسيقى، التلحين بخاصة، أم أنه كان نتيجة تصميم من جانبك؟**
- لم تكن صدفة. كانت الموسيقى متعتي وهوايتي.. فاتجهت إلى الموسيقى ثم الموسيقى ثم الموسيقى.
- **ألم تواجه معارضة من ذويك؟**
- واجهت مصاعب كبرى، وتشردت، وسحت في الشوارع ونمت في الفنادق، لكني لم أتخل عن هذا العشق للموسيقى.

نظرة غير مستحبة

لكن إيمانه بموهبته كان أكبر قامة من الصعاب التي واجهها، ويحكي محمد محسن عن تلك السنوات التي أمضاها بعد خروجه من المدرسة وتعلقه بالموسيقى، وتردده على النوادي التي كانت تعنى بالموسيقى، وعلى موسيقيي أيام زمان، حتى استطاع بكفاحه وثباته أن يبرز كملحن لا يشق له غبار في بلد، كان ينظر إلى الموسيقى نظرة غير مستحبة.

لم أبدل كنيتي

- لماذا أبدلت كنيتك "الناشف" لمحسن؟
- لأن اسمي محمد محسن الناشف، ألغيت الناشف لأنها لا تنسجم مع الموسيقى، هذا كل ما في الأمر. اسمع.. كان علي أن أدرس كل حالة تتعلق بكاري قبل أن أظهر وأنتشر، وهكذا ارتأيت أن كلمة "الناشف" عصية على الجو الموسيقي.. فحذفتها.. هكذا بكل بساطة.

لمن لحن؟

- من هم أبرز من لحنت لهم من المطربين والمطربات، وكيف تم التعاون معهم؟

- أول من لحنت له المطرب الأردني جميل العاص، أما المطربة التي لحنت لها لأول مرة هي زوجة "رياض البندك".

- ما اسمها؟

- نسيت الاسم..

- من هم الآخرون؟

- المطربة تغريد محمد زوجة الصحافي ظافر الصابوني، وسعاد محمد اللبنانية ذات الصوت القوي، والمطربة الكبيرة ماري جبران، ووديع الصافي ونصري شمس الدين والشحرورة صباح ونجاح سلام وفيروز وسميرة توفيق، وفهد بلان، ونازك ونور الهدى، وهاني شاكر، ومحمد رشدي وشريفة فاضل وكثيرون.. لا أستطيع أن أعدهم..

- هل هذه الألحان لأفلام أم لاسطوانات؟

بعضها في اسطوانات تجارية وبعضها لحنت لأفلام..

- ألم تلحن لمطربين من أقطار أخرى؟

- بلى، لحنت لمحمد عبده من السعودية، وهو فنان ناجح.

- وصباح فخري، هل نسيته؟

- كلا لم أنسه.. صباح فخري في مقدمة الذين لحنت لهم..

البارزون

كان يبدو على محمد محسن النسيان في تعداد أسماء المطربين والمطربات الذين لحن لهم، وقد استغرق استدراجه إلى ذكر الأسماء التي ذكرها في مقدمة هذا السؤال حوالي نصف ساعة استطعت خلالها أن أسجل أسماء أبرزهم.

أي لحن؟

- **ما هو في رأيك الشخصي اللحن الذي أبدعته، وتعتبره مميزاً موسيقياً؟**
- أكثر من لحن أولاً مظلومة يا ناس لسعاد محمد.. ولهذا اللحن قصة، ففي كل لقاء صحفي معي.. يقولون إنني رفعت هذا المطرب أو المطربة إلا مع سعاد محمد.. فلحني لها "مظلومة يا ناس" رفعني.
- **ماذا تعني؟**
- كنت مغموراً، وكانت مشهورة، فشهرتني لأنها غنت لي..
- **والثاني؟**
- لحن "سيد الهوى" و "جاءت معذبتي" لفيروز أيضاً..
- **كم لحناً غنت لك فيروز؟**
- خمسة ألحان..

أبناؤه..

يبدو أن ألحانه التي تربو على ألف لحن.. تتضمن أغنيات كثيرة أثيرة عنده، فهي كأبنائه تماماً، وقد ذكرتني كلمة أبناء بهذا السؤال.

- **هل عندك أبناء؟**
- بنت وصبي.. لكن الاثنين في أمريكا..

ابناه بعيدان

وراح يشتم اليوم الذي وافق فيه على ذهابهما إلى أمريكا، فبعد أن توفيت زوجته اللبنانية.. بقي في البيت وحيداً. ورجاني إن كنت أعرف خادمة أمينة وجيدة لأرشحها له فوعدته. كان المشهد حزيناً، إنه وحيد في البيت، يساكنه طالب يدرس في الجامعة، ويقوم على تلبية ما يريد وهذا وإن كان اللجوء إليه لحاجة إلا أنه ينطوي على طابع إنساني قل أن تجده في فنان آخر.

الذين رحبوا

- لا شك أن ظهورك كملحن سوري قد لفت الأنظار إليك، من هم الملحنون الذين رحبوا بك وباستمرارك؟

- الموسيقار محمد حسن الشجاعي في مصر، والأستاذ مدحت عاصم، والأستاذ بليغ حمدي، والأستاذ عاصي الرحباني.. وغيرهم كثر. والدليل أن عاصي، مثلاً، كلفني بالتلحين لفيروز وكتب " سيد الهوى ".. خصيصاً لألحنها.

- مَن من الملحنين السوريين؟

- كلهم رحب بي. إنهم أصحابي والحمد لله.

الصداقات

- هل عقدت صداقات مع ملحنين من لداتك؟

- كلهم أصدقائي. إنني لا أزعل أحداً، ولا أغار من أحد، وأطلب من الجميع أن يعاملوني المعاملة نفسها.. وهذا ينطبق ليس على الملحنين فقط بل على جميع الأصدقاء الذين تربطني بهم صلات وصداقات.

العود والنوتة

- أعرف أن عبد الغني الشيخ كان يلحن بإيقاع يجريه بيديه على الطاولة، في حين أن الملحنين يعزفون ويؤلفون ألحانهم باللجوء إلى آلة موسيقية، فما هي طريقتك في التلحين؟

- أنا ألجأ إلى الآلة الموسيقية والنوتة الموسيقية.

- ما هي هذه الآلة؟

- العود.

- **هل تعرف كتابة النوتة؟**

- نعم درست الموسيقى فيما بعد، لما ذهبت إلى إذاعة الشرق الأدنى في قبرص، تعلمت النوتة الموسيقية، وبعض قواعد الموسيقى عند خوري مقيم في إحدى الكنائس في قبرص، هو الأستاذ حنا الخل.

في قبرص

كانت تلك الفترة الذي ذهب فيها إلى قبرص، حيث إذاعة الشرق الأدنى، فترة غنية له بخاصة وللفن السوري بعامة، فقد طلبت إدارة تلك الإذاعة - التي هي إذاعة لندن فيما بعد - من القصاص الشاب حكمت محسن والمخرج تيسير السعدي وأعضاء فرقتهما (الفرقة السورية) أن يذهبا إلى قبرص ويقيما فيها لكتابة تمثيليات سورية، يكتبها أبو رشدي (حكمت محسن) ويخرجها السعدي، واستدعت الإذاعة نفسها بعض الملحنين السوريين للإقامة في قبرص وإعطائها ألحانهم، وكان محمد محسن أبرزهم، ولم يكتف محمد بالعمل في الإذاعة، بل استغل الوقت لدراسة الموسيقى والنوتة الموسيقية، مما مكنه أكثر من التقدم وإحراز النجاح.

عمل غير التلحين..

- **اتجهت في مرحلة من مراحلك إلى تسويق برامج خاصة لبعض الإذاعات، أرجوك قص علي قصة هذا الجهد الإضافي في عملك الفني؟**

- انتقلت من مرحلة إلى مرحلة طلبت مني إذاعة المملكة العربية السعودية أن أعد إنتاجاً للإذاعة والتلفزيون في آن واحد، ففتحت مكتباً في شارع الحمراء في بيروت أسمته "أمية للفنون" ورحت أنتج بعض البرامج وأقدمها إلى بعض الإذاعات والتلفزيونات.

- كم دامت هذه الفترة؟

- حوالي ست سنوات.

تعاوني معه

أذكر في هذا الصدد أنني كنت واحداً من الكتاب الذين تعامل معهم الأستاذ محمد محسن، فقد كلفني بكتابة برامج للإذاعة السعودية، فكتبت له عدة برامج، لعل أبرزها "أشهر الحصارات في التاريخ" الذي أخرج في دمشق وأرسل إلى السعودية ليذاع هناك، وقد جاءني ثناء على فكرة البرنامج وطريقة عرضه.

ذكرني الأستاذ محمد ببرامجي التي كتبتها له، فطلبتها منه، إن كانت موجودة، فقال إنها موجودة في المكتب المملوء بالكتب والبرامج، ويصعب عليه أن يبحث عنها.. فاحترمت صراحته.

- **أين كان انتشارك كملحن؟ أعرف أن عدداً من الملحين والمطربين كانوا يمضون أوقاتهم في القاهرة، لأن القاهرة كانت تصنع الشهرة للفنانين؟**

- كنت مقيماً في مصر، تركت بيروت أثناء الحرب الأهلية وأقمت في مصر، ولما انتهت الحرب عدت إلى دمشق وبيروت، لكنني لم أكف عن التلحين لا في دمشق التي أسكن فيها بصورة دائمة ولا في بيروت ولا في القاهرة.. سلاحي هو عودي، والكلمات التي اعتاد الشعراء أن يعرضوها علي، فإما أن آخذها أو أعدل فيها، وقليلاً ما كنت أرفضها، لأنني كنت أتعامل مع شعراء جيدين، لا من سورية فقط، بل من جميع الأقطار العربية.

- **من هم الشعراء الذين يتواصلون معك الآن؟**

- الشاعر المقيم في المملكة العربية السعودية مسلم البرازي هل تعرفه؟

- **أعرفه طبعاً، وهو صديقي**

- إنه بين الحين والآخر يهاتفني ويسأل عني.

جيرانه..

محمد محسن مقيم في بناء الفنانين على اوتوستراد المزة، وجيرانه كلهم فنانون من أمثال أسعد فضة ورفيق السبيعي "أبو صياح" الذين وقفوا إلى جانبه، عندما توفت زوجته اللبنانية رحمها الله..

آخر لحن..

- أما زلت تلحن، وإذا كنت فما هو آخر لحن لك؟

- توقفت عن التلحين، ولكن إذا كنت سألحن.. فسألحن شيئاً ذا أهمية كبرى بالنسبة لي.

- مثل ماذا؟

- شيء لا أستطيع أن أحدده الآن، شيء أجد أنه يرفعني درجات أكثر على السلم الذي وصلت إليه، أما آخر لحن لحنته.. فلم أعد أتذكر. لا تنس عبء السنين علي.

مستورة..

- ما هو وضعك الحالي؟ أأنت منضم إلى نقابة الفنانين؟

- طبعاً، ولي تقاعد، مستورة يا أستاذ عادل..

حق الأداء العلني..

- هل يصلك من حق الأداء العلني.. ما يقوم بسد حاجتك؟

- أنا مهمل في حق الأداء العلني.. الله يصلحنا. ذهبت مبالغ كثيرة من بين يدي بسبب إهمالي هذا.

- إنه إهمال كبير، لأن بعض الملحنين يدخرون حق الأداء العلني لتقاعدهم

- هذا حدث ولا ألوم أحداً !

الجوائز والمنح

- ما هي الجوائز أو المنح أو الأوسمة التي حصلت عليها، إن وجدت؟

- أوسمة وشهادات تقدير من وزير التعليم العالي، من رئيس نقابة الفنانين، من مهرجان الأغنية السورية.

❖ ❖ ❖

هذا هو الدمشقي محمد محسن، كبير ملحني سورية.. إن هذا اللقاء استغرق مدة أطول من المعتاد، لأن فناننا قليل الكلام، وكل كلمة يدوزنها قبل أن تخرج من بين شفتيه، كأنها لحن من ألحانه الكثيرة التي توجت حقبة طويلة من التاريخ الفني للعرب.

فارس مشهور من فرسان الموسيقى.. هذا الدمشقي الأصيل.

شكر

أشكر، كل من ساهم في نشر هذه الحوارات مع أعلام دمشقيين، معاصرين مشاهير، وأخص بالشكر مجلة "المعرفة" الدمشقية الغراء التي فتحت صدر صفحاتها لعشرات من هذه اللقاءات، كما أخص بالشكر المؤسسة العامة السورية للكتاب، على احتضان ستة وعشرين شخصية دمشقية، ونشر حواراتي معهم في كتاب بمناسبة الاحتفال بدمشق عاصمة للثقافة العربية هذا العام ٢٠٠٨ م، وأرجو أن تتاح الفرصة لي لأضم حواراتي الأخرى مع أعلام سوريين في كتاب في المستقبل القريب.

المؤلف

كتب المؤلف

١- صدرت:

عالم ولكنه صغير	مجموعة قصص عام ١٩٥٦
زهرة استوائية في القطب	مجموعة قصص عام ١٩٦١
الثوار مروا ببيتنا	مجموعة قصص عام ١٩٦٣
أحلام ساعة الصفر	مجموعة قصص عام ١٩٧٣
الآس الجميل	مجموعة قصص عام ١٩٧٩
دمشق أيام زمان (٣ طبعات)	دراسة فلكلورية ١٩٩٠-٢٠٠١-٢٠٠٤
وردة الصباح	رواية دمشق عام ١٩٧٦
مسرح عربي قديم (طبعتان)	دراسة مسرحية ١٩٦٤ — ٢٠٠٤
كان يا ما كان	دراسة في الحكايات المروية دمشق ١٩٧١
حياة الفنان عبد الوهاب أبو السعود	تأريخ فني دمشق ١٩٦٢
السيف الخشبي	قصص للأطفال دمشق ١٩٧٣
بواكير التأليف المسرحي في سورية	تأريخ فني دمشق ١٩٧٨
أصدقاء النهر	قصص للأطفال بيروت ١٩٧٩
شوام ظرفاء	تأريخ لظرفاء بلاد الشام دمشق ٢٠٠١
من معارك النقد الأدبي في الخمسينات	دراسة نقدية دمشق ١٩٨٤
صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية	دراسة دمشق ١٩٧٤
الفصل الجميل	مسرحية للأطفال
الأول والأخير	رواية
اغتيال ملك الجان	مسرحية دمشق ١٩٨١
معطف الاخفاء	قصص للأطفال
الطفل الشجاع	قصص للأطفال دمشق ١٩٧٧
هالوليا	قصص دمشق ٢٠٠٠
كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام	مخطوطة محققة

أدعوك إلى الإسلام	قصة إسلامية محققة
رائد المسرح العربي أبو خليل القباني	دراسة مسرحية
ذكر السلحفاة	رواية
ديكتاتورية الذاكرة (١)	ذكريات في الفن
ديكتاتورية الذاكرة (٢)	ذكريات في السفر
المتفرج	قصص قصيرة ٢٠٠٧
مشاهير من دمشق	لقاءات ٢٠٠٨

٢- ستصدر:

ديكتاتورية الذاكرة (٣)	ذكريات في الأدب والصحافة
الألفاظ والجمل الجاهزة في حكي العامة	معجم
شوام ظرفاء	طبعة ثانية
قصص مضحكة جداً	حكايات (تفرط من الضحك)

٣- قيد الطبع:

حلم جديد	٦٠ قصة للأطفال

فهرس

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

مشاهير من دمشق: كتاب جديد من كتب عادل أبو شنب، أحب نشره مساهمة منه في احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية, عام ٢٠٠٨ م، وفي هذا الكتاب حوارات مع أعلام دمشقيين، كانت لهم جولات في عالم الفكر والأدب والفن، وهذه الحوارات، بقدر ما تلقي أضواء على ٢٦ علماً دمشقياً بارزاً، بقدر ما تثري الحياة الفكرية والأدبية والفنية المعاصرة في سورية, بل في البلاد العربية قاطبة .

والأعلام هم: تيسير السعدي، كوليت خوري، ياسين رفاعية، د. صباح قباني،

د. عفيف بهنسي، ناظم الجعفري، د. نذير العظمة، أحمد أبو سعدة، د. غسان الرفاعي، رفيق السبيعي، د. مازن المبارك، د. رفيق الصبان، بسام كرد علي، د. إحسان النص، بشير زهدي، نذير نبعة، كمال فوزي الشرابي، سهيل عرفة، د. قتيبة الشهابي، حسام تحسين بك، منى واصف، نادية الغزي، د. برهان العابد، الأب إلياس زحلاوي، فؤاد حبش، محمد محسن .

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٠٨

سعر النسخة داخل القطر ١٧٥ ل.س
في الأقطار العربية مايعادل ٣٥٠ ل.س